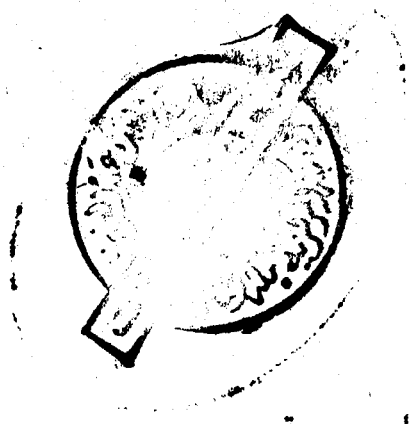

إمارة طرابلس الصليبية
في القرن الثاني عشر

رسالة الماجستير المقدمة من
الطالب / عبد العزيز محمود عبد الدايم

باشراف
الأستاذ الدكتور محمد عبد الفتاح عاشور

١٩٧١

محتويات الرسالة

المقدمة : الصفحه

الفصل الأول : تمهيد عن وضع الشام قبيل قدوم الصليبيين بوجه عام وطرابلس بوجه خاص ١

حالة الشرق الأوسط قبيل قدوم الصليبيين ٣

الخلافة الفاطمية ٣

الخلافة العباسية ٥

حالة طرابلس قبيل قدوم الصليبيين ١٣

طرابلس في التاريخ الاسلامي ١٥

بنو عمار وامارة طرابلس ١٦

الفصل الثاني : تأسيس امارة طرابلس الصليبية ٢٣

ريموند كونت تولوز ٢٤

بداية جهود الصليبيين للاستيلاء على طرابلس ٢٨

بناء امارة طرابلس الصليبية ٣٨

الحصار الأول لطرابلس ٤٠

الحصار الثاني لطرابلس ٤٢

وليم جوردان (السردانى) وامارة طرابلس ٤٦

سقوط أسرة بني عمّار ٤٨

برتراند وتأسيس امارة طرابلس الصليبية ٥٢

سقوط طرابلس في ايدى الصليبيين ٥٧

توحيد امارة طرابلس ٦١

استئصال مراكز المقاومة حول طرابلس ٦٢

الفصل الثالث : امارة طرابلس وعلاقتها بالقوى الاسلامية ٦٥

السلاجقة وطرابلس ٦٧

البيت الزنكى وطرابلس ٧٩

صلاح الدين وطرابلس ٩٤

دمشق والحشيشية وطرابلس ١٠٦

الفصل الرابع : علاقة امارة طرابلس بالدول والامارات الصليبية ١١٩

علاقة امارة طرابلس بالدولة البيزنطيه ١٢٠

الصفحه

علاقة امارة طرابلس بمملكة بيت المقدس ١٣٠
علاقة امارة طرابلس بامارة انطاكيه ١٤٢
علاقة امارة طرابلس بامارة الرها ١٥٠

الفصل الخامس : النظم الادارية والأوضاع الحضارية فى امارة طرابلس الصليبية ١٥٥

نظم الحكم والادارة ١٥٦
النظام العربى فى امارة طرابلس الصليبية ١٦٢
نظم امارة طرابلس القضائية ١٦٧
الحياة الاجتماعية فى امارة طرابلس ١٧٥
النظم المالية فى امارة طرابلس الصليبية ١٨٥
الحياة الثقافية والعلمية فى امارة طرابلس ١٩٢

قائمة المصادر والمراجع ١٩٦
الخرائط .....

"بسم الله الرحمن الرحيم"

المقدمة

نهضت امارة طرابلس الصليبية بدور هام في تاريخ الشرق الاسلامي في عصر الحروب الصليبية . اذ كان على الصليبيين الذين أسسوا في شمال الجزيرة امارة في الرها ، وفي شمال الشام امارة في انطاكيه ، وفي جنوب الشام مملكة في القدس ، كان عليهم أن يخضعوا البلاد الواقعة بين تلك الممتلكات المتباعدة لكي يضمنوا لانفسهم البقاء في الشرق . وكان من الصعب على تلك الامارات الصليبية أن تحتفظ بكيانها ، واستقلالها ، طالما تفصل بينها وبين بعض سلسلة من الامارات والحصون الاسلامية ، من أهمها امارة طرابلس الفاطمية لبني عمار . وقد تنبه الصليبيون لاهمية موقع امارة طرابلس الاستراتيجي في وقت مبكر لذا حرصوا على الاستيلاء عليها ، بمجرد استيلائهم على القدس ، بل لقد فكروا في احتلال طرابلس لتكون مدخلا الى القدس

وهكذا قدر لامارة طرابلس ، أن تكون محورا لكثير من الاحداث الحربية والسياسية فضلا عن النشاط الحضاري في عصر الحروب الصليبية ، الامر الذي جعلني اختار تلك الامارة موضوعا لبحثي لدرجة الماجستير وقسّمت الرسالة الى خمسة فصول :

تناول الفصل الاول ، احوال بلاد الشام بوجه عام ، وطرابلس بوجه خاص ، قبيل قدوم الصليبيين ، والصراعات القائمة بين الخلافتين العباسية ، والفاطمية والصعوبات التي واجهتها مثل الحروب العديدة والأزمات الاقتصادية مما اعطى الصليبيين فرصة ليمكنوا لانفسهم في الشام .

ويوضح هذا الفصل ايضا ، سياسة بني عمار في طرابلس وهم الذين أرادوا ان يكونوا بعيدين عن الصراعات القائمة بين الفاطميين والعباسيين .

وعالجت في الفصل الثاني تأسيس امارة طرابلس الصليبية ، فتناولت محاولة ريموند الرابع كونت تولوز للاستيلاء على المدينة سنة ١٠٩٨م ، خلال الحملة الصليبية الاولى ، في طريقه الى بيت المقدس وفشله في تلك المحاولة . كما عالجت ما قام به ريموند سنة ١١٠٢ م من استيلاء على المدن المحيطة بطرابلس مثل انطرطوس ، وجبيل ، وان كان قد توفي سنة ١١٠٥ م ، قبل أن يتمكن من الاستيلاء على طرابلس . ثم أوضحت في هذا الفصل كيف سقطت

طرابلس على يد برتراند بن ريموند وابن اخته وليم جوردان بعد أن عاونتهما بقية القوى الصليبية سنة ١١٠٩ م

أما الفصل الثالث فقد تكلمت فيه عن علاقة امارة طرابلس بالقوى الاسلامية المختلفة في شمال الشام والعراق . فتحدثت عن بداية ظهور حركة الجهاد الاسلامي ضد الصليبيين على يد مودود ، حتى اغتياله سنة ١١١٢ م . كذلك تناولت في هذا الفصل بالتفصيل ، مجهودات برسق ، وبلك بن ارتق ، وآقسنقر البرسقي ، أتابك الموصل ضد الصليبيين وأوضحت في هذا الفصل مجهودات عماد الدين زنكي في شمال الشام ، وخاصة ضد بحيرين ، أقوى قلاع كونتية طرابلس الصليبية سنة ١١٢٧ م ثم مجهودات ابنه نور الدين محمود ، الذي سار على نفس سياسة ابيه ، ضد طرابلس ، فهاجمها سنة ١١٦٣ م ، وهاجم حارم في سنة ١١٦٤ م حتى استطاع أن يأسر ريموند الثالث كونت طرابلس ، وبوهيمند الثالث امير انطاكيه ، وابرزت في هذا الفصل كيف استغل نور الدين حالة الفوضى التي سيطرت على الصليبيين ، فهاجم سنة ١١٦٧ م ، حصن الاكراد وعرقه ، وجبله ، والبرية ، وصافيثا ، كذلك تناولت في هذا الفصل جهود صلاح الدين ضد طرابلس قبل عامين سنة ١١٨٧ م وبعدها . وأوضحت كيف أن حكام دمشق ، لم يفكروا بمد يد العون لطرابلس الاسلامية ، قبل سقوطها في قبضة الصليبيين .

وعالجت في الفصل الرابع ، العلاقات السياسية والعربية والاقتصادية والدينية ، بين طرابلس ، والقوى الصليبية الاخرى ، فتناولت العلاقة بين طرابلس ، والامبراطورية البيزنطية ، ومملكة بيت المقدس ، وأنطاكيه ، والرها .

وأخيرا تناولت في الفصل الخامس والأخير من هذه الرسالة موضوع النظم الادارية ، والحربية ، والاجتماعية ، والمالية ، والثقافية ، لامارة طرابلس الصليبية .

واختتمت الرسالة ، ببيان عن مصادر البحث ، وهي كثيرة ، ومتنوعة منها الكتب التاريخية ، المعاصرة ، لتلك الفترة مثل :

كتاب ذيل تاريخ دمشق ، لابي يعلى حمزه المعروف بابن القلانسي (ت ٥٥٥ هـ) ، وكتاب تاريخ العظيمي لمحمد بن علي بن محمد (ت ٥٥٦ هـ) وكتاب الاعتبار ، لاسامه بن منقذ (ت ٥٨٤ هـ)

ومنها ما كتبه مؤرخو القرن السابع الهجرى ، وهى لا تقل اهمية فى دراسة تاريخ تلك الفترة ، ونذكر منها : كتاب الكامل فى التاريخ ، والتاريخ الباهر لابن الأثير الجزرى المتوفى سنة ٦٣٠ هـ ، وسيرة صلاح الدين لبهاء الدين بن شداد ت ٦٣٢ هـ ، وكتاب مفرج الكروب فى اخبار بنى ايوب لجمال الدين بن واصل ت ٦٩٧ هـ .

أما الكتب التى ترجع الى القرنين الثامن والتاسع للهجرة ، فهى كثيرة منها : كتاب كنز الدرر وجامع الغرر لابن ايبك الدوادارى ت ٧٠٩ هـ ، وكتاب السلوك لمعرفة دول الملوك ، والمواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار لتقى الدين احمد بن على المقريزى ت ٨٤٥ هـ ، وكتاب تاريخ الدول والملوك لابن الفرات ت ٨٠٨ هـ .

هذا كله بالاضافة الى المصادر غير العربية ومعظم هذه المصادر المعاصرة مجموع فى مجموعة مؤرخى الحروب الصليبية بالاضافة الى الدراسات التى احتوتها الكتب الحديثة ، عربية واوربية سواء .

* * *

وأرى فى ختام هذه المقدمة أن أتقدم بشكر لا تفى الكلمات للتعبير عنه لأستاذى الجليل الأستاذ الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور أستاذ كرسى تاريخ العصور الوسطى بكلية الآداب جامعة القاهرة فهو المشرف على هذه الرسالة وصاحب الفضل الأول فى اختيار هذا الموضوع وهو الذى وجهنى بارشاداته القيمة وتوجيهاته السديدة طوال البحث بروح فياضة من العطف والخبرة العلمية .

والله ولىّ التوفيق . ٭٭٭

الفصل الأول

تمهيد عن وضع الشام قبل قدوم الصليبيين

بوجه عام وطرابلس بوجه خاص

محتويات الفصل الأول

حالة الشرق الأوسط قبيل قدوم الصليبيين

الخلافة الفاطمية ـ الخلافة العباسية

حالة طرابلس قبل قدوم الصليبيين

تمهيد ـ معنى اسم طرابلس ودلالته ـ أصلها ـ موقعها ـ طرابلس في التاريخ الاسلامي

بنو عمار وامارة طرابلس ـ أبو طالب أمين الدولة الحسن بن عمار ـ كيف تولاها

جلال الملك أبو الحسن بن عمّار : سياسته تجاه الفاطميين والسلاجقة ـ توسيع ملكه

فخر الملك بن عمّار ـ وضع الامارة في عهده قبيل قدوم الصليبيين

" بسم الله الرحمن الرحيم "

حالة الشرق الأوسط قبل قدوم الصليبيين

وجدت في الشرق الأوسط في القرن الحادي عشر للميلاد خلافتان تنازعتا السيادة على المنطقة ، احداهما خلافة فاطمية شيعية ، والثانية عباسية سنية ، ويهمنا في الواقع معرفة ما كانت عليه هاتان الخلافتان بوجه عام ووضع مدينة طرابلس بوجه خاص حتى نستطيع أن ندرك مدى ما كان عليه الشرق الاسلامي في ذلك الوقت من قوة أو ضعف مهّد لقدوم الصليبيين

أولا ـ الخلافة الفاطمية :

أما عن الخلافة الفاطمية في القرن الحادي عشر فكانت تعاني من الضعف نتيجة لسياسة الخليفة الحاكم بأمر الله (٣٨٦ ـ ٤١١هـ) (٩٩٦ ـ ١٠٢٠م) وما اشتهر به من تقلّب الأهواء وما أجراه من اضطهادات عانى منها المسلمون والمسيحيون سواء وما ترتّب على ذلك من تخريب الكنائس ومنها كنيسة القيامة (١) وكذلك ازدياد نفوذ الوزراء العظام .

والواقع ان ذلك الدور بدأ باستئثار بدر الجمالي بالسلطة دون الخليفة المستنصر وتغالى ابنه الأفضل في اغتصاب حقوق هذا الخليفة ، بل أقدم بعد وفاته سنة ٤٨٧ هـ (١٠٩٤ م) على اقصاء ابنه نزار ولي عهده وأكبر أبنائه عن العرش ، وبايع أخاه الأصغر الأمير أبا القاسم احمد الذي لقّب (٢) بالمستعلي بالله .

وكانت أم المستعلي هذا ابنة بدر الجمالي ، وأخت الأفضل وظهر حرص الأفضل على تعيين ابن أخته خليفة حين أراد المستنصر قبيل وفاته أخذ البيعة (٣) لابنه نزار على رجال الدولة ، فتقاعد الأفضل عن ذلك وماطله حتى مات ، لاعتقاده أن نزار اذا ولي الخلافة حال بينه وبين مناصب الدولة . وأدى اقصاء

---

(١) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ١ ص ٧٨ ، محمد جمال الدين سرور : الدولة الفاطمية ص ٨٧

(٢) العصامي : سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي ص ١٦٣

(٣) ابن ميسر : تاريخ مصر ص ٣٥

نـزار عن الخلافـة رغم أحقيتـه لهـا الى اضطراب الأمور ، اذ أن الحسن الصبـاح رئيس الدعـوة الاسماعيليـه رأى أن تولية نزار الامامـة بعد أبيه المستنصـر (١) تتفق مع تعاليم الاسماعيليـة التي تشترط في الامام أن يكون أكبر أبناء أبيـه .

وبـذا صار الأفضل كما يقول المقريـزي : " هو سلطان مصر وصاحب الحـل والعقد واليه الحكم في الكافـة من الأمراء والأجنـاد والقضاة والكتاب وسائـر الرعيـة " (٢) وكان في الواقع هو الحاكم الحقيقي لمصر (٣) . ولم يكن للمستعـلي غير الاسـم (٤) ، وبلغ أيضـا من نفوذ الأفضـل أنه لمّـا توفي المستعـلي سنة ٤٩٥ هـ (١١٠١ م) احضر ابنه أبـا علي وبايعه بالخلافـة وأقامه مكـان أبيـه ولقبـه بالآمـر بأحكام الله وعمـره وقتئـذ خمس سنـين (٥) .

أدت تلك الأحداث الى انقسـام الدعـوة الشيعيـة في الشرق الأدنى الـى قسميـن : نزاريـة ، ومستعليـة ، ولم يكن هذا الانقسـام وحده هو عامـل الضعف الوحيـد للدولـة الفاطميـة ، اذ أخذ سلطان الفاطميين في الشـام يتداعى ولا سيمـا بعد أن حلّت بمصر أزمـة اقتصاديـة نتيجة لانخفاض فيضـان النيـل عن المستوى العادي اللازم لري الاراضي وكان ذلك سنة ٤٥٧هـ (١٠٦٥م) في عهد الخليفـة المستنصر بالله الفاطمي عندمـا حلت بالبـلاد أزمة عرفـت باسم الشـدّة العظمى استمرت سبع سنـين . وكان سببها كما يقول المقريـزي "ضعف السلطنـة واختلال أحوال المملكـة واستيـلاء الامراء على الدولة واتصال (٦) الفتن بين العربان وقصور النيل وعدم من يزرع ما شمله الـري "

ومن مظاهرها اهمال الزراعة وارتفاع اسعار الحبوب والمواد الغذائية وانتشار الوبـاء ، وقد اقترنت هذه الشدة بقيـام الفتن والحروب الاهلية ، فلمـا ولّـي بدر الجمالي الوزارة سنة ٤٦٦ هـ (١٠٧٣ م) قضى على المفسدين ووجـه اهتمامه الى اصـلاح حال البـلاد (٧) بعد أن أكل الناس بعضهم بعضـا وفـر (٨)

---

(١) ابن ميسر : تاريخ مصر ص ٢٧
(٢) المقريزي : الخطط جـ ٢ ص ٣٠٥ ، ٣٠٦
(٣) Runciman:op.cit.Vol.I p.265;Setton:op .cit vol.Ip.370
(٤) ابن طاهر : أخبار الدول المنقطعة . ورقة ٧٤ ، ابن دقماق : الجوهر الثمين في سير الملوك والسلاطين ورقة ٦٧
(٥) ابن ميسر : تاريخ مصر ص ٤٠ ، ابن أيبك الدوادار : كنز الدرر جـ ٦ ص ٤٦١ احمد بن علي العريري : الاعلام والتبيين ورقه ٢
(٦) المقريزي : اغاثة الأمـة بكشف الغمـة ص ٢٤
(٧) المقريزي : الخطط جـ ١ ص ١٠٠
(٨) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٩٨

البعض الآخر الى بغداد هربا من الجوع (١) ، وبلغ من شدة تلك السنين السبع وما قاست مصر ابانها أن شبهها ابن ميسر بسنين يوسف عليه السلام " يمد فيها النيل ويطلع وينزل فلا يجد من يزرع أراضي مصر من اختلاف العسكر وانقطاع الطرقات في البر والبحر " (٢)

وكان هذا بطبيعة الحال مما أثر في احوال الدولة الفاطمية لسنوات عديدة قبل قدوم الصليبيين .

ومن عوامل ضعف الفاطميين أيضا أن الجيش الفاطمي كان يتكون من عدة أجناس ، مثل المغاربة والسودان والأتراك وغيرهم ، وقد أدى تعدد العناصر والأجناس في الجيش الى قيام التنافس والتشاحن بين طوائف الجند ، وليس أدل على ذلك مما حدث في عهد المستنصر حيث قام خلاف بين طائفتي الأتراك والسودانيين في سنتي ٤٥٩ ، ٤٦٠ هـ (١٠٦٧ ، ١٠٦٨ م) مما كان له أسوأ الأثر في أحوال مصر الداخلية .

وصادف ذلك قيام الفتن والثورات والحروب في بلاد الشام أيضا بين بدر الجمالي والي دمشق حينئذ وبين جند دمشق وأهلها (٣) .

ويقول المؤرخ ابن ميسر أن الحرب صارت قائمة بمصر والشام وزاد من لوعتها اشتداد وطأة الغلاء والقحط في العامين التاليين ٤٦١ ـ ٤٦٢ هـ (١٠٦٩ ، ١٠٧٠ م) (٤)

ولم يستخدم الفاطميون المصريين في جيشهم ، غير أنه حدث في أواخر العصر الفاطمي حين أصبحت مصر مهددة من جانب الصليبيين أن اشترك المصريون في الدفاع عن بلادهم . هذا بالاضافة الى ما حدث في الجزء الأخير من القرن الحادي عشر عندما فقد الخلفاء الفاطميون الحكم في سوريه وغالبية فلسطين فانتقل حكم هذه الجهات الى سيطرة السلاطين السلاجقة المحبين للحرب والذين كانوا قد بدأوا يسيطرون على الخليفة العباسي ببغداد منذ سنة ٤٤٧ هـ (١٠٥٥ م) (٥)

---

(١) ابن الأثير : الكامل جـ ١٠ ص ٦١ حوادث سنة ٤٦٢ هـ
(٢) ابن ميسر : تاريخ مصر ص ٣٤
(٣) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٩٣
(٤) ابن ميسر : ص ١٨ ، ١٩ ، ٢٠
(٥) شهاب الدين احمد السلامي : مختصر التواريخ حوادث سنة ٤٤٧ هـ ،
ابن الأثير : الكامل جـ ٩ ص ٦٠٩ حوادث سنة ٤٤٧ هـ

هذا بالاضافة الى أن الخلفاء الفاطميين فى مصر صاروا لا يعنيهم شىء سوى القضاء على اعدائهم الاتراك السلاجقة مما يدل على قصر نظرهم وعدم درايتهم بحقيقة الامور ، وكانوا مستعدين للتحالف مع الصليبيين فى سبيل القضاء على الاتراك السلاجقة فانتهز الفاطميون فرصة الظرف الاقتصادية السيئة التى حلت بالصليبيين أمام انطاكيه وأرسل الافضل سفارة الى المعسكر الصليبى معتقدا أنه يستطيع أن يملى عليهم شروط الصداقة (١) وكان اقتراحه أن تقسم ممتلكات السلاجقة فى الشام فيستولى الفرنج على شمال الشام فى حين تأخذ الدولة الفاطمية فلسطين ، وذلك على اساس اعادة الوضع الى ما كان عليه قبيل الغزوات التركية السلجوقية وبما اعتقد أن الصليبيين ما هم الا عساكر مأجورة للامبراطور البيزنطى (٢)

ومن هذا يتضح مدى ضعف الدولة الفاطمية وأثر الخلاف المذهبى فى اثارة العداء بينها وبين السلاجقة حتى دفع ذلك الفاطميين الى السعى لمحالفة الصليبيين ضد السلاجقة . ولعل هذه العوامل مجتمعة توضح لنا الوضع الذى كان عليه الفاطميون وقت قيام الحروب الصليبية ، اذ كانت الدولة قد بلغت فى أيام الآمر بأحكام الله درجة كبيرة من الضعف والانحلال ، فمن انقسام الاسماعيلية فى مصر وبلاد الشرق الادنى الى مستعلية ونزارية الى ازدياد نفوذ الوزراء وانصراف بعض رجال الحكومة الفاطمية عن التمسك بمظاهر المذهب الاسماعيلى ، ومحاولة البعض الآخر احياء المذهب السنى . هذا كله فضلا عن المجاعات وضعف الجيش والحروب الداخلية .

هذا عن أحوال الفاطميين عامة قبيل قدوم الصليبيين الى الشام ونسمع أنه عند حصار الصليبيين لامارة طرابلس سنة ٥٠٢ هـ (١١٠٩م) كان الأفضل رجل مصر القوى مشغولا بمحاربة النزارية والقضاء على اعدائه وأعداء المستعلية فى الداخل ، بعد أن فشلت قواته التى أرسلها الى عسقلان مؤخرا فى مواجهة الصليبيين .

ثانيا — الخلافة العباسية :

أما عن القوة الأخرى التى كانت تتنازع مع الفاطميين الولاء الدينى للمسلمين فى الشرق الأدنى فكانت الخلافة العباسية . وكانت الخلافة

---

(١) Charles Mills: The History of the Crusades. Vol. I p. 179

(٢) Runciman: op.cit. Vol. I p. 229

العباسية تمر في ذلك الوقت بسنة قاسية بعد أن ملت قرابة قرن أي منذ سنة ٣٢٤ هـ (٩٣٥م) تمرزح تحت وصاية بني بويه ، الذين عملوا على الحد من نفوذ الخليفة العباسي في بغداد والبلاد الأخرى التابعة له (١) . وكان البويهيون يعتنقون المذهب الشيعي ويتعصبون له مما أدى الى انتشار الفتن المذهبية في العراق ، وزاد الطين بلة ظهور أبي الحرث أرسلان البساسيري أحد الغلمان الأتراك الذي عظم أمره واستفحل لعدم نظرائه من الغلمان الاتراك والمقدمين والاسفهسلارية الا أنه استولى على العباد والاعمال ومد يده في جباية الاموال وشاع بالهيبة أمره (٢) . ولم يكن الخليفة القائم بأمر الله ٤٢٢ ـ ٤٦٧ هـ (١٠٣٠ ـ ١٠٧٤م) يقطع أمرا دونه ، حتى صح عنده سوء عقيدته وخبث نيته وأنه يدبر مؤامرة للقضاء على الخلافة العباسية

ولما ساءت علاقته بالخليفة العباسي وأيقن من اعراض الخليفة عنه رأى وجوب الانحياز الى الفاطميين (٣) وقد اتضح موقف البساسيري للخليفة القائم بأمر الله بعد أن كتب اليه وزيره أبو القاسم بن المسلمة يوضح له أن البساسيري يعمل على خلعه وأنه راسل المستنصر الفاطمي صاحب مصر ، وعندئذ أرسل الخليفة العباسي الى الملك الرحيم أبو النصر خسروفيروز يأمره بابعاد البساسيري عن بغداد (٤) . وكان أن رحل البساسيري الى الرحبة بعد أن دخل طغرل بك بغداد ، وراسل البساسيري الخليفة الفاطمي الذي بعث اليه بداعيته هبة الله الشيرازي . كما أنه لم يدخر وسعا في امداده بالاموال والسلاح (٥) مما مكنه من الانتصار على قتلمش ابن عم السلطان طغرل بك في موقعة سنجار سنة ٤٤٨ هـ (١٠٥٦م) وانتهز البساسيري فرصة انشغال طغرل بك باخماد حركة أخيه ابراهيم اينال فتقدم الى بغداد وتمكن من الاستيلاء عليها وأقام الخطبة للمستنصر بالله الفاطمي وقبض

---

(١) سعيد عاشور : الحركة الصليبية جـ ١ ص ٨٠

(٢) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٨٧

(٣) جمال الدين سرور : النفوذ الفاطمي في بلاد الشام والعراق ص ٩٨ ـ ١٠٠ ، السلامي : مختصر التواريخ حوادث سنة ٤٥٠ هـ ، الاصفهاني : تاريخ دولة آل سلجوق ص ١٥

(٤) ابن الأثير : الكامل جـ ٩ ص ٦٠٨ حوادث سنة ٤٤٧ هـ

(٥) جمال الدين سرور : النفوذ الفاطمي في بلاد الشام والعراق ص ١٠٣ ، ١٠٥

على الخليفة العباسي ، ولكن المستنصر لم يقم بتشجيع البساسيري لمواصلة جهوده في بسط سلطانه على العراق ، وعندئذ سار طغرل بك الى بغداد ليقضي على البساسيري ويقتله . وهكذا حل السلاجقة محل البويهيين في الوصاية على الخلافة العباسية (١) . وقد أخذ السلاجقة منذ استقر نفوذهم في العراق في منتصف القرن الخامس الهجري ٤٤٧ هـ (١٠٥٥ م) يعملون على استعادة ما فقدته الدولة العباسية من البلاد واستمر طغرل بك يحرص على تنفيذ هذه السياسة حتى توفي سنة ٤٥٥ هـ (١٠٦٣ م) (٢) وخلفه ابنه ألب أرسلان ، فحذا حذوه وأرسل سنة ٤٦٢ هـ (١٠٦٩ م) الى محمود بن صالح بن مرداس أمير حلب يطلب منه اقامة الدعوة للخليفة العباسي بدلا من الخليفة الفاطمي ، فأجابه الى طلبه .

ثم سار ألب أرسلان بنفسه الى حلب في العام التالي وحاصرها شهرا ، غير أنه اضطر للعودة الى بلاده حين بلغه أن الروم اخترقوا بلاد أرمينيه بقيادة ملكهم أرمانوس (رومانوس الرابع) (٣) يريدون خراسان . وكان أن التقى الخصمان جنوبي مانزكرت حيث دارت الموقعة الشهيرة التي انتهت بهزيمة رومانوس وأسره ، مما يعتبر دليلا على نهاية دور الدولة البيزنطيه في حماية المسيحية من ضغط الاسلام ، وبذلك صار على الغرب الأوربي أن يقوم بدوره بدلا من الاعتماد على البيزنطيين ، وهذا ما يفسر في نظر البعض ما حدث سنة ١٠٩٥ م من دعوة للحرب الصليبية في الغرب الأوربي (٤) .

والواقع أن أطماع السلاجقة في بسط سلطانهم على بلاد الشام وضحت في عهد السلطان ملكشاه ، ففي سنة ٤٦٥ هـ (١٠٧٢ م) وجه ملكشاه حملة بقيادة أتسز التركماني فتح الرملة وبيت المقدس ، ثم يمم السير الى دمشق سنة ٤٦٧ هـ (١٠٧٤ م) (٥) فنزل عليها وبالغ في المضايقة لها الى أن تسلمها بالأمان — وذلك لوقوع الخلف بين والي دمشق رزين الدولة وبين أهل دمشق وتعرّض دمشق في ذلك الوقت لأزمة اقتصادية غلت فيها الأسعار حتى أكل الناس بعضهم بعضا — وأقام اتسز الدعوة فيها للخليفة العباسي المقتدي بأمر الله (٦) . ثم ان القائد

---

(١) سعيد عاشور : الحركة الصليبية جـ ١ ص ٨١
(٢) ابن الأثير : الكامل جـ ١٠ ص ٢٦ ، ٢٩ حوادث سنة ٤٥٥ هـ
(٣) „ „ „ „ ص ٦٥ حوادث سنة ٤٦٢ هـ
(٤) سعيد عاشور : الحركة الصليبية جـ ١ ص ٨٨ — ٨٩
(٥) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٠٨ — ١٠٩
(٦) ابن الأثير : الكامل جـ ١٠ ص ١٠٠ حوادث سنة ٤٦٨ هـ

أتسز خشى أن يعاود الفاطميون مهاجمته فجهز جيشا لغزو البلاد المصرية سنة ٤٦٩ هـ (١٠٧٧ م) في الوقت الذى كان بدر الجمالى منشغلا باخماد بعض الثورات في بلاد الصعيد فجند جميع الرجال القادرين على حمل السلاح ، واستطاع بمهارته أن يستميل الى جانبه فريقا من السلاجقة ، الأمر الذى عجل الهزيمة بجيشهم في فبراير ١٠٧٧ م ، وعندئذ فرّ أتسز الى غزه وأقام بالرملة حتى لحق به من بقى من عسكره ، ثم رحل الى دمشق (١) (٢) .

وما زال بدر الجمالى يعمل على اقصاء السلاجقة عن بلاد الشام حتى تمكّن سنة ٤٨٢ هـ (١٠٨٩ م) من استعادة معظم المدن الساحلية . غير أن الفاطميين لم يتمكنوا من الاحتفاظ طويلا بسيطرتهم على هذه المدن التى كان ولاؤها يقوى أو يضعف تبعا لقرب الاسطول المصرى أو بعده عنها (٣) .

وفى عام ٤٨٥ هـ (١٠٩٢ م) أمر السلطان ملكشاه نوابه بحلب والرّها بالسير مع قواتهم لمعاونة أخيه تاج الدولة تتش فى الاستيلاء على ما للخليفة المستنصر بالله الفاطمى من المدن الساحلية . على أن تاج الدولة تتش رغم نجاحه فى بسط سلطانه على معظم بلاد الشام ، قتل اتسز سنة ١٠٧٩ م حتى لا يكون الى جانبه فى دمشق بعد أن لاحت له منه امارات استوحش بها منه (٤) ويذكر ابن الأثير أن تتش اغتال اتسز لأنه خرج ليتلقاه عند سور البلد ولم يبعد فى تلقيه (٥) .

واستنجد بتتش أهل حلب ضد سليمان بن قتلمش الذى أخذ يحاصر مدينتهم بشدة وعنف (٦) وكان أن دارت المعركة بين الطرفين قرب حلب فى موضع يعرف بعين سلم فى يوم الاربعاء الثامن عشر من صفر سنة ٤٧٩ هـ (١٠٨٦ م) (٧) وانهزمت قوات سليمان الذى خسر تتش فى المعركة (٨) دون أن يخلف غير طفل صغير هو قلج أرسلان مما جعل الأناضول بدون حاكم قوى وبذلك غدا الطريق سهلا أمام الصليبيين .

---

(١) Setton : op. cit. Vol. I p. 94

(٢) ابن ميسر : تاريخ مصر ص ٣٥

(٣) Runciman: op.cit. Vol. 2 p. 11.

(٤) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١١٢

(٥) ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ص ١١١ حوادث سنة ٤٧١ هـ

(٦) ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ص ١٥ ، ١٦

(٧) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١١٩

(٨) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ٩٦ ، ٩٧

هذا بالاضافة الى أن ذلك العدد أثار الفرقة بين صفوف السلاجقة وباعد بينهم مما وقضى دون وقوفهم صفا قويا أمام الصليبيين ، مما مكنهم من انزال الهزيمة بكل بيت من بيوت السلاجقة على حده (١) .

وهكذا أصبح تتش سيد الموقف مما أثار مخاوف أخيه ملكشاه فانتهز فرصة اصرار أهل حلب على ألا يسلموا مدينتهم الا للسلطان ملكشاه نفسه فاتجه من اصبهان وجعل طريقه على الموصل فوصلها في رجب ٤٧٩ هـ (١٠٨٦ م) وسار منها الى جسر فحمرين يوما وليلة وملكها ثم ملك مدينة منبج ، فلما قارب حلب رحل عنها أخوه تتش (٢) حتى لا يحصل صدام بينه وبين أخيه وبدو هذا موقفا حكيما من جانب تتش ، فان الامير أرتق أشار عليه بأن يسير عسكر أخيه وقال انهم قد وصلوا بعد أن حل بهم وبدوابهم من التعب ما ليس عندهم معه امتناع ، فقال تتش " لا أكسر جاه أخي الذي أنا مستظل بظله ، فانه يعود بالوصل علي أولا " (٣) . ولما دخل ملكشاه حلب منحها لحاجبه المخلص قسيم الدولة آقسنقر مؤسس البيت الزنكي ومنح الرها لقائد آخر يدعى بوزان ، ومنح أنطاكيه لقائد تركي آخر هو ياغي سيان . وبذلك لم يبق لتتش سوى دمشق وفلسطين وكانت بيت المقدس بيد الأمير أرتق الذي خلفه ابنه سكمان الأول ٤٨٤هـ (١٠٩١ م)

وهكذا استطاع ملكشاه أن يمنع أخاه تتش من اقامة دولة كبيرة موحدة بالشام (٤) واصطحب معه عند عودته الامير الصغير قلج أرسلان الذي عاد بعد ذلك الى ملك أبيه بأصبا الصغرى ثم كان أن توفي السلطان ملكشاه سنة ٤٨٥ هـ (١٠٩٢ م) وكانت وفاته ايذانا بتفكك امبراطورية السلاجقة . ذلك أن السلطان ملكشاه كان له ثلاثة أبناء اشقاء هم : بركياروق ومحمد وسنجر . على أن ملكشاه كان قد تزوج زوجة جديدة انجبت له سنة ٤٨٠ هـ (١٠٨٧ م) ابنا رابعا هو محمود الذي كان في الخامسة من عمره فدب النزاع بين محمود الصغير وأمه تركان خاتون من ناحية وبركياروق من ناحية أخرى وانتهى الأمر باعطاء محمود أصبهان وفارس على أن تكون بقية الدولة من نصيب بركياروق . ولكن لم

---

(١) Grousset: Hist. des croisades, Vol.1 p. XIVI .

(٢) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ١ ص ١٠٧

(٣) ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ص ١٤٩ حوادث سنة ٤٧٩ هـ

(٤) Cam.Med.Hist. Vol.5 p.p. 263. 264

يلبث أن توفي محمود وأمه فاتجه بركياروق الى أصبهان فدخلها وملكها[1] . وكان هناك خطر آخر يهدد بركياروق من ناحية عمه الذي لم يرض عن التنظيم الذي أجراه أخوه ملكشاه في بلاد الشام سنة ٤٧٩ — ٤٨٠ هـ (١٠٨٦ — ١٠٨٧ م) لأنه كان يطمع في أن تكون بلاد الشام كلها من نصيبه ، فانتهز فرصة النزاع بين أولاد أخيه وأنصر آق سنقر صاحب حلب وياغي سيان صاحب انطاكيه وبوزان صاحب الموصل له ، وسار بهم يريد خلع بركيا روق وحدث في هذا النزاع أن تخلى أعوان تتش وأمراؤه عنه لقسوته ، ولأنهم لن يستطيعوا تحقيق مطامعهم ، بينما أدى ضعف بركياروق الى اتجاه الامراء نحوه لأن شخصيته كانت ضعيفة من شأنها أن تمكنهم من تحقيق أطماعهم . وهكذا انتهت الحرب بينهما بهزيمة تتش وقتله سنة ٤٨٨ هـ (١٠٩٥ م)[2] . ولا شك في أن انتصار بركياروق جاء بداية لانحلال قوى السلاجقة في الوقت الذي بدأت فيه الاستعدادات تجرى في غرب أوربا للخروج في الحملة الصليبية الأولى[3] .

أما بلاد الشام فاقتسمها بعد مقتل تتش ابناه رضوان ودقاق ، فاستقل الأول بولاية حلب ، وانفرد الثاني بدمشق ، لكنهما لم يكونا على وفاق فقد دب الخلاف بينهما ، ومع كل منهما في الاستيلاء على ما بيد الآخر ودارت بين الفريقين معركة بقنسرين حزم فيها دقاق الذي ما لبث أن اتفق مع أخيه رضوان سنة ٤٨٩ هـ (١٠٩٥ م)[4] على اقامة الخطبة باسميهما في دمشق . ولم تنته الانقسامات والحروب الاهلية في الدولة السلجوقية عند ذلك الحد ، بل لقد حدث سنة ٤٩٢ هـ (١٠٩٩ م) أن تام الخلاف بين بركياروق وأخيه محمد فثار محمد على أخيه وسعى في طلب السلطنة وقطع خطبة بركياروق من بلاده وخطب لنفسه بالسلطنة[5] ، مما جعل بلاد فارس والعراق مسرحا للحروب بين الأخوين على مدى خمس سنوات منذ سنة ١٠٩٩ م حتى سنة ١١٠٤ م حدثت بينهما خمس مواقع

---

(١) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ١ ص ١١٠

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ص ٢٣٩ حوادث سنة ٤٨٨ هـ ، ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٢٠

(٣) Grousset :op. cit. Vol. I p. LI.

(٤) أبو الفدا : المختصر في أخبار البشر ج ٢ ص ٢٠٩ ، ٢١٠ حوادث سنة ٤٩٠ هـ

(٥) ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ص ٢٨٨ حوادث سنة ٤٩٢ هـ ، ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٢٧ ،
Setton:op.cit.vol.I p.p.370.371;Runciman:op cit Vol.2p.13

حربية كبيرة خلال تلك السنوات عانت خلالها الدولة السلجوقية كثيرا من الاضطراب والفوضى (١) . وأخيرا تم في سنة ٤٩٧ هـ (١١٠٤ م) الصلح بين السلطانين بركياروق ومحمد ابني ملكشاه ، وكان سببه أن الحروب تطاولت بينهما وعم الفساد (٢) فصارت الاموال مغروسة والدماء مسفوكة والبلاد مخربة والقرى محرقة .

ولا شك في أن تلك الحروب الطويلة أدت الى ضعف السلاجقة وعجزهم عن مد يد المعونة لاخوانهم المسلمين في بلاد الشام (٣) . ولم يكن الخلاف بين السلاجقة في بلاد الشام خافيا على الفاطميين في مصر فرأوا أن ينتهزوا هذه الفرصة ليحاولوا من جديد اعادة سيطرتهم على ما فقدوه من مدن الشام ، فسار الأفضل بن بدر الجمالي ، وزير المستعلي بالله الفاطمي سنة ٤٩٤هـ (١٠٩٧ م) على رأس عسكر كثير الى ناحية الشام ونزل على بيت المقدس وفيه الأمير ان سكمان (٤) وايلغازي ابنا أرتق وجماعة من أقاربهما ورجالهما ، وخلق كثير من الأتراك وتمكن من الاستيلاء على البلد ورحل عنه نواب السلاجقة ووصلوا الى دمشق وعين الأفضل بن بدر الجمالي نائبا عنه وهو افتخار الدولة . وكان أن أدى النزاع بين الفاطميين والسلاجقة حول نشر نفوذهم في بلاد الشام الى عدم استقرار الامور في هذه البلاد وضعف الجبهة الاسلامية أمام الغزو الصليبي .

وزاد من قلق الاوضاع والانقسامات السياسية واضطرابها ، تباين عناصر السكان في الشام ، اذ ألف الترك الأرستقراطية الاقطاعية وهي فئة قليلة العدد متناثرة ، هذا فضلا عما أدى اليه العداء والتنافس بين الاخوة والتخاصم حول الحكم من اثارة حالة دائمة من القلق والاضطراب .

أما المناطق الجبلية في جبال لبنان (٥) فكانت ملجأ لمختلف الفرق الاسلامية المنشقة والطوائف المسيحية المختلفة .

ففي الشمال كانت توجد طائفة الشيعة النزارية والباطنية الاسماعيلية الشيعية في تجاه حلب وعلى منحدرات جبال لبنان الجنوبية حول جبل هرمون نزلت طائفة

---

(١) الراوندي : راحة الصدور وآية السرور ص ٢٢٨
(٢) ابن الأثير : الكامل جـ ١٠ ص ٣٦٩ حوادث سنة ٤٩٧ هـ
(٣) Runciman: op.cit.Vol.2 p. 13.
(٤) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٢٥
(٥) Philip.Hitti: Le Banon In History p. 281.

الدروز الشيعية ، هذه المجموعات الثلاثة الشيعية تكره كل منها الأخرى بالاضافة الى أنهم جميعا يكرهون المسلمين السنه ، وابن كانوا يكرهون المسيحيين بصورة أشد (١) .

هذا بالاضافة الى أن المدن الشامية كانت تشتمل على عناصر مسيحية كثيرة . ففي شمال سوريا ومنطقة دمشق كان عدد كبير من المسيحيين السريان الذين ينتمون الى الكنيسة اليعقوبية ، والنساطرة الذين حلوا بالمناطق الشرقية ، والأرمن الذين تسربوا من الشمال في حين كانت بلاد بني عمار أصحاب الامارة - موضوع الرسالة " طرابلس " آهلة بالمارونيين .

كل هذه العناصر كانت على استعداد للتعاون مع الفرنجة ضد الأتراك (٢) ، ومما زاد في حدة الموقف ذلك السيل المستمر من الاعراب الذين كانوا يهجرون الصحراء ليستقروا في المناطق الزراعية ، أو في المراكز المحصنة التي كانت تقام على الحدود ، فضلا عن سيل آخر من الاكراد الوافدين الى المنطقة من الجبال الشمالية الشرقية ، ومن التركمان الذين كانوا على استعداد للانخراط في جيش الامير أو الحاكم الذي يدفع أكثر (٣) .

وبهذا العرض نكون قد بيّنا حالة بلاد الشام قبل قدوم الصليبيين وأوضحنا ما كانت عليه تلك البلاد من تفكك وانقسامات مذهبية وانقسامات عنصرية ودينية ولغوية . وما كان بين زعماء المسلمين من أحقاد ، وامتناعهم عن العمل سويا .

هذا في الوقت الذي أفادت بعض الأسرات العربية الصغيرة الحاكمة أمثال بني عمار في طرابلس ، وبني منقذ في شيزر من ذلك الموقف في المحافظة على استقلالها .

وهنا نتأهب لدراسة طرابلس موضوع بحثنا .

---

(1) Setton:op.cit.Vol.I p.p.371.372;Runciman:op.cit Vol.2p.12

(٢) Setton: op.cit.vol.1 p. 371

(٣) Philip. Hitti : op. cit , p. 231 .

" حالة طرابلس قبيل قدوم الصليبيين "

أما عن طرابلس وأصلها ، فقد اتفقت المصادر العربية على كتابة اسم طرابلس باسقاط الألف وذلك للتفريق بينها وبين أطرابلس التي تقع بأرض المغرب وتسهيلا وتوضيحا للكاتب والقارئ على السواء فقد اتفق على تسمية طرابلس الشامية بطرابلس الشام بينما عرفت طرابلس المغربية بطرابلس الغرب . ولم تكن الطريقة التي تنتسب بها كلمة طرابلس وحدها مثار الجدل بل أيضا أصلها ، فالاسم اغريقي يعني ثلاث مدن ، وكانت المدينة مقسمة الى ثلاثة أحياء ، وكل حي منها منفصل عن الآخر بواسطة حائط ، وهي حي أهل صيدا (١) Sidonian وحي أهل صور Tyrian وحي الأروادين Arodian (٢)

ولا نرى داعيا أن يثور الاسم اغريقيا ، فان طرابلس أقدم من الاغريق ، اذن لها اسم أقدم من مقدم الاغريق . وسماها اليونانيون " طرابليطة " ومعناه بلغتهم أيضا ثلاث مدن Tripolis لأن طرا Tri معناه ثلاث ، وبليطة Polis مدينة (٣) . ويستند الأستاذ أنيس فريحة في تفسير معنى الاسم الى حقيقة جغرافية . فبالقرب من طرابلس جبل يسمى تربل Turbil أي جبل الاله " بيل " ، ثم أضيفت اليه اللاحقة الاغريقية (S) (٤) . وكانت تسمى أيضا مدينة النساء (٥) . وقد ذكر أن استباروس قيصر هو أول من بناها (٦)

موقع مدينة طرابلس : أما مدينة طرابلس الحالية فهي حديثة الانشاء أسسها المماليك في سلطنة الملك المنصور سيف الدين قلاون الذي افتتح طرابلس في سنة ٦٨٨ هـ (١٢٨٩ م) وتبعد طرابلس هذه عن مدينة طرابلس القديمة التي تهمنا والتي دارت عليها حوادثنا بنحو ثلاثة كيلومترات . وذلك حتى تتجنب المدينة الجديدة الاضرار التي قد تصيبها من غارات الفرنجة الذين تكتلوا بعد ذلك في عكا وقبرص (٧) .

---

(١) القلقشندي : صبح الأعشى جـ ٤ ص ١٤٢ ، أبو الفدا : تقويم البلدان ص ٢٥٢ ، ٢٥٣

(٢) F.R.Buhl: Art Tarabulus.Inc. of Isl.

(٣) ياقوت الحموي : معجم البلدان

(٤) أنيس فريحه : اسماء المدن والقرى اللبنانية وتفسير معانيها ص ٢٠٧

(٥) القلقشندي : صبح الأعشى جـ ٤ ص ١٤٢

(٦) ياقوت الحموي : معجم البلدان

(٧) السيد عبد العزيز سالم : طرابلس الشام في التاريخ الاسلامي ص ٦٢ ، ٢٩٤

تقع مدينة طرابلس شمالي جبيل وجنوبي قلعة المرقب ، وتقع بين تلال ضيقة حيث يجري نهر قادشا (أبو علي) وتزيد مياه هذا النهر برافدين صغيرين أحدهما يسمى رشميين والثاني يقال له المخاضة (١) ، وتتميز طرابلس من الناحية البحرانية بوجود منخفض يقي بين جبال لبنان العالية ، وجبال النصيرية التي تظهر من مسافة قريبة من شاطئ البحر الأبيض المتوسط (٢) وهذا النفق يتجه من الشرق الى الغرب ، وقد عرف هذا المنخفض بممر حمص (٣) وكانت المدينة تقع على شبه جزيرة يحيط بها البحر من ثلاث جهات ، أي أنها كانت محمية من جوانبها الثلاثة بواسطة البحر وفي الجانب المواجه للأرض يوجد خانق يخندق عريض ، وكان الميناء محميا بواسطة سلسلة من الجزر الصخرية التي تقع امامه ، وهذه الجزر هي جزيرة النورس ، وجزيرة الحمد (٤) ، وجزيرة الراهب (٥) ثم جزيرة أرنقون ، وأكبر هذه الجزر جزيرة سان نيقولا .

وكان مما يساعد على حصانة المدينة وقدرتها الدفاعية تقسيمها الى ثلاثة أجزاء مما جعل من الصعب الاستيلاء عليها ، ولكنها كانت دائما مهددة ، اذ كان من الممكن عزلها عن الأرض المجاورة لها ، ومنعها من الاتصال بالعالم الخارجي ، وحتى من امدادها بمياه الشرب ، ويتضح ذلك منذ كان معاوية واليا على الشام من قبل الخليفة عثمان ، فانه ارسل مجموعة لمحاصرة طرابلس بعد ما تهيأت له السفن تحت قيادة سفيان بن مجيب الازدي الذي بنى على قرب منها أي بجوار نهر أبي علي (قاديشا) على الضفة اليسرى قبل أن يصب في البحر قلعة (حصنا) سمي حصن سنيان لكي ينزل المدينة نهائيا (٦) ، وهي نفس الفكرة ونفس الموضع الذي سيبني فيه ريموند الصنجيلي قلعته ، كذلك كان في داخل المدينة عدة آبار لكي يعتمد عليها في الشرب منها بئر أبي الكنود ، ومن أعظم آبارها بئر القبة (٧) .

---

(١) جورجي يني : تاريخ سوريا ص ٢٧٢

(٢) Jean Richard:Le Comte de Tripoli sous la Dynastie Toulousaine p. I

(٣) Hitti : op. cit. p.p. 287.288.

(٤) الادريسي : نزهة المشتاق ص ١٨

(٥) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ١١٧٥ ، أبو الفداء : المختصر ج ٤ ص ٢٢

(٦) F.R.Buhl.:Art: Trabulus : Inc. of Isl.
ابن أيبك الدوادار : كنز الدرر وجامع الغرر ج ٨ حوادث سنة ٦٨٨ هـ ، ابن الفرات : تاريخ ابن الفرات ج ٨ ص ٢٦

(٧) ياقوت الحموي : معجم البلدان

ويوجد باقليم طرابلس عدة ثغور وموانئ للسفن مثل جبيل والبترون وأنفه ، ولكن افضلهم جميعا مرفأ طرابلس الذي كان الحكام دائما حريصين على تحصينه وحمايته (١) لأن مرساها مأمون في أكثر الرياح ، فضلا عن انها كثيرة الثمار والغيرات ولها بساتين جليلة وأشجار كثيرة ويزرع بها قصب السكر وهي بلدة متجر وزرع (٢) وكان عدد سكانها عشرون ألفا (٣) .

طرابلس في التاريخ الاسلامي : كانت طرابلس ضمن أملاك الامبراطورية البيزنطية في بلاد الشام الى أن كانت خلافة أمير المؤمنين عثمان بن عفان وفي ولاية معاوية (٤) بن أبي سفيان الذي ولي دمشق والساحل بعد وفاة أخيه يزيد سنة ١٨ هـ ، وبعد أن استطاع معاوية أن ينشيء اسطولا بحريا في دار الصناعة بعكا ، وجه معاوية الى طرابلس سفيان بن مجيب الأزدي فبنى على مرج على بعد اميال منها حصنا يسمى حصن سفيان وقطع المسيرة (٥) عن أهل طرابلس الى أن استولى عليها . وظلت طرابلس بعد ذلك تابعة لدمشق وكانت تعتبر من سواحلها وظل الولاة يتتابعون عليها مدة أيام بني أمية وأيام بني العباس . وظلت طرابلس في حوزة الفاطميين ابتداء من سنة ٣٦٠ هـ (٩٧١ م) عندما استولت جيوشهم بقيادة جعفر بن فلاح الكتامي على مدينة دمشق في المحرم سنة ٣٦٠ هـ بعد هزيمته للاخشيديين .

وكانت طرابلس احد مدن اقليم الغرب الذي يضم ايضا بيروت وصيدا ويتبع دمشق من الناحية الادارية . وقد ولّى الفاطميون اقليم الغرب للأمير عز الدولة تميم بن النعمان بن عامر بن عامر التنوخي ، وكان مقره مدينة بيروت ، الى أن كانت سنة ٣٦٢ هـ (٩٧٢ م) (٦) عهد الخليفة المعز لدين الله الفاطمي الى ريان الخادم بولاية طرابلس (٧) وأصبحت طرابلس منذ ذلك الحين ولاية قائمة بذاتها لا تتبع دمشق .

---

(١) Jean Richard : op. cit. p.I.

(٢) ابو الفدا : تقويم البلدان ص ٢٥٢ ، ٢٥٣ ، القلقشندي : صبح الاعشى جـ ٤ ص ١٤٢

(٣) Hitti:op.cit:p.287;F.R.Buhl.Art Trabulus Inc.of Isl.

(٤) السيد عبد العزيز سالم : طرابلس الشام في التاريخ الاسلامي ص ٣٤

(٥) ابن الفرات : تاريخ ابن الفرات جـ ٨ ص ٧٦ ، ابن ايبك الدواداري : كنز الدرر جـ ٨ ص ٢٨٤

(٦) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٠

(٧) ابن الفرات : تاريخ ابن الفرات جـ ٨ ص ٧٧

ومنذ ذلك التاريخ ظل ابولاة من قبل الفاطميين يتعاقبون على ولاية طرابلس حتى بلغ عددهم ثمانية حتى استقل بها أخيرا قاضيها ابن عمار سنة ٤٦٢ هـ (١٠٧٠م) وهؤلاء الولاة هم :ـ

(١) نزال الكتامي من ٣٧٨ هـ حتى سنة ٣٨٦ هـ (٩٨٨ ـ ٩٩٦م)
(٢) جيش بن محمد بن الصمامة ٣٨٦ هـ (٩٩٦م)
(٣) علي بن جعفر بن فلاح ٣٨٦ هـ (٩٩٦م)
(٤) الامير تميم التنوخي ٣٨٦ هـ الى سنة ٣٨٧ هـ (٩٩٧م)
(٥) ميسور الصقلي الخادم ٣٨٧ هـ (٩٩٧م)
(٦) القاضي أبو الحسن علي بن عبد الواحد بن عبدرة الكتامي من سنة ٣٨٧ هـ الى سنة ٤٠٠ هـ (٩٩٧ ـ ١٠٠٩م)

(٧) القائد أبو سعادة من سنة ٤٠٠ هـ ـ ٤٠٧ هـ (١٠٠٩ ـ ١٠١٦م)
(٨) مختار الدولة بن نزال الكتامي من سنة ٤٠٧ ـ ٤٦٢ هـ (١٠١٦ ـ ١٠٦٩م)[1]
وهو آخر الولاة الفاطميين قبل استقلالها على يد القاضي ابو طالب بن عمار

" بنو عمار وامارة طرابلس "

أوضحنا فيما سبق الضعف الذي منيت به الدولة الفاطمية منذ النصف الثاني من القرن الخامس الهجري . وكان يلي أمر طرابلس من قبل الفاطميين في ذلك الوقت مختار الدولة بن نزال الكتامي الذي ولي أمر طرابلس في سنة ٤٠٧ هـ سنة ١٠١٦م[2] وقد ظل يتولى أمر طرابلس حتى توفي سنة ٤٦٢ هـ (١٠٧٠م) وعندئذ أعلن القاضي الشيعي أبو طالب أمين الدولة الحسن بن عمار استقلاله عن الخلافة الفاطمية[3] معتمدا في هذا الاستقلال على تخاذل سلطان الفاطميين وصراع السلاجقة في الشام . هذا بالاضافة الى ما اصاب مصر في تلك السنة من غلاء شديد ومجاعة عظيمة مما صرف اهتمام الفاطميين عن بلاد الشام بوجه عام وما جرى في طرابلس بوجه خاص . ولم يكن ابن عمار أول من فكر في الاستقلال عن الدولة الفاطمية ، فقد سبقه الى ذلك

---

(١) ابن الفرات : تاريخ ابن الفرات جـ ٨ ص ٢٧ ، ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٣٠ ، ٤٨ ، ٥١
يحيى بن سعيد : التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق ص ١٧٢ ، ٢١٠
السيد عبد العزيز سالم : طرابلس الشام في التاريخ الاسلامي ص ٥٠ ، ٥٢
(٢) ابن النديم : زبدة الحلب جـ ١ ص ٢١٥
(٣) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٦٧ Inc. of Isl. Art. Ibn Ammar.

(بني أبي الفتح) سنة ٤٥٧ هـ (١٠٦٥ م) الذين استطاعوا الاستحواذ على السلطة في طرابلس وخلعوا طاعة الفاطميين . ولئن الفاطميين تمكنوا من القضاء عليهم بفضل القائد ابن منزو الكتامي وبصحبته والي الرملة ، وبفضل القاضي أبو طالب بن عمار الذي بدأ يظهر منذ ذلك الوقت ، اذ تمكنوا جميعا من القبض على بني أبي الفتح وانهاء تلك الفتنة (١) .

ويدفعنا الحديث عن حالة طرابلس تحت حكم بني عمار الى معرفة شيء عن هذه الأسرة

كانت أسرة بني عمار أسرة شيعية انحدرت من بلاد المغرب مع الفاطميين (٢) وقامت على اكتافها الدولة الفاطمية ، اذ صاروا عصب الدولة الفاطمية وقوتها في مصر ، واشتهر من زعمائهم أبو محمد الحسن بن عمار بن علي بن أبي الحسن الكلبي الذي كان أحد شيوخ كتامة ، ولاه الحاكم بأمر الله الوساطة وقلد بسيف من سيوف العزيز وخلع عليه ، ولقب بأمين الدولة وبلغ من نفوذه أن ألزم سائر الناس بالترجل له (٣) . وقد استغل ابن عمار سلطته في تحقيق مصالح وأطماع الكتاميين ، فخصهم ببعض الوظائف وأنفق عليهم الاموال وأعطاهم الخيول واعتمد على أحداث المغاربة ليقضي بذلك على نفوذ الحزب التركي الذي استحدثه العزيز (٤) . وكانت نتيجة هذه السياسة ازدياد جرأة المغاربة ، فعاثوا فسادا في طرقات القاهرة ونهبوا المتاجر واشتبكوا مع الاتراك في بعض المعارك التي انتهت بهزيمة المغاربة وضعف نفوذ الكتاميين (٥) .

ويبدو أن ابن عمّار استغل نفوذ أسرته واستطاع أن يستولي على شئون الحكم في طرابلس سنة ٤٦٢ هـ (١٠٧٠ م) وكانت هذه السنة نكبة على النفوذ الفاطمي في الشام ، فيذكر ابن القلانسي أن شطر صور وطرابلس في أيدي قضاتهما قد تغلبا عليهما ولا طاعة عندهما لأمير الجيوش ، بل يصانعان الأتراك بالهدايا والملاطفات (٦) .

---

(١) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٩٢ ، ١٥٥ ، ابن العديم : زبدة الحلب ج ١ ص ٢٦٥ ، سبط بن الجوزي : مرآة حوادث سنة ٤٥٧ هـ

(٢) Raimundi De Aguilers(Roc.Hist.Occid)vol.3p.275; حسن حبشي : نور الدين والصليبيون ص ١٢

(٣) المقريزي : الخطط ج ٢ ص ٢٦ ، ٢٧

(٤) ابن ميسر : تاريخ مصر ص ٥٥

(٥) المقريزي : الخطط ج ٢ ص ٢٦ ، ٢٧

(٦) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١١٢ ، كرد علي : خطط الشام ج ١ ص ٢٦٥

والمعروف عن ابن عمّار أنه كان رجلا عاقلا التزم سياسة حيادية ازاء الفاطميين والسلاجقة . فلم يعلن عداءه للدولة الفاطمية ولم يخفي للسلاجقة . وكان أبو طالب يهتم بالعلم ويحنو على العلماء لذلك يرفع طرابلس الى مصاف العواصم الاسلامية (١) فازدهرت المدينة في عهده وأصبحت مركزا للحياة العلمية في الشام ، وهو الذي صنّف كتاب " تروبح الأرواح وصباح السرور والأفراح " المعروف " بجراب الدولة " (٢) وأسس مدارس مستقلة كان اشهرها دار العلم التي تولاها الشيخ العالم أبو عبد الله الطليطلي النحوي . كذلك بنى مكتبة قيل أنها كانت تحوي مائة ألف مجلد واستمال طلاب العلم الى مدينته فكان عمله هذا شبيها بما قام به سيف الدولة (٤) في حلب . وكان من جملة من أمّ مكتبة طرابلس أبو العلاء المعري . وبعد مضي عامين توفي أمين الدولة في رجب سنة ٤٦٤ هـ (١٠٧٢ م) . فلما توفي قام مكانه ابن أخيه جلال الملك ابو الحسن بن عمّار فضبط البلد أحسن ضبط (٥) ولم يظهر لفقد عمه أثر لكفايته بعد أن نفى عمه المدعو أبا الفتح وقضى على أنصاره في المدينة وعلى رأسهم ابن المابيكي أحد الفاطميين اللاجئين (٦) الى طرابلس . وظل حاكما حتى وفاته سنة ٤٩٢ هـ (١٠٩٨ م) (٧) أي أنه ظل يحكم الامارة قرابة ثلاثين عاما ، ويعتبر من أعظم أمراء بني عمّار اذ استطاع أن يحتفظ بالامارة وسط أطماع الفاطميين الذين فقدوا أكثر أملاكهم في الشام ، وبين السلاجقة الذين مدّوا نفوذهم على دمشق وحلب . ففي بداية عهده ابعد (٨) الشاعر ابن حيوس من طرابلس الى حلب بسبب ميله الى المصريين .

---

(١) Enc. of Isl. Art . Ibn Ammar.

(٢) ابن الفرات : تاريخ ابن الفرات ج ٨ ص ٧٧

(٣) اسامة بن منقذ : الاعتبار ص ٢٠٨

(٤) Hitti : op. cit. p. 289.

بينما ذكر الأستاذ محمد سليم الجندي في كتابه الجامع لأخبار أبي العلاء أن ابن القديم في كتابه " تصويب القدماء بأبي العلاء " ذكر أن بعض المصنفين ذكروا أن أبا العلاء رحل الى دار العلم بطرابلس للنظر في كتبها ، واشتبه عليه ذلك بدار العلم في بغداد . وكان دليله على ذلك أن أبو العلاء مات سنة ٤٤٩ هـ أي قبل انشاء دار العلم بثلاثة وعشرون سنة ٤٧٢ هـ .
محمد سليم الجندي : الجامع لأخبار أبي العلاء ص ٥٥٧

(٥) ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ص ٧١ حوادث سنة ٤٦٤ هـ

(٦) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ، حوادث سنة ٤٦٤ هـ

(٧) Enc. of Isl. Art Ibn Ammar.

(٨) ابن القديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ٤٠

وقد تعرض ابن عمار لمحاولة من جانب الفاطميين لاسترداد طرابلس واكتشفت المؤامرة التي كانت بتدبير من بدر الجمالي سنة ٤٦٨ هـ (١٠٧٦م) ، عندما عثر على كتاب مرسل من بدر الجمالي الى زعماء المؤامرة فيه اتفاقية للقبض عليه . ولكن ابن عمار قبض على زعمائها وصادرهم وقتل منهم جماعة وأنهى المؤامرة .(١)

ومع ذلك فانه تودد الى الفاطميين ولم يرغب في أن يثير عدوانهم ، فحدث أن الأمير حصن الدولة مسلم بن جبدرة بن منزو الكتامي الذي ولي دمشق قهرا وغلبه من غير تقليد ، وارتكب من الظلم والمصادرات ما جعل أهل البلد يفارقون اماكنهم ، ولكنه وقع بينه وبين عسكر دمشق الشحناء فخاف على نفسه من الوقوع في ايدي الفاطميين فلجأ الى زوج اخته جلال الملك بن عمار مدة وأطل الى مصر فهلك في الاعتقال قتلا بالنعال سنة ٤٨١ (١٠٨٧م)(٢) ، ويبدو أن ابن عمار قام بتسليمه حتى يرضي الفاطميين ولا يجعلهم يفكرون في مهاجمته .

هذه الحادثة انما تدل على فطنة ابن عمار وذكائه وسياسته ، فانه كان يتأرجح في ولائه بين الفاطميين والعباسيين . وفي الحادثة التي أوردها ابن القلانسي دليل على تملقه وعدم رغبته في اثارة الفاطميين ضده حتى ولو أدى ذلك الى أن يسلم اليهم أي شخص ليقتل حتى ولو كان من أقرب الناس اليه (أخو زوجته) .

ولدينا حادثة أخرى تدل على ذكاء جلال الملك بن عمار في المحافظة على استقلال امارته أوردها المؤرخ ابن الأثير فيقول أنه لما كان السلطان ملكشاه ببغداد قدم اليه أخوه تاج الدولة تتش من دمشق ، وقسيم الدولة آقسنقر من حلب وبوزان من الرها ، وعندما أذن لهم السلطان في العودة الى بلادهم ، أمر قسيم الدولة وبوزان أن يسيرا مع عساكرهما في خدمة أخيه تاج الدولة ، حتى يستولي على ما للخليفة المستنصر العلوي من بلاد ساحل الشام ويوسع نفوذه على حساب الامارات المستقلة(٣) ، ثم يتقدم وهم معه الى مصر ليملكها . فساروا أجمعين الى الشام ، ونزل على حمص وبها ابن ملاعب صاحبها فحصروا البلد وضيقوا على من به فملكه تاج الدولة وسار الى عرقه وأفامية فملكها أيضا ثم سار الى طرابلس فنازلها سنة ٤٨٥ هـ (١٠٩٢ م) ، فرأى صاحبها جلال الملك

---

(١) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان حوادث سنة ٤٦٨ هـ

(٢) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٦٥ ، ٦٦

(٣) عماد الدين الاصفهاني : تاريخ دولة آل سلجوق ص ٦٥ ، ٦٦

ابن عمار جبيشا لا يدفع الا بحيله ، فأرسل الى الامراء الذين مع تاج الدولة وأطمعهم ليصلحوا حاله ، فلم يسر فيهم مطمعا وكان مع قسيم الدولة آقسنقر وزير له اسمه زريين كمر فراسله ابن عمار فرأى عنده لينا ، فأتحفه وأعطاه فصفى مع صاحبه قسيم الدولة في اصلاح حاله ليدفع عنه ، وحمل له ثلاثين ألف دينار وتحفا بمثلها وعرض عليه المناشير التي بيده من السلطان بالبلد ، والتقدم الى النواب بتلك البلاد بمساعدته والشد ه معه والتحذير من محاربته فقال آقسنقر لتاج الدولة تتمر : " لا أقاتل من هذه المناشير بيده " فأغلظ له تاج الدولة ، وقال : " هل أنت الا تابع لي .. ؟ " . فقال آقسنقر : " أنا اتابعك الا في مصلحة السلطان " ورحل من الغد عن موضعه فاضطر تاج الدولة الى الرحيل فرحل غضبان ، وعاد بوزان أيضا الى بلاده ، فانتقض هذا الأمر .(١)

ولم تقتصر جهود جلال الملك بن عمار على المحافظة على استقلال امارته وسط تنافس بين الفاطميين والسلاجقة ، بل تعداها الى العمل على توسيع رقعتها . ففي سنة ٤٧٢ هـ (١٠٨٠م) ملك جلال الملك أبو الحسن ابن عمار قاضي طرابلس وصاحبها حصن جبله .(٢) وكانت جبلة تابعة للروم ويرأسها منصور الذي تولى من بعده ابنه ابو محمد عبيد الله بن منصور المعروف بابن صليحة . ولما ضعف أمر الروم ، ملكها المسلمون بفضل شجاعة منصور(٣) ومساعدة جلال الملك ابي الحسن علي بن عمار صاحب طرابلس ، الذي طلبت جبله تابعة له الى أن يتمكن تاج الملوك بوري الذي استدعاه أبو محمد ليتسلم البلد من آخذها في عهد فخر الملك بن عمار .

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ص ٢٠٢ ، ٢٠٣ حوادث سنة ٤٨٥ هـ ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٥ ص ١٢٢ .

(٢) كرد علي : خطط الشام : ج ١ ص ٢٦٦

(٣) ابن الاثير : الكامل ج ١٠ ص ٢١٠ ، ٢١١ حوادث سنة ٤٩٤ هـ ، ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٢٩

" ولايـة فخـر الملك بن عمّـــــار "

وبعد وفاة جلال الملك في سنة ٤٩٢ هـ (١٠٩٨ م) استولى على الحكم أخوه أبو علي فخر الملك بن محمد بن عمار الذي لم يستطع أن يتمتع طويلا بالسلام الذي ساد في عهود أسلافه (١) . ذلك أن ثروة مدينته وازدهارها جذبت أطماع الصليبيين ، ولكن فخر الملك ضرب المثل الاعلى في الجهاد في سبيل بلاده ، واستطاع أن يؤخر سقوط المدينة في أيدي الصليبيين سبع سنوات كاملة لولا الخيانة والغدر اللذين حدثا أثناء تفاوض فخر الملك مع الخليفة العباسي والسلطان السلجوقي محمد بن ملكشاه (٢) .

واذا كان فخر الملك قد استطاع أن يحافظ على استقلال امارته ، الا أنه حدث في عهده أن خرجت عليه مدينة جبله التي كان أخوه جلال الملك قد ضمها الى امارته فلم تلبث أن خرجت عليه . وقد رأينا أن قاضيها ابو محمد عبيد الله بن منصور المعروف بابن صليحه الذي كان والده رئيسها أيام كان الروم مالكين لها على المسلمين ، يقضي بينهم ، فلما ضعف أمر الروم وملكها المسلمون وصارت تحت حكم جلال الملك ابي الحسن علي بن عمّار الذي ابقى منصور على عادته في الحكم فيها . فلما توفي منصور قام ابنه أبو محمد مقامه وأحب الجندية واختار الجند فظهرت شهامته ، فأراد ابن عمّار أن يقبض عليه ، فاستشعر منه وعصى عليه وأقام الخطبة العباسية ، فبذل ابن عمّار لدقاق بن تتش مالا ليقصده ويحصره ، ففعل وحصره ، فلم يظفر منه بشيء ، وأصيب صاحبه أتابك طغتكين بنشابه في ركبته وقتل أثرها (٣) . وبقي أبو محمد بها صانعا الى أن جاء الفرنج فحصروها فأظهر أن السلطان بركيارق قد توجه الى الشام وشاع هذا فرحل الفرنج . فلما تحققوا اهتمال السلطان عنهم عادوا حصاره فأظهر أن المسلمين قد توجهوا لحربهم ، فرحلوا ثانيا ثم عادوا فقرر مع النصارى الذين بها أن يراسلوا الفرنج ، ويواعدوهم الى برج من أبراج البلد ليسلموه اليهم ويملكوا البلد ، فلما أتتهم الرسالة جهزوا نحو ثلاثمائة رجل من اعيانهم وشجعانهم فتقدموا الى ذلك البرج ، فلم يزالوا يرقون في الحبال واحدا بعد واحد وكلما صار عند ابن صليحه ، وهو

---

(١) Enc. of Isl. Art. Ibn Ammar.

(٢) ابن الفرات : تاريخ ابن الفرات جـ ١ ص ٣

(٣) ابن الأثير : الكامل جـ ١٠ ص ٢١٠ حوادث سنة ٤٩٢ هـ ، ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٢٩

على السور رجل منهم قتله الى ان قتلهم أجمعين ، فلما اصبحوا رمى الرؤوس اليهم (١) ترحلوا عنه .

ولكن يبدو أن الفرنج لم ييأسوا فنصبوا على البلد برجا خشبيا وهدموا برجا (٢) من أبراجه ، ولما علم أبو محمد أنهم لا يقعدون عن طلبه ، وليس له من يمنعهم عنه أرسل الى طغتكين بدمشق يلتمس منه انفاذ من يراه من ثقاته ليسلم اليه ثغر جبله ويسير الى دمشق بماله وحاله ويسيّره الى بغداد تحت الحوطة والامان والحماية (٣) ويجعل الرعاية ، فأجابه الى ما اقترحه وسير اليه ولده تاج الملوك بوري الذي تسلم جبله وتمكن هو وأصحابه فيها وأساءوا الى أهله وقبحوا السيرة فيهم . وأرسل ابن عمار الى الملك دقاق يطلب منه تسليم ابن صليحة عريانا وأن يأخذ ماله اجمع (٤) ويعطيه ابن عمار أيضا ثلثمائة الف دينار فلم يوافقه دقاق ، ونتيجة لسوء معاملة تاج الملوك بوري لأهل جبلة شكوا حالهم الى القاضي فخر الملك بن علي عمّار ابن محمد بن عمار الذي سيّر اليهم جيشا وافرا دخل جبلة بمساعدة أهلها وهجموا على (٥) الاتراك فهزموهم وقبضوا على تاج الملوك وحملوه الى طرابلس ولكن فخر الملك لم يشأ أن يعذب طغتكين والده حتى لا يقوم بمهاجمته فأكرم بوري غاية الاكرام وأحسن اليه وسيّره الى دمشق وكتب الى والده أتابك يعرفه صورة الحال ويعتذر اليه (٦) مما جرى (٧) وأنه خاف أن يملك الفرنج جبله .

وكان لهذا التصرف من جانب ابن عمار أثره في ابقاء روح الصداقة بينهما ، فلما حاصر ريموند طرابلس سنة ٤٩٦ هـ (١١٠٢ م) استنجد ابن عمار بطغتكين — كما (٨) سنوضح فيما بعد بالتفصيل — الذي أمده بألفين من فرسانه .

وبذلك أمكن لفخر الملك أن يسترد جبله وينضمها الى طرابلس التي أصبحت تضم (٩) جبله وأنطرطوس وعرقه وبيبلس .

وكان ذلك هو حال طرابلس حين قدوم الصليبيين الى الشام سنة ١٠٩٧ م

---

(١) ابن الأثير : الكامل جـ ١٠ ص ٢١١ حوادث سنة ٤٩٤ هـ
(٢) ابن الاثير : المرجع السابق والصفحة
(٣) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٣٩ ، أبو الفدا : المختصر جـ ٢ ص ٢١٣
(٤) ابن الأثير : الكامل جـ ١٠ ص ٢١١ حوادث سنة ٤٩٤ هـ
(٥) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٣٩ ، كرد علي : خطط الشام جـ ١ ص ٢٨٤
(٦) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٤٠ ، أبو الفدا : المختصر جـ ٢ ص ٢١٣ ، ٢١٤
(٧) ابن الأثير : الكامل جـ ١٠ ص ٢١٢ حوادث سنة ٤٩٤ هـ
(٨) Runciman : op. cit. vol. 2 p. 58.
(٩) Jean Richard : op. cit. p. 13 .

الفصل الثاني

" تأسيس امارة طرابلس الصليبية "

أهم نقاط الفصل الثاني :

ريموند كونت تولوز - بداية صراع الصليبيين للاستيلاء على طرابلس

بناء امارة طرابلس الصليبية - حجر الأساس أنطرطوس

الحصار الأول لطرابلس - الحصار الثاني لطرابلس

وليم جوردان (السردانى) وامارة طرابلس

سقوط أسرة بنى عمّار

برتراند وتأسيس امارة طرابلس

سقوط طرابلس فى أيدى الصليبيين

توحيد امارة طرابلس

استئصال مراكز المقاومة حول طرابلس

* * *

" تأسيس امارة طرابلس "

ظهر بين أمراء الحملة الصليبية الأولى وزعمائها الأمير ريموند الرابع كونت تولوز الذي نسب الى سان جيل ، وهي أحب ممتلكاته في فرنسا اليه (١) واحتفظ له العرب بهذا اللقب فأسموه الصنجيل . وريموند هذا هو الابن الثاني لبونزدي تولوز Pons de Toulouse والمودي دي لا مارش (٢) Almodis de la Marche . وقد اقتسم ريموند مع أخيه وليام الرابع أملاك ابيهما بونز . ولكن عند ما حين توفي وليام أن أخذ ريموند جميع أملاكه ، وأهمها كونتيه تولوز ، والبيجوا ، وكاركاسين .

وكان ريموند يعتبر أغنى أمراء فرنسا وأكبرهم (٣) ، وذلك بفضل كونتيته التي ورثها عن أسلافه (تولوز) فضلا عن ماركيه بروفانس التي تضارع دوقيته في الثروة والغنى ، وبفضل زواجه من الأميرة الفيرا صاحبة أرغونه ارتبط بالبيت الملكي بأسبانيا ، وعندما شارك في الحملة الصليبية الاولى لم تكن هذه المرة الاولى التي أعلن فيها ذلك الأمير الحرب على المسلمين ، اذ سبق له أن شارك في حربهم في أسبانيا (٤) ، مما جعله يظهر في صورة بطل من ابطال المسيحية (٥) ، كما سبق له أن حج الى بيت المقدس .

واختلف المؤرخون حول تحديد سن ريموند الصنجيل عند قيامه بالمشاركة في الحملة الصليبية الأولى . فمن قائل أنه كان رجلا حنكته التجارب وأوغل في خبرة الأيام (٦) اذ بلغ الستين من العمر (٧) أو الخامسة والخمسين على أقل تقدير .

ومهما يكن من أمر فان ريموند قام بدور هام في الاعداد للحملة الصليبية الاولى بعد مؤتمر كليرمونت ، فاصطحب البابا في مجمع نيم (يوليو ١٠٩٦ م) وهو الذي

---

(١) William of Tyre:A History of Deeds Done Beyond The Sea .Vol. 1. p. 95;Runciman : op. cit.Vol.1.p. 159

(٢) J. Richard : op. cit. p. 3.

(٣) Setton: op. cit. Vol.1 .p.272.

(٤) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ١ ص ١١٤ ، حسن حبشي : الحروب الصليبية ص ٦٧ ، William of Tyre:op.cit. Vol.1.p. 139.

(٥) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ١ ص ١١٤

(٦) حسن حبشي : الحروب الصليبية الاولى ص ٦٧ ،

(٧) Run ciman : op. cit. Vol. I.p. 159.
Setton : op. cit. Vol.I p. 272

نبّه البابا أوربان الى ضرورة الاعتماد على مساندة قوة بحرية مما جعل البابا يرسل مبعوثين الى جنوا يطلب مساعدتها فى الحملة الصليبية (١) . ويعتبر ريموند أول أمير استعاره البابا اوربان الثانى فى مشروع الحملة الصليبية (٢) ، وهو الذى اتخذ الصليب شعارا للحركة التى اتخذت اسم الحركة الصليبية .

ولهذا السبب وغيره من الدواعى ، اعتقد ريموند أن له الحق فى زعامة الحملة غير أن ما عرض عليه البابا من اخضاع الحركة الصليبية لزعامته الروحية جعله يرفض هذه الفكرة . ومن ذلك فان ريموند اعتقد أن الحاجة الى قائد علمانى سوف تشتد ، وأنه يستطيع عندئذ أن يحقق هدفه فى قيادة الحركة الصليبية . ولحرص البابوية على الاحتفاظ بسيطرتها على الحركة الصليبية فقد أوفد البابا مع ريموند الرابع الاسقف أدهيمار أسقف لى بوبيه (٣) .

أما عن أخلاق ريموند فانه اتصف بالزهو ، والترفع ، والطموح (٤) ، والحقد والعناد ، وهى صفات سببت له كثيرا من المضايقات فى حياته .

وعندما خرج ريموند مشاركا فى الحملة الصليبية الاولى نذر أن يقضى ما تبقى من حياته فى الأراضى المقدسة (٥) ، وألا يعود الى وطنه . وباع ريموند أغلب ممتلكاته لكى يحصل على الاموال اللازمة للانفاق على حملته ، الأمر الذى ساعده على تجهيز جيشه تجهيزا حسنا ، لدرجة أن المؤرخ المعاصر ريموند آجيل (Raymond d'Agiles) أشاد بذلك وقال أن أحدا لم يمت جوعا خلال مسيرتهم من دالماشيا بالرغم من قلة الطعام فى الطريق (٦) ، فضلا عن أنه ساعد الكثير من الجنود الفقراء ليعدوا أنفسهم للرحلة .

ويشير المؤرخ ريموند آجيل الى أن جيش ريموند كان يتألف من هؤلاء الذين أتوا من برجنديا Burgundy ، وأفرن Auvergne ، وجسكونى Gascony ، وقسقونيه Gathia الذين يدعون البروفنساليين على حين

---

(١) سعيد عاشور : الحركة الصليبية : ج ١ ص ١٢٥

(٢) Setton:op.cit.Vol.1.p.p.249,250

(٣) Grousset:Hist.des Croisades. Vol.1 p.p.24,25.

(٤) J.Richard : op. cit. p.4 .

(٥) Runciman:Vol.I p.160;Setton.Vol.1p.272,273;J.Richard:p.3.

(٦) Raimundi De Aguilers(Rec.Hist.Occid)Vol.3p.236; Setton :op.cit. Vol.1 p. 273

أطلق على بقية العناصر الفرنسيين . وقد اطلق المسلمون على الجميع اسم الفرنجه (١) .
ورحل ريموند من بلك في اكتوبر سنة ١٠٩٦ م (٢) . واصطحب معه زوجته وابنه (٣)
الأصغر وترك برترام (برترانـد) ابنه من زوجته الأولى لحماية بـــلاده .

ويبدو أن هذا الابن الصغير قد مات ، اذ أن المصادر التي تحت ايدينا (٤)
تشير الى أنه اصطحب معه في رحلته الى الشرق ابنه الأصغر ، بينما يحدد (٥)
مؤرخ آخر هذا الابن بأنه ابنه الشرعي الفونسو . ثم يعود بعد ذلك فيقول أنه
عند وفاة ريموند الصنجيل لم يبق على قيد الحياة من أبناء ريموند من الكونتيسه
الفيراسوي الفونسو جوردان الذي لم يمض على ولادته في قلعة الحاج الا شهورا (٦)
قليلة .

وقد اشترك في حملة ريموند عدد كبير من نبلاء جنوبي فرنسا . وكان أن عبرت
الحملة جبال الألب وبعد رحلة شاقة وصل ريموند وجيشه الى الحدود البيزنطيه
عند دوراز و في فبراير ١٠٩٧ م (٧) . ودعا الامبراطور الكسيوس كومنين ريموند
لمقابلته بمفرده في العاصمه . وكان ريموند قد أرسل قبل ذلك مبعوثين الى
القسطنطينية ولكنهم لم يخبروا ريموند بحقيقة الأمر ، وهي أن بقية أمراء
الحملة الصليبية الاولى الذين سبقوه قد حلفوا يمين الولاء والتبعية لألكسيوس (٨)
وفكر ريموند أن قسمه اليمين للامبراطور سوف يسيء للعلاقات بينه وبين البابا
أوربان ، وأن معنى قسمه يمين الولاء للامبراطور أن يصبح تحت قيادة غريمه (٩)
بوهيموند ، وهو ما لا يقبله . وكان ريموند مستعدا لأن يخدم
الكسيوس نفسه (١٠) ، وكان مستعدا لأن يقسم يمين التبعية للامبراطور لو خرج بنفسه

---

(١) Raimundi De Aguilers(Rec.Hist.Occid.)Vol.3 p.238;
Setton: op. cit.vol.1 p. 272.

(٢) سعيد عاشور : الحركة الصليبية جـ ١ ص ١٥٧

(٣) Setton : op cit. Vol. 1. p. 272 .

(٤) Setton : op. cit. Vol. 1 p. I73 .

(٥) Runciman: op. cit Vol. 1 p. I60 .

(٦) Runciman:op.cit.Vol.2p.61;William of Tyre:op.citp454

(٧) سعيد عاشور : الحركة الصليبية جـ ١ ص ١٥٧ ،
William of Tyre:op. cit. Vol. 1. p. I43.

(٨) Setton: op. cit. Vol. 1. p. 274

(٩) Raimundi De Aguilers(Rec.Hist.Occid)vol.3p.p.238,239
سعيد عاشور : الحركة الصليبية جـ ١ ص ١٥٨

(١٠) Runciman op.cit.Vol.1.p.164.

لقيادة الحملة الصليبية (١) ، ولكن الامبراطور (٢) كان يحاول أن يبرر عدم خروجه باضطراب الأمور في الأملاك البيزنطية .

واجتمع مجلس الاقطاب مؤلفا من ريموند الصنجيل ، وبوهيموند النرمندى وجود فروا دى بويون ، والامبراطور الكسيوس . واضطر ريموند تحت تأثير الضغط الواقع عليه الى الوصول الى اتفاق مع الامبراطور البيزنطى ، ولكنه لم يقسم له يمين الولاء والتبعية ، بل اقسم يمينا تعهد فيها بالمحافظة على حياة الامبراطور وشرفه ، وألا يقوم هو أو أحد رجاله بعمل يسيء الى الامبراطور (٣) .

ولما رحل بوهيموند الى آسيا الصغرى ، تحسنت العلاقات بين ريموند والكسيوس نتيجة لوساطة المندوب البابوى أدهيمار (٤) وأصبح ريموند صديقا شخصيا للامبراطور الذى أحبه وبجله . وعندما غادرت القوات الصليبية النظامية القسطنطينية متجهة شطر آسيا الصغرى ، كان بصحبتها كتيبة بيزنطيه بكامل معداتها بقيادة تاتيكيوس (٥) Tatikios

وكان أن وصلت الحملة الى انطاكيه فى يوم ٢١ اكتوبر . وسقطت المدينة فى يد الصليبيين فى ٢ يونيه سنة ١٠٩٨ م (٤٩٢ هـ) وكان الفرنج قد كاتبوا صاحب حلب ، ودمشق وغيرهما من حكام المسلمين بأننا لا نقصد غير البلاد التى كانت بيد الروم (٦) . وبعد الاستيلاء على انطاكيه هاجم ريموند قلعة الرج Rouge على نهر العاصى ، ثم البارة على مسافة عدة أميال من النهر ، وقد حول ريموند جامعها الى كاتدرائية وأقام كنيسة لاتينية ، كانت الأولى فى الشرق ، وكانت تحت رعاية أحد اساقفته (بطرس النورمونى) (٧) وبعد ذلك توجه الفرنج الى معرة النعمان بأسرهم ، ونزلوا عليها فى اليوم التاسع والعشرين من ذى الحجة الموافق ٢٧ نوفمبر ، واستمر الحصار الى ١١ ديسمبر سنة ١٠٩٨ م . وفى ١٢ يناير سنة ١٠٩٩ م ارتحل ريموند بعساكره من معره النعمان (٨)

---

(١) William of Tyre: op.cit.Vol.1.p.143; Can.Med.Hist. Vol.5. p. 283; Potri Tudebodi Historia(Rec.Hist.Occid.) Vol.3 p. 12.

(٢) حسن حبشى : الحرب الصليبية الاولى ص ٧٨

(٣) Cam.Med.Hist.Vol. 5 -p. 283.

(٤) Alberti Aquensis (Rec.Hist.occid.)Vol.4p.p.208,209.

(٥) حسن حبشى : الحرب الصليبية الاولى ص ٨٥

(٦) ابن الاثير : الكامل ج ١٠ ص ٢٧٥ حوادث سنة ٤٩١ هـ ،
William of Tyre:op.cit.vol.1.p.260.

(٧) Guiberti Abbatis (Rec.Hist.Occid.)Vol.4p.209,Setton p. 325.

(٨) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٣٥

الى كفر طاب حيث لقى بلدوين بن تانكرد ، وروبرت النرمندى (١) .

وهنا بدأت أولى اتصالات الصليبيين بالبيوت الحربية التى انتهزت فرصة انحلال قوى السلجقة لتؤكد استقلالها مثل بنو منقذ فى شيزر ، وبنو عمار فى طرابلس الذين كانوا على استعداد لمساعدة أى عدو للأتراك وأرسل أمير شيزر المرشدين (٢) ليأخذوا الجيش خلال ممتلكاته عبر نهر العاصى .

* * *

" بداية جهود الصليبيين للاستيلاء على طرابلس "

بعد استيلاء الصليبيين على حصن الاكراد (٢٩ يناير سنة ١٠٩٩م) زحفوا الى قلعة عرقة وهى مدينة صغيرة تقع شمالى طرابلس وتتبعها (٣) . وكان متولى أمر طرابلس يومذاك جلال الملك بن عمار ، فلما وصل اليه خبر مسير الصليبيين اليه أدرك الخطر المهدد لامارته ، وبدأ فى رسم اسلوب التعامل مع هذا الجيش الغازى ، ورأى سلامته وسلامتها فى مصانعتهم ومداراتهم (٤) .

ونظرا لتداعى قوة الترك أبدى أمير طرابلس استعداده لأن يشجع الفرنج على الفاطميين الذين اخافوا مؤقتا من سباتهم . لذلك دعا جلال الملك صاحب طرابلس الامير ريموند بأن يبعث من قبله مندوبين الى طرابلس للتشاور فى التدابير اللازمة لمرور الحملة الصليبية ، وليحملوا سهما أعلم تولوز التى سوف يرفعها صاحب طرابلس على المدينة (٥) .

وبعث ريموند سفارة الى طرابلس رجعت تحكى الكثير عن غنى طرابلس وعدم رغبة أهلها وأميرهم فى الحرب (٦) .

---

(١) سعيد عاشور . الحركة الصليبية ج ١ ص ٢٢٧ ،
Rumciman:op.cit.Vol.1-p.267

(٢) Setton:op.cit.Vol.1-p. 327;Runciman:op.cit.Vol.1-p261

(٣) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ١ ص ٢٣٠ ، ويقول المؤرخ وليم الصورى أن الصليبيون لم يقيموا معسكرهم أمام هذه المدينة بمحض الصدفة ولكن كان نتيجة خطاب أرسل اليهم من الصليبيين الذين وقعوا فى قبضة حاكم طرابلس منذ بداية الحصار لأنطاكيه William of Tyre:op.cit.vol.1p.317

(٤) حسن حبشى : الحرب الصليبية الأولى ص ١٦٤

(٥) Raimundi Aguilers(Rec.Hist.occid)Vol.3p.p.275,276

(٦) Setton: op. cit. vol.1 p. 328 .

وكان اعجاب أولئك الرسل شديدا بثروة طرابلس الزراعية اذ دخلوها في فصل الربيع ، وأشجار الفاكهة قد اثمرت ، والمروج قد اخضرت ، وشاهدوا قصب السكر لأول مرة وذاقوه فأعجبوا به . لذلك أشاروا على ريموند أن يبدأ بمهاجمة عرقة التابعة لامارة طرابلس وأكدوا له أن أمير طرابلس سوف يؤدي له مبلغا كبيرا من المال ليضمن به الأمان والسلام لسائر ممتلكاته ، خصوصا وأن عرقه كانت تتمتع بأهمية كبيرة لتوفرها على اقليم غني بمياهه وثروته الطبيعية ، وحينما سمع ريموند ذلك — وكان في أشد الحاجة الى المال — سار الى عرقه التي تبعد مسافة خمسة عشر ميلا الى الشمال الشرقي من طرابلس . فوصل الجيش الى أسوارها في ١٤ فبراير سنة ١١٠٩ م وعاونته امدادات بحرية من سفن البنادقة وفي الوقت الذي اتجه الجيش الصليبي لحصار عرقه كان ريموند شديد الحرص على توطيد الصلات بحاميته في الدقيقة وتأمين الاتصال بالبحر ، لذلك أرسل اثنين من أتباعه وهم ريموند پيليه Raymond Pilet وريموند التورينى Raymond of Turenne على رأس مائة فارس ومائتين من المشاه ليقوموا بهجوم مفاجئ على أنطرطوس التابعة أيضا لبني عمار وهو الميناء الوحيد الصالح لرسو السفن بين الدقيقة وطرابلس . وبلغ الصليبيون تلك المدينة عند حلول الليل في ١٦ فبراير وأوقدوا النيران حول اسوارها ليوهموا الناس أن لديهم من القوة ما يفوق قوتهم الفعلية وكان أن نجحت الحيلة اذ انسحب حاكم أنطرطوس الذي يخضع لأمير طرابلس ليلا مع حاميته وهربوا عن طريق البحر ، وفي صبيحة اليوم التالي فتحت المدينة أبوابها للفرنج .

وأدى استيلاء الصليبيين على ذلك الميناء الى سهولة تموينهم بواسطة الأساطيل الايطالية والبيزنطيه . وفي مدينة أنطرطوس شيد الصليبيون كاتدرائية فخمة لا تزال قائمة في المدينة .

---

(١) جورج زين : تاريخ سوريا ج ٢ ص ٢٨٠

(٢) William of Tyre:op.cit.Vol.1p.318;Runciman Vol.1p.270

(٣) Grousset: op. cit. Vol. 1. p. 132.

(٤) Petri Tudebodi Historia(Rec.Hist.Occid.)vol. 3 p.97; Setton:op.cit. Vol.1.p.328.

(٥) حسن حبشي : الحرب الصليبية الاولى ص ١٦٥

(٦) William of Tyre: op. cit.Vol.1.p.319.

(٧) Alberti Aquensis(Rec.Hist.Occid.)Vol.4p.457;Setton: Vol.1 - p. 328 .Runciman op. Cit. Vol.1-p. 210.

(٨) سعيد عاشور : الحركة الصليبية جـ ١ ص ٢٢٠ .

(٩) Raimundi de Aguilers (Rec.Hist.Occid.)Vol.3p.276 Hitti : op. cit. p. 284 .

ولما سمع حاتم مرقيه الواقعة على مسافة عشرة أميال الى شمال المدينة بخبر استيلاء الصليبيين على انطرطوس بادر بالاعتراف بسيادة ريموند . وفي الوقت الذي حاصر الصليبيون عرقة كان جودفري دي بوابون ، وروبرت دي فلاندرز يحاصران مدينة صغيرة وهي جبله التي كان من المفروض أن تكون تابعة لأمير طرابلس ، ولكن القاضي أبو محمد عبيد الله بن منصور المعروف بابن صليحة استقل بها عن نفوذ بني عمار . وقد استمر الحصار من ٢ الى ١١ مارس (١) ، وانتهى بعقد اتفاق بين أبي محمد قاضي جبله والصليبيين تعهد فيه أبو محمد بدفع جزية من المال والخيل ثمنا للسلام ، وهناك تسلم الصليبيون عدة رسائل (٢) من ريموند يرجوهم فيه اللحاق به في عرقة ، لأن حصار عرقة لم يجر على ما يرام ، اذ أن المدينة كانت منيعة الاستحكامات واستبسلت حاميتها في الدفاع ، ولم يكن لدى ريموند جيش يكفي لتطويقها من جميع الجهات (٣) ، ولكن ريموند كان يرى أنه لا يستطيع أن يفك الحصار عن المدينة حتى لا يشعر أمير طرابلس بعجزه . والواقع أن رجال ريموند لم يبذلوا مجهودا كبيرا لأن الحياة كانت رغدة في المعسكر الصليبي بسبب وفرة الغنيمات في الأراضي المجاورة ، ولتدفق المؤن عليهم عن طريق أنطرطوس ، بالاضافة الى حاجة العسكر الى الراحة بعد ما عانوه من مشاق . واستمر حصار عرقة اربعة اشهر نقب الصليبيون خلالها سور المدينة عدة نقوب فلم يقدروا عليها (٤) . ولما طال الحصار على أهل عرقة بثوا (٥) شائعة كاذبة بقصد بث الخوف في نفوس الصليبيين لير فعوا حصارهم عن عرقة ، فأشاعوا أن جيشا اسلاميا أخف يحتشد لنجدة عرقة وتخليصها ويتولى قيادته خليفة بغداد نفسه (٦) ، وعندما بلغت هذه الشائعة آذان ريموند أرسل الى جودفري وكونت فلاندر اللذين كانا على حصار جبله ليكونوا جميعا يدا واحدة ازاء الخطر الجديد (٧) . غير أن جودفري لم يكن حريصا على معاونة ريموند الصنجيل في الاستيلاء على عرقة لذلك أصر على وجوب الزحف فورا على بيت المقدس . أما ريموند فكان غير حريص على تنفيذ

---

(١) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ١ ص ٢٣١ ،

(٢) Alberti Aquensis(Rec.Hist.Occid.)Vol.4p.453

(٣) Setton : op. cit. Vol. 1.p. 328.

(٤) Runciman:op. cit.Vol.1 - p.271.

(٥) ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ص ٢٧٨ حوادث سنة ٤٩١ هـ ، كرد علي : خطط الشام ج ١ ص ٢٨١

(٦) حسن حبشي : الحرب الصليبية الاولى ص ١٦٥

(٧) Runciman:op.cit.Vol.1 -p. 271

Setton : Op.cit.Vol.1 -p.329

ما يريده جود فرى . لذلك نشأ خلاف فى الرأى بين الزعيمين كل يدافع عن وجهة نظره ويؤيدها بما يتفق فى زعمه والصالح العام . وكانت حجة ريموند أن القضاء على امارة طرابلس يجعل القوات الصليبية آمنة من ضربة تأتيها من الخلف ان هى تقدمت الى الجنوب (١) . وقد أخذ ريموند فى تلك المرحلة يندم على استعانته بجود فرى وروبرت واستحضارهما من جبله لمعاونته (٢) . فقد كان ريموند منذ أن زحف الصليبيون من انطاكيه هو زعيم الصليبيين الأوحد ، وكان تانكرد قد وافق على قيادته فى مقابل مبلغ من المال دفعه له (٣) . ولكن جودفرى وكل من روبرت فلاندرز وروبرت النورماندى لم يكونوا موافقين على تبعيتهم له وطغى نفوذ جودفرى على نفوذ ريموند (٤) . وتحرك تانكرد الى معسكر جودفرى قائلا : أن ريموند لم يدفع له مبلغا كافيا (٥) . أما عامة الصليبيين فكانوا يرون قوادهم يتشاجرون وقد افترقت كلمتهم . وزاد من هذا التوتر وصول سفارة من الامبراطور البيزنطى الكسيوس كومنين فى حوالى العاشر من ابريل سنة ١٠٩٦ م (٦) يطلب ارجاع كل ما كان ملكا للامبراطورية من الأراضى التى استولوا عليها ، وطلب منهم أن ينتظروه حتى نهاية يونيو لأنه سوف يكون معهم وسوف يقودهم الى فلسطين (٧) . وقد رحب ريموند بهذا العرض ، ورأى فيه فرصة للاستعانة بالامبراطور فى توطيد زعامته على الصليبيين من ناحية بالاضافة الى استغلال فترة انتظار الامبراطور فى الاستيلاء على عرقه لتتخذها — بالاضافة الى أنطرطوس — نواة للامارة التى أخذ يحلم بتأسيسها لنفسه فى طرابلس (٨) .

ولكن لم يكن أحد من الأمراء الآخرين يرغب فى حضور هذا الامبراطور الطموح الذى كثيرا ما خدع الصليبيين بوعوده (٩) (١٠) . هذا بالاضافة الى أن الكسيوس كان على اتصال بالفاطميين الذين يبدو أنهم كتبوا اليه حينما تقدمت الحملة الصليبية تحريضهم يسألونه ما اذا كانت الحملة تعمل لصالحه ، فرد الكسيوس بأنه ينكر

---

(١) حسن حبشى : الحرب الصليبية الاولى ص ١٦٦ — ١٦٧
(٢) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ١ ص ٢٣١ ، ٢٣٢
(٣) Sotton:op. cit. Vol. 1 p. 329 .
(٤) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ١ ص ٢٣٢
(٥) Setton:op.cit. Vol. 1 — p. 329 .
(٦) حسن حبشى : الحرب الصليبية الاولى ص ١٦٧
(٧) Setton:op. cit. Vol. 1- p. 329 .
(٨) Grousset: op. cit. Vol. 1. p. 136 .
(٩) Setton:op. Cit.Vol.1 p. 329
(١٠) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ١ ص ٢٣٢

الحركة الصليبية ، وذلك بعد أن توافر له من الأسباب ما جعله يفعل ذلك وخاصة وأن تصرفات بوهيموند علمته أنه لا يستطيع أن يركن الى اخلاص الفرنج وولائهم (١)

ونتيجة لكل هذه العوامل ، فقد استطاع جودفرى دى بويون يسانده روبرت دى فلاندرز أن يجبرا ريموند الصنجيل على احترام رأى جموع الصليبيين فى الزحف دون ابطاء على بيت المقدس (٢) . ولم يكن ريموند يستطيع غير الخضوع لرأى الأغلبية مخافة أن ينفض من حوله الكثيرين (٣) . وفى ١٣ مايو ١٠٩٩ م استجاب ريموند لالحاح زملائه فأمر — وقد اغرورقت عيناه بالدموع — بازالة المعسكر الذى أقامه أمام عرقه (٤) وأدى اخفاق ريموند فى الاستيلاء على عرقه وما ظهر من تيارات وخلافات متعارضة أثناء الحصار ، أدى كل ذلك الى رفع الروح المعنوية لصاحب طرابلس ابن عمار (٥) مما جعله يسحب عروضه السابقة للصليبيين قبل أن يرفعوا حصارهم عن عرقه (٦) ويعلن الحرب على الصليبيين محاولا التخلص منهم ووضع حد لزحفهم عبر امارته (٧) . ولكن قيام الصليبيين بالهجوم على طرابلس وانزالهم الهزيمة بالمسلمين ورغبة أمير طرابلس أن يشترى السلم بأى ثمن ، فالتمس منهم الأمان لعاصمته وتواجيها باطلاق سراح حوالى ثلاثمائة اسير كانوا اسرى فى المدينة ودفع لهم تعويضا قدره ١٥٠٠٠ خمسة عشر ألف دينار ، وحوالى خمسة عشر فرسا جيدا (٨) . وفضلا عن هذا فان ابن عمار جهز الصليبيين بالمؤن والعلف لكى يمنع البعد من الاعتداء على الفلاحين فى القرى والضياع المحيطة بطرابلس (٩) . وفى يوم الاثنين ١٦ مايو غادر الصليبيون اقليم طرابلس يصحبهم الأدلاء الذين بعثهم صحبتهم ابن عمار فساروا على الطريق الساحلى بعد ان اجتازوا آمنين البترون وجبيل (١٠) . وفى ١٨ مايو جرى أول اتصال بين الصليبيين والموارنة الذين

---

(١) Runciman : op. cit. vol. 1 p.p. 371,372 .

(٢) سعيد عاشور : الحركة الصليبية جـ ١ ص ٢٢٢ ،
William of Tyre: op. cit.vol. 1p.320.

(٣) حسن حبشى : الحرب الصليبية الاولى ص ١٦٩

(٤) Runciman: op.cit. Vol.1 - p. 273 .

(٥) سعيد عاشور : الحركة الصليبية جـ ١ ص ٢٢٤

(٦) William of Tyre: op. cit. Vol. 1 - p. 329 ;Michaud: Michaud's History p. 196.

(٧) سعيد عاشور : الحركة الصليبية جـ ١ ص ٢٢٤

(٨) Raimundi de Aguilers(Rec.Hist.Occid.) Vol.3p.p.285, 286;Setton:op.cit.vol.1 p.331; Runciman Vol.1-p.275 .

(٩) Hitti:op.cit.p.284;Michaud:op.cit.p. 196 .

(١٠) Runciman:op.cit.Vol.1p.275 بينما ذكر Setton أن يوم الاثنين وافق ١٤ مايو ، سعيد عاشور : الحركة الصليبية جـ ١ ص ٢٢٤

عرفوا بقوة الشكيمة والشجاعة فأمدوا الصليبيين بادلاء كانوا في أمس الحاجة اليهم (١).

وفي ١٩ مايو وصل الصليبيون الى بيروت ولامسوا الحدود الفاطمية على نهر الكلب . ووصول الصليبيين الى بيروت يأنوا قد خرجوا من نطاق امارة طرابلس مجتازين اراضيها الى اراضي اخرى تابعة للخلافة الفاطمية وبذلك انتهت مرحلة هامة في علاقة الصليبيين بطرابلس وبني عمار . أما الفاطميون فلم يكن لهم جند في ممتلكاتهم الشمالية باستثناء ما جعلوه من الحاميات بالمدن الواقعة على الساحل .

وقضى الصليبيون ليلة واحدة في بيروت ، اذ حذا حاكمها الفاطمي حذو زميله في طرابلس ابن عمار ، فأعطاهم قدرا من المال وجهزهم بوافر المؤن لكي لا يتعرضوا للغدرات والأشجار . هذا من جهة ، ومن جهة ثانية ، فان الصليبيين كانوا يرغبون اشد الرغبة في السير الى بيت المقدس دون ابطاء (٢) . ذلك بعكس صيدا التي قاومت الصليبيين فكان جزاء اهلها اتلاف مزارعهم المجاورة والاعتداء على ضياعهم القريبة (٣) ، وبعد ذلك مر الصليبيون بعرقند وصور فعكا فقيساريه فأرسوف فبيت المقدس الذي كان يتولاه من قبل الفاطميين افتخار الدولة . وكانت انباء الزحف الصليبي على سواحل الشام تصل الى اسماع الفاطميين دون أن يقوم المسئولون في الدولة الفاطمية بأي عمل كما يقول المؤرخ أبو المحاسن (كل ذلك وعساكر مصر لم تهيأ للخروج (٤) ، والواقع أن سبب عدم خروج الفاطميين لصد الصليبيين هو عدم فهمهم لحقيقة مطامع الصليبيين بل أنهم كانوا ينظرون اليهم على أنهم حلفاء طبيعيون ساقهم القدر للتنكيل بالسلاجقة خصوم الفاطميين من الناحيتين السياسية والمذهبية . وقد اظهر الصليبيون مهارة سياسية ملحوظة حتى ذلك الوقت تجاه الفاطميين فاختاروا أن يتركوهم في غفلتهم ولم يفحصوا لهم عن نواياهم تجاه فلسطين ، بل أرسل الصليبيون سفارة الى القاهرة تؤكد التعاون بين الطرفين للقضاء على العدو المشترك . وكان أن استولى الصليبيون على بيت المقدس في ١٥ يوليو سنة ١٠٩٩ م (٢٢ شعبان سنة ٤٩٢ هـ) (٥) . وجمع الأفضل

---

(١) Hitti: op.cit. p. 285.

(٢) Hitti op. cit. p. 285; Setton: op.cit.Vol.1-p.331

(٣) سعيد عاشور : الحركة الصليبية جـ ١ ص ٢٣٩ ، حسن حبشي : الحروب الصليبية الاولى ص ١٧١ .

(٤) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ١٤٨

(٥) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٢٧

أمير الجيوش السابق وسار الى عسقلان ، وحاصر جودفرى عسقلان ، ولما رأى أن أهل المدينة يرفضون التسليم لريموند الصنجيل خاف أن يقوم ريموند بانشاء امارة صليبية في فلسطين ، فطلب منه ترك حصار عسقلان لانها تعتبر الشواطىء الطبيعية لمملكة بيت المقدس الصليبية . وفضل ريموند أن تبقى عسقلان في ايدي المسلمين على أن يستولي عليها جودفرى . وهكذا انسحب ريموند وحرّض بقية الامراء على الانسحاب معه بعد أن أوعز الى أهل عسقلان بالثبات والمقاومة . أما جودفرى فقد وجد نفسه وحيدا امام عسقلان التي اشتد اهلها في المقاومة ، فاضطر الى أن ينسحب بدوره من أمامها (١) ثم انصرف ريموند من عسقلان الى أرسوف محاولا الاستيلاء عليها عن طريق تأمين اهلها . ولكن جودفرى قال له أن أرسوف هي الاخرى تتبع بيت المقدس . وللمرة الثانية انسحب ريموند الصنجيل نحو الشمال بعد أن حرّض أهل أرسوف على المقاومة (٢) . وعدم الاستسلام لجودفرى .

وكان أن تتابعت الاحداث بسرعة فاختير جودفرى حاكما على بيت المقدس في ٢٢ يوليو ، كما اختير أرنوف بطريركا لبيت المقدس في أول اغسطس من السنة وعندما مات جودفرى في العام التالي خلفه أخوه بلدوين أمير الرها ، وهو أول من تسمّى ملكا على بيت المقدس . أما ريموند الصنجيل فقد اضطر أمام الظروف التي قابلته في بيت المقدس الى أن يترك بيت المقدس في اغسطس سنة ١٠٩٩ م (٣) وأخذ قواته الى اللاذقية حيث رحل معظمهم الى أوربا ، وتمّت الرحلة صوب الشمال دون أن تعاد عقبة ، اذ أن الحكام المسلمين للمدن الساحلية بادروا بتقديم المؤن للجيش أثناء اجتيازه بلادهم (٤) . وفي اللاذقية رحّب الاهالي بريموند وأعوانه ورفعوا علمه الى جانب علم الامبراطور البيزنطي .

مما سبق يتبين لنا ما أصاب ريموند الصنجيل من خيبة أمل في جميع الأدوار التي مرّ بها . فحينما ساهم في فتح انطاكيه كان يأمل ان يقتسمها مع بوهيمند ، ولكن بوهيمند انتهز فرصة انشغال ريموند في حصار عرقه لكي يطرد أصحاب ريموند من انطاكيه ويستأثر وحده بملكية هذه المدينة .

---

(١) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ١ ص ٢٥٨

(٢) Alberti Aquensis (Rec.Hist.Occid.)Vol.4-p.p.497,498
سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ١ ص ٢٥٨

(٣) Setton : op.Cit.Vol.1 -p. 298 .

(٤) Alberti Aquensis (Rec. Hist.Occid.) Vol.4 p.500;
Runciman : op.cit. Vol.1 p. 298 .

ولما حاول ريموند أن يؤسس لنفسه امارة فى شمال الشام على حساب سلاجقة حلب حول البارة ومعره النعمان ، انبرى له بوهيموند مرة أخرى ونافسه فى الاستيلاء على معرة النعمان ، مما اضطر ريموند الى التخلى عنها فى يناير سنة ١٠٩٩ م (١)

ولما استولى ريموند على انطرطوس وحاصر عرقة املا فى أن تكون نواة لامارة على الساحل الاوسط لبلاد الشام ، لم يتركه جودفرى على حصارها وطلب منه رفع الحصار ومواصلة السير الى بيت المقدس وعندما رشح اسمه حاكما لدولة بيت المقدس الصليبية ، اد (٢) حسد زملائه الامراء له وتخوفهم منه الى ضياع تلك الفرصة من يده . ولما أراد أن يستولى على عسقلان وأرسوف بعد ذلك تصدى له جودفرى قائلا : " انها الموانى المليبارية لمملكته وأنها لازمة له للاتصال بأوربا . عندئذ اضطر ريموند أن ينقل نشاطه الى شمال الشام ليخدم الدولة البيزنطية ويحقق أغراضها ومطامعها فى شمال الشام بوجه عام وأنطاكيه بوجه خاص وللحد من نفوذ غريمه ومنافسه بوهيموند .

وأمضى ريموند شهور الشتاء فى اللاذقية فتولى حكمها بالاشتراك مع ممثلى الامبراطور البيزنطى (٣) ، بينما عاد معظم الجيش البروفنسالى التابع لريموند وروبرت (٤) كندرز الى أوطانهم عن طريق القسطنطينية فى سفن بيزنطية .

وهكذا ظلت روح العداء والكراهية تسود العلاقات بين ريموند وبوهيموند ومن هذه العلاقات السيئة أنه عند طريق عودة بوهيموند من زيارته لبيت المقدس طلب من ريموند أن يمده بالزاد ولكن ريموند رفض أن يعطيه شيئا واعتذر له بأنه ليس (٥) لديه ما يكفيه .

ودعا الامبراطور البيزنطى ريموند لزيارته فى بيزنطه ، فقبل ريموند الدعوة وارتحل الى القسطنطينية فى أول يونيو سنة ١١٠٠ م ، أما زوجته الكونتيسه الفيرا الأرغونية التى لازمته طوال اسفاره فانها بقيت فى اللاذقية مع ما تبقى من جيوش تولوز وبروفانس تحت حماية السلطات البيزنطية (٦) . وفى القسطنطينية أخذ ريموند

---

(١) سعيد عاشور : الحركة الصليبية جـ ١ ص ٢٤٢

(٢) سعيد عاشور : " " " " " "

(٣) Runciman: op. cit. Vol. 1 - p.p. 299, 300 .

(٤) Setton : op. cit. vol.1 - p. 314 .

(٥) Grousset : op. cit. Vol. I - p. 321 .

(٦) Runciman : op. cit. vol. 1 - page - 300 .

يفكر في القيام بعمل حاسم ضد بوهيمند . ولكن جاءت الاخبار بوقوع بوهيمند في الأسر وهو في طريقه الى ملطيه ليقدم النجده لاميرها الأرمني ضد الأتراك واستدعى الصليبيون في انطاكيه تانكرد ابن اخت بوهيمند للقيام بالوصاية على امارة انطاكيه في اثناء فترة الأسر . ولكن تانكرد اتبع سياسة العداء نفسها التي كان يتبعها بوهيمند تجاه الامبراطورية البيزنطيه ، وبدأ بالاستيلاء على بعض المدن البيزنطية (١) في قيليقيه مثل طرسوس وأذنه والمصيصه . وفي سنة ١١٠٢م هاجم اللاذقية التي كان ريموند قد فتحها سنة ١٠٩٨ م . وبينما شرع ريموند والكسيوس يفكران في اعداد حملة لتأديب تانكرد وانقاذ اللاذقية ، اذ بحملة جديدة تصل الى القسطنطينية هي حملة اللمبارديين الذين وصلوا اليها يفيضون حماسة (٢) بالنجاح الذي أصابته الحملة الصليبية الأولى .

وكان أمل الكسيوس أن ريموند سوف يعيد فتح الاناضول للاحتلال البيزنطي وسوف يعيد انطاكيه لطاعة البيزنطيين ، لذلك عين الامبراطور البيزنطي حليفه ريموند (٣) للاشراف على هذه الحملة . وسر ريموند لهذه المهمة اذ رأى في تلك الحملة فرصة (٤) يستغلها في تحقيق أطماعه في الشام . غير أن الحملة سرعان ما تغير هدفها بتوجيهها لحرب بني دانشمند في كباروكيا لتخليص بوهيموند من الأسر ، وترتب على ذلك تعرض هذه الحملة لكارثة كبيرة على أيدي الاتراك وانتهى أمرها الى (٥) الفشل الذريع .

بعد الكارثة التي حلت بحملة سنة ١١٠١ م اتجه بعض أمراء هذه الحملة (٦) الى انطاكيه في حين استطاع اكثر الهاربين الذهاب الى القسطنطينية وكان من (٧) بينهم ريموند الصنبيلي . وقد هيأ لهم الامبراطور السفن لتحملهم الى الشام ، (٨) فوصلوا الى ميناء السويديه وهو الميناء الطبيعي لانطاكيه . ولما هبط ريموند (٩) على الساحل قبض عليه أحد الفرسان من أتباع تانكرد متهما أياه بخيانة القضية

---

(١) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ١ ص ٣٤٥ ،
Michaud's Hist. vol.1 - p. 273 .

(٢) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ١ ص ٣٤٦

(٣) William Of Tyre : op. cit.Vol.1- p. 432 ;Setton:p.394

(٤) Grousset:op.cit.Vol.1 p. 322 .

(٥) Alberti Aquensis (Rec. Hist.Occid.)Vol.4pp.569,570.

(٦) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ١ ص ٣٥٢

(٧) Runciman:op.cit.vol.2p.33 .

(٨) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ١ ص ٣٥٢

(٩) Runciman : op.cit. vol.2 - p. 33 ;Setton:op.cit.Vol.1 p. 363 .

الصليبية . وأمر تانكرد بحبس ريموند في قلعة انطاكيه ، غير أن رفاق ريموند من الصليبيين لم يقبلوا هذا الوضع وضغطوا على تانكرد حتى أطلق سراحه ، بعد أن شرط عليه أن يقسم بأنه لن يتدخل مطلقا في أمور شمال الشام وشرط عليه ايضا أن يتعهد بالتنازل عن جميع ادعاءاته ومطالبه ليس في انطاكيه فحسب بل في اللاذقية أيضا .(١)

وسار ريموند بعد اطلاق سراحه صوب الجنوب . وعند المرور باللاذقية أصدر الأوامر الى عساكره والى زوجته الأميرة " الفيرا " بالجلاء عن المدينة واللحاق به . وبذلك بقيت الحامية البيزنطية باللاذقية دون مساندة من البروفنساليين مما مكّن تانكرد من الاستيلاء عليها بعد أن حاصرها سنة وبعد أن استعان بالاساطيل في قطع الاتصال بينها وبين قبرص .(٤) والواقع أن وقوع ريموند في أسر تانكرد كانت له نتائج طيبة بالنسبة للصليبيين جميعا في بلاد الشام ، اذ أجبر تانكرد ريموند على أن يقسم يمينا بأن يتخلى عن جميع ادعاءاته في انطاكيه واللاذقية وترتب على ذلك وضع حد للتنافس بين النورمان بزعامة بوهيمند ثم تانكرد من ناحية وبين البروفنساليين بزعامة ريموند الصنجيل من ناحية أخرى .(٥) هذا فضلا عما ترتب على هذا الاسر من اجبار ريموند على التخلي عن اللاذقية فاستولى عليها تانكرد في حين أخذ ريموند منذ ذلك الوقت يعمل لحسابه الخاص لا لحساب البيزنطيين على ساحل الشام . وبعبارة أخرى فان ريموند اتجه ليؤسس امارة لنفسه على حساب المسلمين بدلا من أن يعمل على تقوية امارة انطاكيه الصليبية .(٦) ولكن هل كانت هذه نهاية ريموند في الشرق ؟

ان ريموند الذي اشتهر بالصلابة والاصرار ، والذي نذر بأنه سوف يبقى في الشرق ، والذي اقسم ألا يرجع الى وطنه الا بعد أن يسخر الباقي من حياته للهدف الصليبي ، ظل محافظا على وعده وأخذ يعمل على أن يقيم لنفسه امارة مستقلة مستغلا فشل الحملة الصليبية المتجهة الى بيت المقدس لتحقيق أغراضه وتقييم

---

(١) Setton:op.cit.Vol.1-p.346;Runciman:op.cit.Vol.2p.34

(٢) سعيد عاشور : الحركة الصليبية جـ ١ ص ٣٥٢

(٣) Runciman:op.cit.Vol.2-p.34.

(٤) Ibid: Vol.2 p. 34 .

(٥) سعيد عاشور : الحركة الصليبية جـ ١ ص ٣٥٠

(٦) Grousset:op.cit. vol.1 -p.p. 334,335.

(٧) J.Richard : op. cit.p. 3 .

لنفسه امارة جديدة (١) .

" بناء امارة طرابلس الصليبية "

كان على الصليبيين الذين أسسوا في الشمال امارة في انطاكيه وأخرى في الرها وفي الجنوب مملكة في القدس أن يخضعوا البلاد الواقعة بين تلك الممتلكات لكي يضمنوا لأنفسهم البقاء في الشرق (٢) . ذلك أن سلسلة من الامارات الاسلامية كانت تفصل الفرنج بعضهم عن بعض في بلاد الشام ، وأهم هذه الامارات طرابلس الخاضعة لبني عمّار . وقد بينا فيما سبق كيف أن صاحب طرابلس وهو القاضي جلال الملك بن عمار آثر مسالمة الصليبيين ، ومع قلة جيشه فقد استطاع أن يحكم اقليم عرف بثروته وذلك بفضل سياسة المسالمة التي اتبعها مع جيرانه (٣) . وبفضل هذه السياسة استطاع ابن عمار أن يحتفظ باستقلاله الذي كان يستند في المقام الأول على مناعة طرابلس ذاتها ، وهي التي كانت تقع على شبه جزيرة الميناء . هذا بالاضافة الى ما سبق أن أشرنا اليه وهو أنه كلما اقترب الفرنج من املاكه كان يظهر لهم قدرا كبيرا من التودد فزوّد الحملة الصليبية الاولى بالمؤن ، ولم يقاوم قادة هذه الحملة حينما حاصروا مدينة عرقة من ممتلكاته ، كما ساعد بلدوين البولوني اثناء مروره بامارته ليتولى حكم بيت المقدس ، بل لقد خرج اليه وقابله بالترحاب والهدايا (٤) . وحينما ابتعد الصليبيون بوجه عام وريموند بوجه خاص أثناء غيابه في حملة ١١٠١م بادر ابن عمّار واستعاد مدينة أنطرطوس التي سبق أن احتلها الصليبيون بزعامة ريموند سنة ١٠٩٩م (٥) . وبذا سيطر ابن عمار على كل الطريق الساحلي الممتد من الدقيقة وجبله الى بيروت التابعة للفاطميين (٦) . وكان هناك طريق آخر يمتد من شمال الشام الى فلسطين ، وهذا الطريق يسير في وادي نهر العاصي مجتازا مدينة شيزر الخاضعة لبني منقذ ، ومدينة حماه التي تدين بالولاء لرضوان ومدينة حمص التي يحكمها بنو الدولة اتابك رضوان وزوج أمه . وفي حمص يتفرع الى طريقين : الأول : وهو الذي اجتازه ريموند في الحملة الصليبية الأولى يتجه الى البقيعة ثم الى طرابلس والساحل . بينما يمضي الطريق الآخر الى حلب من توابع دمشق ثم الى منابع نهر الأردن (٧) . ويقول بعض المؤرخين أن ريموند وما اشتهر به

---

(١) Grusset: op. cit. Vol.1 - p. 318 .

(٢) Hitti: op. cit. p.p. 287,288 .

(٣) Runciman: op. cit. Vol.2 - p. 57 .

(٤) William of Tyre : op. cit.Vol. 1 - p. 422 .

(٥) سعيد عاشور : الحركة الصليبية جـ ١ ص ٢٥٤

(٦) Runciman :op. cit. vol.2.p.57.

(٧) Runciman : op. cit. vol.2 p. 57 .

من الطموح حمله على التفكير في أن يقيم امارة تتحكم في الطريق الساحلي وطريق الداخل على أن تكون حاضرتها حمص . ولكنه جعل هدفه الأول الاستيلاء على المدن الواقعة على الساحل ، ولا يتسنى له ذلك الا بما يلقاه من مساعدة قوة بحرية (١)

حجر الأساس : (أنطرطوس)

بعد اطلاق سراح ريموند من حبس تانكرد في أواخر سنة ١١٠١م ، خرج من انطاكيه في صحبة من بقي على قيد الحياة من أمراء الحملة الصليبية الأولى أمثال ستيفن كونت بلوا ، ووليم كونت اكبتانيا ، وولف كونت بافاريا وغيرهم ممن حرصوا على أن يحجوا الى بيت المقدس .

وفي الطريق اجتمع ريموند بزوجته وعساكره واصطحبهم معه الى انطرطوس ، وهي (٢) المدينة التي كانت وقت مجيء الحملة الصليبية الاولى تابعة لبني عمار ، والتي عرض ريموند في الحملة الصليبية الاولى على الاستيلاء عليها ، وقد رأينا كيف استردها بنو عمار وذلك أثناء غياب ريموند مع الحملة اللمبارديه في آسيا الصغرى ، لذلك حرص ريموند على الاستيلاء عليها من جديد (٣) .

ولما بلغ ريموند أسوار المدينة ، كان هناك أسطول جنوي قد وصل الى الشام منذ قليل ، فاستعان به ريموند في حصار المدينة من ناحية البحر ، وازاء هذا التهديد المزدوج ، الأسطول الجنوي من البحر ، وريموند من البر ، لم يستطع حاكم (٤) أنطرطوس المقاومة طويلا . فسقطت المدينة في منتصف فبراير سنة ١١٠٢م وجعلها (٥) ريموند قاعدة لعملياته المقبلة . وقد ظن زعماء ريموند أنه سوف يصحبهم بعد الاستيلاء على أنطرطوس الى بيت المقدس ، ولكنهم تركوه حين تكشفت خططه ولم يبق مع ريموند سوى ثلثمائة رجل (٦) . وبهذه القوة الصغيرة هاجم ريموند مدينة طرابلس

---

(١) Runciman:op.cit. Vol. 2 p. 57 .

(٢) سعيد عاشور : الحركة الصليبية جـ ١ ص ٣٥٤

(٣) " " " " " : " " " " "

(٤) William of Tyre :op. cit.Vol.1 - p. 442;Runciman :op. cit.Vol.2 - p. 58 .

(٥) Fulcherii Cornotensis(Rec.Hist.Occid.)Vol.3p.p.399, 400;Setton:op.cit.Vol.1 p. 396 .

(٦) ابن الأثير : الكامل جـ ١٠ ص ٢٠٤ حوادث سنة ٤٩٥ هـ

سياسة فخر الملك بن عمّار الجديدة :

رأينا فيما سبق سياسة جلال الملك المرنة تجاه الصليبيين وكيف أنه لم يعاديهم حتى عندما هاجموا عرقة التابعة له ، وكانت هذه السياسة هي السياسة نفسها التي اتبعها أسلافه ليحافظوا على استقلالهم وسط النزاع بين الفاطميين والسلاجقة في الشام . ففي الوقت الذي فرض الصليبيون فيه الحصار على بيت المقدس شهدت طرابلس نهاية عهد أميرها جلال الملك وولاية أمير جديد هو أخوه فخر الملك ابن عمّار : الذي يبدأ بولايته فصل جديد في عمر هذه الامارة وفي قصة العلاقات مع الصليبيين في بلاد الشام . ففي هذه المرة كان فخر الملك مضطرا الى قبول مبدأ الحرب وذلك أمام اصرار ريموند على الاستيلاء على طرابلس .

الحصار الأول لطرابلس : سار ريموند مع ما بقي معه من رجال الى طرابلس وحاصرها ، ولما وصل الى اسوار طرابلس وضع لابن عمار أن أجبر ريموند لا يزيد قلبه على ثمانمائة رجل فاستغل تلك الفرصة للقضاء عليه (١) .

وكان أن أرسل فخر الملك الى الأمير (ياخز) خليفة جناح الدولة على حمص والى الملك دقاق بن تتش يقول : " من الصواب أن نعاجل صنجيل اذ هو في هذه المدة القريبة (٢) . فبادر دقاق وأرسل الفين من فرسانه وأرسل جناح الدولة ما يزيد على هذا العدد كثيرا ، واحتشدت الجيوش الاسلامية عند أسوار طرابلس حيث بدأت المعركة ضد ريموند (٣) . وكان لزاما على رجال ريموند أن يقاتل كل فرنجي عشرين من المسلمين ودارت المعركة بين الجيوش الاسلامية وجيش ريموند الصغير على باب طرابلس ، فأخرج ريموند مائة من عسكره الى أهل طرابلس ، ومائة الى عسكر دمشق وخمسين الى عسكر حمص وبقي هو في خمسين (٤) اتخذهم حرسا له . وبدأ عسكر حمص هجومهم (٥) . ولكنهم انكسروا عند المشاهدة وولوا منهزمين وانتشر (٦)

---

(١) Runciman: op.cit. vol.2 p.- 58 .

(٢) ابن الأثير : الكامل جـ ١٠ ص ٢٤٤ حوادث سنة ٤٩٥هـ ، النويري : نهاية الأرب جـ ٢٦ ورقة ٧٧

(٣) سعيد عاشور : الحركة الصليبية جـ ١ ص ٢٥٦ ، Runciman: op.cit. Vol. 2p. 58 ، ويقول ابن القلانسي " ان المعركة دارت عند أنطرطوس " ذيل تاريخ دمشق ص ١٤١

(٤) ابن الأثير : الكامل جـ ١٠ ص ٢٤٤ حوادث سنة ٤٩٥ هـ

(٥) Runciman: op.cit. Vol.2 - p. 59 .

(٦) ابن الاثير : الكامل جـ ١٠ ص ٢٤٤ حوادث سنة ٤٩٥ هـ ، النويري: نهاية الأرب جـ ٢٦ ص ٧٧

الهلع والجزع بين الدماشقة في عين ثبت جيش طرابلس . وحينما رأى ريموند خصومه يفرون ، وجه كل جيشه لقتال رجال طرابلس فانهزموا ولاذوا بالهرب وعندئذ أخذ الفرنج يقتلون كل من لم يهرب من المسلمين فقتلوا منهم الخلق الكثير (١) حتى حدد ابن الأثير عدد القتلى من المسلمين بسبعة آلاف رجل (٢) . وبعد ذلك انتهز ريموند فرصة انتصاره على أهل طرابلس فحصرها وأتاه أهل الجبل فأعانوه على حصارها وكذلك أهل السواد وأكثرهم نصارى (٣) ، ولكن ريموند تبين له عدم استطاعته فتح طرابلس لاستحكاماتها الضخمة وحصانتها الطبيعية ، فهادن أهل طرابلس على مال وفيل ثم رحل عنهم الى مدينة أنطرطوس (٤) . ولا شك أن هذا النصر الذي أحرزه ريموند كان له أثره في استعادة ريموند لسمعته الحربية وضمان بقاء امارته على ساحل الشام فضلا عن تخوف المسلمين منه وعدم جرأتهم بعد ذلك على المبادرة بمهاجمته .

سياسة ريموند بعد فشل الحصار الأول على طرابلس :

وبعد أن عقد ريموند الهدنة السابقة مع ابن عمار أمضى الشهور التالية في توطيد مركزه في الجهات المجاورة لأنطرطوس فخرج في ربيع سنة ١٠٢ هـ/١٠٩١م لغزو سهل البقاع حيث كانت ممتلكات أمير حمص تمتد غربا حتى جبل عكار (٥) . وكان لا بد له من مهاجمة هذا الاقليم ليعزل طرابلس من ناحية ويمد أملاكه الى نهر العاصي من ناحية أخرى ، وقد بدأ ريموند بمهاجمة حصن الطوبان وهو بقارب رفنيه (٦) . ويقع في الشمال الشرقي من حصن الاكراد . وكان مقدم هذا الحصن — يقال له ابن الصوفي — قد أسر من ريموند فارسا من أكابر فرسانه ، فبذل صنجيل في فدائه عشرة آلاف دينار وألف أسير ولكن ابن الصوفي لم يوافقه على ذلك (٧) ثم هاجم ريموند بعد ذلك حصن الاكراد الذي يمتاز بموقعه الحربي الفريد لأنه يشرف على كل الاقليم بين أنطرطوس وطرابلس من جهة وحمص من جهة أخرى (٨) .

---

(١) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٤١

(٢) ابن الاثير : الكامل جـ ١٠ ص ٢٤٤ حوادث سنة ٤٩٥هـ ، كرد علي : خطط الشام جـ ١ ص ٢٨٥

(٣) العيني : عقد الجمان حوادث سنة ٤٩٥

(٤) Runciman :op.cit.vol.2-p. 59.

(٥) سعيد عاشور : الحركة الصليبية جـ ١ ص ٢٥٧ ، احمد بن علي الدويري : الاعلام والتبيين في خروج الفرنج الملاعين ورقه ٥ ، العيني : عقد الجمان حوادث ٤٩٥هـ

(٦) ابن الاثير : الكامل جـ ١٠ ص ٢٤٤ حوادث سنة ٤٩٥ هـ

(٧) ابن الاثير : الكامل جـ ١ ص ٢٤٤ حوادث سنة ٤٩٥هـ ، النويري : نهاية الأرب جـ ٢٦ ص ٧٧ ، كرد علي : خطط الشام جـ ١ ص ٢٨٥

(٨) سعيد عاشور : الحركة الصليبية جـ ١ ص ٢٥٧

وكان ريموند قد سبق ان احتل حصن الاكراد في يناير سنة ١٠٩٩م ، ولكن أمير حمص عاد فاسترده . ولما علم صاحب حمص بمهاجمة ريموند لحصن الاكراد جمع عسكره ليسير اليه ويكبسه ولكنه حدث أنه أثناء وجوده بالجامع لصلاة الجمعة أن وثب عليه ثلاثة من الباطنية وقتلوه هو وجماعة من أصحابه(١) . وكان من نتيجة مقتل جناح الدولة حسين أتابك أن اضطرب الأمن بالمدينة وقد اتهم رضوان ربيبه بأنه هو الذي حرض على قتله . واستغل ريموند هذه الفرصة فرفع الحصار عن حصن الاكراد وتوجه نحو حمص ليستفيد من الموقف المضطرب الناتج عن مقتل جناح الدولة(٢) ولما علمت ارملة جناح الدولة التي كانت والدة رضوان باقتراب ريموند من المدينة ارسلت الى ابنها رضوان يحلب تعرض عليه تسليم حمص له ، غير أن مستشاري جناح الدولة رفضوا مساندتها(٣) وراسلوا الملك شمس الملوك بدمشق يلتمسون انفاذ من يتسلم حمص ويعتمد عليه في حمايتها والذب عنها(٤) فأتاهم دقاق بنفسه وكان بصحبته اتابكة طغتكين فتولى زمام الحكم بحمص . ثم بعد ذلك ترك ادارتها لاتابكة طغتكين . وكان ذلك في الوقت الذي وصل الفرنج الى الرستن لمضايقة حمص ومنازلتها(٥) ، ولما علم ريموند أنه في وضع لا يسمح له بالوقوف بين نارين قنع بما فرضه على حمص من جزية مالية وانصرف عنها عائدا الى أنطرطوس(٦) .

الحصار الثاني لطرابلس : وبعد فشل ريموند في الاستيلاء على حمص وحصن الاكراد عاد الى انطرطوس ليرسم خطط المستقبل ويتدبر الحيل للاستيلاء على طرابلس وكان يحاصرها من حين لآخر . وكان ريموند يستهدف من محاولاته الاستيلاء على المناطق المجاورة لطرابلس عزل المدينة عزلا تاما(٧) .

ولكن طرابلس كانت مدينة محصنة تطل على البحر . لذلك كانت الموانئ التموينية تأتيها بسهولة من ناحية البحر مما جعلها لا تتأثر كثيرا بهذا الحصار . وبلغ من شجاعة ابن عمار أنه كان يرسل أصحابه في المراكب يغيرون على البلاد التي بأيدي الفرنج ويقتلون من وجدوا ، وقصد بذلك اخلاء السواد من المزارعين

---

(١) ابن القلانسي : الذيل ص ١٤٢ ، العيني : عقد الجمان : حوادث سنة ٤٩٥هـ ، محمد العروسي : الحروب الصليبية ص ٨

(٢) ابي الفدا : المختصر في اخبار البشر ج ٢ ص ٢١٦ ، النويري : نهاية الأرب ج ٢٦ ص ٧٧ ، Setton:op.cit.Vol.1-p. 396.

(٣) Runciman:op.cit.vol.2-p.p.59 ,60.

(٤) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٤٢ (٥) المرجع السابق : نفس الصفحة

(٦) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ١ ص ٢٥٨

(٧) Hitti :op.cit. p. 289 .

فيحرم الفرنج من الغذاء ويرحلوا عنه (١) . وفي تلك الأثناء علم ريموند بوصول اسطول جنوي مؤلفا من أربعين سفينة (٢) الى اللاذقية في شتاء سنة ١١٠٣م (٣) مشحونا بالتجار والأجناد والحجاج وغير ذلك ، فاستعان بهم ريموند لمحاصرة طرابلس برا وبحرا ، وضايقوها وقاتلوها أياما . وعندما عجزوا عن تحقيق اطماعهم فيها رحلوا عنها (٤) ونزلوا على ثغر جبيل وهي قلعة صغيرة تقع على الساحل بين طرابلس وبيروت ، وكانت هي الاخرى تابعة لبني عمار ، وقاوم أهل جبيل مقاومة شديدة ولكنهم حين رأوا عجزهم عن المقاومة والصمود أمام الحصار الذي فرضه عليها ريموند من البر والبحر . فاوشوه في التسليم واستسلموا لريموند في اواخر سنة ١١٠٤ م بعد أن أضنهم ، ولكن الفرنج لم تف لهم بالأمان وأخذوا اموالهم وصادروهم واستنقذوهم بالعقوبات وانواع العذاب (٥) .

وكافأ ريموند الجنوية لمساعدتهم له في الاستيلاء على جبيل بأسطولهم الذي كان بقيادة أمير البحر هيو أمبرياتش Hugh Embriacus بأن منحهم (٦) ثلث المدينة .

وبالاستيلاء على جبيل في الجنوب وأنطرطوس في الشمال ، تم وضع الاطار الخارجي لامارة طرابلس الصليبية ، ولم يبق أمام ريموند غير الاستيلاء على العاصمة الصليبية لتلك الامارة وهي مدينة طرابلس ذاتها (٧) . ولما كان هذا لا يمكن تحقيقه الا بمساندة قوة بحرية ، فانه كان على ريموند أن يجهز نفسه ريثما يستطيع أن يحصل على مساندة تلك القوة البحرية ليستطيع بها أن يحكم الحصار على المدينة

---

(١) ابن الأثير : الكامل جـ ١٠ ص ٢٦٥ ، ٢٦٦ حوادث سنة ٤٩٦ هـ

(٢) ويقول جروسيه أن عدد السفن كان خمسون سفينة
Runciman:op.cit. Vol.2-p. 60.

(٣) سعيد عاشور : الحركة الصليبية جـ ١ ص ٣٥٩

(٤) ابن الاثير : الكامل جـ ١٠ ص ٢٧٢ حوادث سنة ٤٩٧ هـ ، ابي الفدا : المختصر : جـ ٢ ص ٢١٧ ، ابن القلانسي : الذيل ص ١٤٢ ، سبط بن الجوزي : مرآة الزمان جـ ٨ ص ٦ ، النويري : نهاية الأرب جـ ٢٦ ص ٧٨ ، سعيد عاشور : الحركة الصليبية جـ ١ ص ٣٥٩

(٥) ابن الأثير : الكامل جـ ١٠ ص ٢٧٢ حوادث سنة ٤٩٧ هـ ، احمد بن علي الحريري : الاعلام والتبيين ورقة ٦ ، ابن القلانسي : الذيل ص ١٤٣ ، كرد علي : خطط الشام جـ ١ ص ٢٨٦
Alberti:Aquensis(Rec.Hist.Occid.)Vol.4 p. 606 .

(٦) Grousset:op.cit.vol.1 - p. 344 ;Setton:op.cit.Vol.1 p. 369.

(٧) سعيد عاشور : الحركة الصليبية جـ ١ ص ٣٦٠

برا وبحرا (١) . وبينما هو ما زال في جبيل اذ استنجد به بلدوين ملك الفرنج صاحب القدس على حصار عكا ، فسار ريموند بجيشه ومعه الجنويون الذين كانوا ملكوا ثغر جبيل (٢) . وساهم ريموند في حصار عكا واستيسل والي عكا زمر الدولة البيوشي في مقاومة الصليبيين ولكنه عجز عن حفظ البلد خاصة بعد انضمام ريموند بقواته الى بلدوين فاضطر الى الخروج والرحيل الى دمشق .

وبعد الانتهاء من الاستيلاء على عكا عاد ريموند لمساود حصار طرابلس فأقام معسكرا في خارج اسوار المدينة (٣) . وهناك فكر ريموند في اقامة حصن يقع على الضفة اليسرى من نهر قادر حيث كان هناك تله تعرف بتلة الحجاج ، فكر ريموند في أن يبني حصنا على هذا التل وعرفت هذه القلعة بقلعة صنجيل (٤) نسبة الى مؤسسها ريموند (Saint Gilles) (٥) وكان هدف ريموند من ذلك هو احكام الرقابة على طرابلس وعزلها عن الاراضي المجاورة لها ، ومنعها من الاتصال بالعالم الخارجي وحرمانها حتى من الحصول على مياه الشرب (٦) .

وبعد الفراغ من بناء الحصن شحنه بالاموال والرجال والسلاح (٧) . وعلى الرغم من أن طرابلس أصبحت في عزلة حصار مستمر فانها ظلت صامدة لا تستسلم رغم أن ريموند قد سيطر بهذا الحصن على كل ما يصل اليها من الطرق البرية . ولكنه كان يفتقر الى قوة بحرية دائمة . وكان بنو عمار بفضل ما اشتهروا به من غنى كبير يملكون اسطولا تجاريا ضخما استطاعوا به أن يجلبوا الى مدينتهم المؤن من الموانئ المصرية الواقعة الى الجنوب منها (٨) . في حين تكاتف المسيحيون المحليون من الموارنة وغيرهم مع ريموند لاحكام الحصار المفروض على طرابلس (٩) .

---

(١) ابن الاثير : الكامل جـ ١٠ ص ٢٧٢ حوادث سنة ٤٩٧ هـ

(٢) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٤٤ ، أبو الفدا : المختصر جـ ٢ ص ٢١٧

(٣) William of Tyre :op.cit.Vol.1-p. 453 ,Runciman:op. cit.Vol.2 p.60.

(٤) ابن الاثير : الكامل جـ ١٠ ص ٤١١ حوادث سنة ٤٩٩ هـ ، العيني : عقد الجمان حوادث سنة ٤٩٩ هـ

(٥) ابو الفدا : المختصر جـ ٢ ص ٢٢١ ، سعيد عاشور : الحركة الصليبية جـ ١ ص ٣٦٠

(٦) F.R.Buhl. Art.Tarabulus. Enc. of Isl.

(٧) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان جـ ٨ ص ٦ ، ٧

(٨) Runciman:op.cit. vol.2-p. 60-61 .

(٩) سعيد عاشور : الحركة الصليبية جـ ١ ص ٣٦٠

ولما اشتدت مضايقة تلك القلعة لمدينة طرابلس خرج القاضي ابن عمار في التاسع عشر من ذي الحجة سنة ٤٩٧ هـ (أغسطس — سبتمبر ١١٠٤م) وشن هجوما مفاجئا على الحصن نقتل من به ونهب ما فيه وأشعل فيه النار وأخربه وأخذ منه السلاح والمال والديباج والقسية وعاد الى طرابلس سالما غانما(١). وعندما علم ريموند ليحاين ما حل بحصنه وقف على بحر سقوفه المحترقة، ومعه جماعة من القامصة والرسان فانخسف بهم السقف(٢) وأصيب ريموند بعدة حروق.

وفي أوائل السنة التالية عقدت هدنة بين فخر الملك وريموند تخلى بمقتضاها فخر الملك لريموند عن حاصر طرابلس بحيث لا يقطع الميرة عنها ولا يمنع المسافرين منها(٣)، وقد فعل فخر الملك ذلك ليحمي تجارة مدينته(٤). وبعد انتهاء المفاوضات نزل بريموند مرض أودى بحياته ولم يكن قد اكتمل شفائه من الحروق التي اصابته منذ ستة أشهر فمات ريموند بجبل الحاج في ٢٨ فبراير ١١٠٥م الموافق ٤ جمادى الاولى سنة ٤٩٨ هـ(٥) وحمل الى القدس حيث دفن(٦).

وبذلك مات ريموند قبل ان يحقق أمنيته في اخضاع طرابلس، واذا كانت مدينة طرابلس لم تسقط بيد ريموند، الا أنه صاحب الفضل في وضع الاطار العام للحصار كما أنه سهل مهمة من خلفه في الاستيلاء عليها.

* * *

---

(١) ابن القلانسي: الذيل ص ١٤٦، سبط بن الجوزي: مرآة الزمان ج ٨ ص ٧٦، ابن المحاسن: النجوم الزاهرة ج ٥ ص ١٨٨، كرد علي: خطط الشام ج ١ ص ٢٨٦

(٢) ابن الاثير: الكامل ج ١٠ ص ٤١٢ حوادث سنة ٤٩٩، النويري: نهاية الارب ج ٢٦ ورقة ٧٨

(٣) ابن القلانسي: الذيل ص ١٤٧، سبط بن الجوزي: مرآة الزمان ج ٨ ص ٨،
Runciman:op.cit.Vol.2pp.60-6I;Grousset:op.cit.Vol.1-p.343.

(٤) William of Tyre:op.cit.Vol.1-p.462;J.Richard:op.cit.p.14.

(٥) Fulcherii Cornotensis:(Rec.Hist.Occid.)Vol.3p.411;
Setton:op.cit.Vol.1-p.396,Runciman:op.cit.Vol.2p.6I.
سعيد عاشور: الحركة الصليبية ج ١ ص ٢٦١
ويرى ابن الاثير في الكامل ج ١٠ ص ٤١٢ حوادث سنة ٤٩٩ هـ وكذلك العيني عقد اليمان حوادث سنة ٤٩٦ هـ أن ريموند توفي بعد احراق الحصن بعشرة أيام.

(٦) أبو الفدا: المختصر ج ٢ ص ٢٢١، ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب ج ٣ ص ٤٠٩

"وليم جوردان (السردانى) وامارة طرابلس"

أدت وفاة ريموند الى اثارة مشكلة فى وراثة الحكم فى تولوز وفى الشام أيضا . ذلك أن ريموند كان قد عهد الى ابنه الاكبر برتراند بحكم امارة تولوز ولكن برتراند فى وراثة ابيه كان مزعزعا بوصفه ابنا غير شرعى له . ولم يبق على قيد الحياة من ابناء ريموند من الاميرة الفيرا سوى الفونسو جوردان Alphonse الذى لم يمض على ولادته فى قلعة الحاج الا شهورا قليلة (١) ولم تكن ولادته معروفة فى اوربا ، لذلك آل برتراند بحكم تولوز . أما فى الشرق فكان الفونسو فى سن لا تمكنه من تدبير أمور املاك ابيه ، أو قيادة الجيوش للدفاع عنها ضد المسلمين . لذلك فكر الصليبيون فى الشرق فى وليم جوردان William Jordan ابن خالة ريموند (٢) الذى كان قد وصل حديثا الى الشرق فاختاروه وفقا لرغبة ريموند قبل وفاته (٣) ليكون خلفا له . وقد تابع وليم سياسة سلفه ريموند فأحكم الحصار حول طرابلس عن طريق قلعة صنجيل كما حافظ على التحالف مع القسطنطينية وعلى الصلات الطيبة مع امبراطورها . ويذكر ابن الاثير والعينى أن ملك الروم (الامبراطور البيزنطى الكسيوس) أمر أصحابه (٤) بالاذقية ليحملوا الميرة الى هؤلاء الفرنج الذين على طرابلس فحملوها فى البحر . ولكن فخر الملك تصدى لها باسطوله واشتبك مع البيزنطيين فى قتال بحرى شديد (٥) ظفر فيه المسلمون بقطعة من اسطول الروم فأخذوها وأسروا من كان فيها (٦) . وبينما كانت المؤن تتوافد على الفرنج الذين على طرابلس من قبرس والاذقية ، عانى أهل طرابلس من هذا الحصار العناء الشديد . فلم تعد تصلها المؤن بطريق البر وازداد ارتفاع المواد الغذائية حتى بيع الرطل من التمر بدينار من الذهب (٧) .

ولما قلت الاقوات فى المدينة خاف اهل البلد على انفسهم وأولادهم وحريمهم فجاع الفقراء ، وانتقر الأغنياء وحاول فخر الملك تخفيف الضائقة بتوزيع المؤن بعد أن دفع أثمانها بما فرضه من ضرائب استثنائية (٨) . وكان ابن عمار طوال هذه الأزمة

---

(١) William of Tyre:op.cit. vol.1-p. 454 ; Runcimanp.61.

(٢) سعيد عاشور : الحركة الصليبية جـ ١

(٣) Runciman:op.cit.Vol.2-p.61

(٤) ابن الاثير : الكامل جـ ١٠ ص ٤١٢ حوادث سنة ٤٩٩ هـ ، العينى : عقد الجمان حوادث سنة ٤٩٩ هـ

(٥) المرجعين السابقين : الجزء والصفحة

(٦) Grousset:op.cit.Vol.1-p.346

(٧) Hitti : op.cit p. 289 .

(٨) Runciman:op.cit.vol.2 p.-62.

مثالا للشجاعة والصبر وسداد الرأي . وحدث أن أخذ مالا من رجلين من أغنياء طرابلس ، لينفق منه على اهل البلد فخرج الرجلان الى الفرنج وقالا ان صاحبنا صادرنا ، فخرجنا اليكم لتكون معكم ، وذكرا لهم أنه تأتيه الميرة من عرقة والبترون ، فجعل الفرنج جمعا على ذلك الجانب يحفظه من دخول شيء الى البلد . وكانت طرابلس من أعلم بلاد الاسلام وأكثرها تجملا وثروة فباع أهلها من الحلي والأواني الذهبية ، ما لا حد عليه حتى بيع كل مائة درهم نقره بدينار (١) .

ويبدو أن الثروة التي كان عليها اهل طرابلس مكنتهم من الحصول على غذائهم ولو بالاثمان الباهظة . وازاء هذه الازمة لم يعرف فخر الملك من أين يطلب المعونة . فان طلبها من الفاطميين فان الثمن سيكون تسليمهم طرابلس ذاتها . هذا الى أن احوال الدولة ذاتها كانت تسير من سيء الى أسوأ بعد الهزائم التي منوا بها على ايدي الصليبيين في فنون سنة ١٠٩٩ م (٤٩٣ هـ) ففقدوا كلا من أرسوف وقيساريه في سنة ١١٠١ م (٢) ومنيت حملاتهم على فلسطين بالفشل الذريع في سنوات ١١٠١ ، ١١٠٢ ، ١١٠٥ م . وانتزع الصليبيون منهم مدينة عكا الحصينة في مايو سنة ١١٠٤ م (٣) ، وبذلك انكمش نفوذهم في بلاد الشام ولم يكن في استطاعة ابن عمار أن يلتمس المساعدة من طغتكين أتابك دمشق وحمص بسبب الخلاف والعداء بينهما (٤) .

لذلك رأى فخر الملك أن من الاسلم له أن يلتمس المساعدة من جهات بعيدة ولم يكن أمامه غير الامير الاسبق لبيت المقدس وهو سكمان بن أرتق التركماني الذي صار عندئذ صاحب حصن كيفا وماردين بديار بكر فطلب منه الاسراع الى مساعدته كما طلب المساعدة ايضا من الامير جكرمش صاحب الموصل ، والملك فخر الملك رضوان بن تاج الدولة تتش صاحب حلب (٥) . وكان أن اتفق الاميران سكمان بن ارتق وجكرمش على الجهاد ونصرة أهل طرابلس . وفي نفس الوقت الذي وصلت فيه رسالة ابن عمار الى الامير سكمان بن أرتق وتجهز للجهاد وصلت رسالة أخرى من الامير ظهير الدين طغتكين (وقد اشتد عليه المرض حتى قارب الموت)

---

(١) ابن الاثير : الكامل ج ١٠ ص ٤١٢ ، ٤١٣ حوادث سنة ٤٩٩ هـ
(٢) ابن ميسر : اخبار مصر ج ٢ ص ٣٩ — ٤١
(٣) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٤٣ — ١٤٤
(٤) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ١ ص ٢٦٣ ، Runciman: op.cit. Vol.2-p. 63
(٥) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٤٦

الى الامير سكمان بن أرتق يستدعي وصوله الى دمشق في عسكره ليوصي اليه ويعتمد في حماية دمشق عليه (١) . لذلك قرر سكمان أن يستفيد أولا من عرض طفتكين فأسرع نحو دمشق . ويبدو أن اصحاب طفتكين لاموه على استدعائه سكمان وخوفوه عاقبة مجيئه الى دمشق ولكن القدر عجل بسكمان فلم يكد يبلغ (القريتين) حتى مات فجأة وأسرع قادته بالعودة للتنازع على الحكم (٢) .

وفي شهر رجب سنة ٤٩٨ هـ (١١٠٤ م) خرج الملك فخر الملوك رضوان صاحب حلب وجمع جيشا كثيرا وعزم على قصد طرابلس لنجدة فخر الملك ابن عمار على الافرنج النازلين عليه . وكان الأرمن الذين (٣) في حصن ارتاح قد سلموا اليه الحصن لما قطعهم من شر الافرنج وتزايد ظلمهم . وفي الوقت الذي تجهز رضوان للسير الى طرابلس قام تانكرد لقصد أرتاح واستعادتها ، فالتقى الفريقان (٤) في معركة انتهت بهزيمة رضوان وقتل ثلاثة آلاف ولم يسلم الا من كتب الله سلامته وبفضل ما اشتهر به فخر الملك من الثروة والدبلوماسية استطاع أن يبقى في طرابلس طوال سنتي ١١٠٦ ، ١١٠٧ م وسط البؤس الذي ازدادت حدته وكان الفرنج قد رسخت اقدامهم وقتذاك وأصبح من الصعب على الدول الاسلامية المجاورة أن يقوموا بطردهم (٥) .

سقوط أسرة بني عمّار

أخذ فخر الملك بن عمّار ينتظر وصول الامدادات من بغداد ولكن لم يجد أحدا يستجيب لاستغاثته ويهب لنجدته . ويبدو أنه كان لديه كبير الأمل في نجدة أكبر الزعماء المسلمين في ذلك الوقت الخليفة العباسي والسلطان السلجوقي محمد (٦) وذلك سنة ١١٠٨ م خاصة بعد أن بلغ فخر الملك انتظام الأمور للسلطان محمد وزوال كل معارضة (٧) . لذلك رأى أن يذهب اليه بنفسه في بغداد .

---

(١) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٤٦
Runciman:op.cit.Vol.2-p. 63.

(٢) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٤٨ ، ابن العديم : زبدة الحلب ص ١٥٠ ، ابن هاشم البطاح : اعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء ج ١ ص ٣٩٤

(٣) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٤٨
Runciman:op.cit.vol.2 -p.63.

(٤) ابو الفدا : المختصر في اخبار البشر ج ٢ ص ٢٢٣ ،
Grousset:op.cit. Vol.1 - p. 346 .

(٥) ابن الاثير : الكامل ج ١٠ ص ٤٥٢ حوادث سنة ٥٠١ هـ ، الراوندي : راحة الصدور وآية السرور ص ٢٢٨

وكان أن عهد فخر الملك بأمر البلاد الى ابن عمه ذى المناقب (أبى المناقب) ابن عمار (١) ، وأمره بالمقام ورتب معه الاجناد برا وبحرا وأعطاهم راتب ستة شهور مقدما وأخذ عليهم الايمان . وعندما استعد للرحيل أنفذ الى دمشق يستدعى الامير أرتق بن عبد الرازق أحد أمراء دمشق اليه ليتحدث معه بما فى نفسه فأجابه الى ذلك وتوجه أرتق الى ابن عمار الذى كان قد خرج من طرابلس فى خمسمائة فارس وراجل ومعه هدايا وتحف أعدها للسلطان عند مضيه اليه الى بغداد (٢) ويصف ابن الاثير هذه الهدايا فيقول : " ان ابن عمار قد استصحب معه من الهدايا ما لم يوجد عند ملك مثله من الاعلاق النفيسة والأشياء الغريبة والخيل الرائعة (٣) واتفق الامير أرتق مع فخر الملك على أن يمرا بدمشق ، وفعلا (٤) سار الاميران من طرابلس فى مارس ١١٠٨ م ، ونزلا بظاهر دمشق عند مرج باب الحديد (٥) . وبالغ ظهير الدين فى اكرامه وتناهى فى احترامه وحمل اليه امراء العسكرية ، ومقدموه ، من الخيل والبغال والجمال وغير ذلك ما أمكنهم حمله واتحافه به وطلب منه طغتكين دخول البلد "فدخلها يوما واحدا الى الطعام وأدخله حمامه (٦) "

وفى دمشق جاءت ابن عمار الأخبار أن ابن عمه استغل فرصة غيابه وأظهر الخلاف له والعصيان عليه " ونادى بشعار المصريين " فلما عرف فخر الملك ما بدا منه كتب الى اصحابه يأمرهم بالقبض عليه وحمله الى حصن الغوابى فتم ذلك (٧) .

وبالرغم مما حدث فى امارة طرابلس قبل رحيل فخر الملك من دمشق الا أنه لم يغير ذلك اعتمادا واصل السير مستنجدا بالخليفة والسلطان فى بغداد ويبدو أن طغتكين كان يرغب فى استصحاب فخر الملك الى بغداد ولكنه لم يفعل ذلك لأنه كان قد علم أن جماعة من حساده عند السلطان يسعون له بالأذى

---

(١) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٦٠ ، ابن الاثير : الكامل جـ ١٠ ص ٤٥٢ حوادث سنة ٥٠١ هـ ، سعيد عاشور : الحركة الصليبية جـ ١ ص ٣٦٤ ، Runciman:op.cit.Vol.2-p. 63 .

(٢) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٦٠

(٣) ابن الاثير : الكامل جـ ١٠ ص ٤٥٢ حوادث سنة ٥٠١ هـ

(٤) Runciman:op.cit.Vol.2 -p. 63.

(٥) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٦٠

(٦) ابن الاثير : الكامل جـ ١٠ ص ٤٥٢ حوادث سنة ٥٠١ هـ

(٧) المرجع السابق : الجزء والصفحة ، ابن القلانسى : الذيل ص ١٦٠ ، ١٦١ ، كرد على : خطط الشام جـ ١ ص ٢٩١ .

وافساد الحال عند السلطان لذلك أصحب ولده تاج الملوك بورى مع فخر الملك وأعطاه كثيرا من الهدايا والتحف من الخيول والثياب ليقدمها الى السلطان واستوزر له أبا النجم هبة الله بن محمد بن بدين وجعله مدبر الامره وسفيرا بينه وبين من أنفذ اليه (السلطان)(١) . ورحل فخر الملك وصحبه من دمشق فى الثامن من شهر رمضان سنة ٥٠١ هـ ، وعندما اقترب من بغداد . لقى كل مظاهر الحفاوة والاهتمام(٢) فأمر السلطان الامراء كافة بتلقيه واكرامه وأرسل اليه شبارته وفيها دسته لكى تحمله عند عبور الفرات(٣) الذى يجلس عليه ليركب فيها ، فلما نزل اليها قعد يمين يدى موضع السلطان ، فقال له من بها من خواص السلطان(٤) : " قد أمرنا أن يكون جلوسك فى دست السلطان " مع أنه لا يحمل من الالقاب ما يزيد على لقب قاضى " .

وأظهر له الخليفة والسلطان المحبة الاخوية واستقبله استقبالا حسنا وأثنى عليه ثناء طيبا وأقام عنده ضيفا مكرما مدة أربعة اشهر(٥) . وكان حين اجتمع بالسلطان صور له حاله وقوة عدوه ، وطول حصره ، وطلب النجدة وكذلك فعل عند مقابلة الخليفة . كما ابدى استعداده لانفاق على عسكر السلطان . فوعده السلطان بأن جيشا سلجوقيا ضخما سوف ينهض لانقاذ طرابلس بقيادة(٦) الامير مودود غير أنه لا بد لهذا الجيش أولا من أن ينجز بعض الاعمال مثل اخضاع أمير الموصل جاولى واعادته الى ولائه السابق للسلطان .

وهكذا طال انتظار ابن عمّار فى بغداد حتى أدرك انه ليس فى نية السلطان محمد أن يتدخل فى أمر طرابلس ، وعندما سئم ابن عمّار من الاقامة فى بغداد ووجد أنه لم يظفر سوى بالكلمات المعسولة والسؤال عن حاله وما يعانيه فى مجاهدة الكفار ويقاسيه من ركوب الخطر فى قتالهم ، قرر العودة الى بلده ، فعاد الى دمشق فى نصف المحرم سنة ٥٠٢ هـ افسطس سنة ١١٠٨(٧) ولكنه لم يكد يصل الى الشام حتى سمع أن طرابلس نفسها قد طارت من يده أثناء غيابه . ذلك أن أهل طرابلس عندما اشتد بهم الحال أدركوا أنه ما من دولة اسلامية تستطيع مساندتهم(٨)

---

(١) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٦١
(٢) Runciman:op.cit.Vol.p. 63 (٣) Runciman:op.cit.Vol.p. 63
(٤) ابن الأثير : الكامل جـ ١٠ ص ٤٥٣ حوادث سنة ٥٠١ هـ
(٥) Hitti:op.cit.p.289 .
(٦) Runciman: op. cit. Vol. 2 -p. 64 .
(٧) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٦١
(٨) سعيد عاشور : الحركة الصليبية جـ ١ ص ٢٦٤

سوى دولة الفاطميين الذين لا زال لهم بعض السيطرة على البحر (١) ، لذلك أرسلوا الى الأفضل أمير الجيوش بمصر يلتمسون منه واليا يكون عندهم ، ومعه السيرة في البحر ، فأرسل اليهم شرف الدولة بن ابي الطيب واليا ومعه الغلة وغيرها مما تحتاج اليه البلاد في الحصار (٢) . فقدم اليها في صيف سنة ١١٠٨م ، وقد جلب معه للسكان كميات كبيرة من القمح وما تحتاج اليه البلاد في الحصار ، وما أن وصل شرف الدولة الى طرابلس حتى أمر بالقبض على أنصار فخر الملك وآلاته وأثاثه وأرسلهم الى مصر في البحر (٣) .

ولم يجد فخر الملك مكانا يلجأ اليه غير جبله الواقعة بين اللاذقية والمرقب والتي كانت لا زالت في حوزته ، فانه اتخذ طريقه اليها ، ولكن حكمه في جبله لم يطل (٤) . ففي مايو سنة ١١٠٩ م الموافق ثاني عشرين ذي الحجة سنة ٥٠٢ هـ وقف تانكرد أمام جبله أثناء عودته بعد فتح طرابلس في كل قواته ولم يسع فخر الملك الا التسليم بعد أن تم التفاهم على أن تبقى له المدينة اقطاعا من تانكرد ، ولكن تانكرد نقض العهد وأجبر فخر الملك على مغادرة المدينة (٥) وذهب ابن عمار الى شيزر فأكرمه صاحبها محمد بن علي بن منقذ واحترمه وعرض عليه المقام عنده فأبى وتوجه الى الأمير طغتكين صاحب دمشق (٦) فأكرمه طغتكين وأقطعه الزبداني (٧) وأعماله وأمضى بقية حياته يعيش على ما أجراه عليه طغتكين من مال (٨) .

وأصبحت بذلك امارة طرابلس موالية للفاطميين حتى سقطت في أيدي الصليبيين على نحو ما سنوضحه فيما بعد .

* * *

---

(١) Runciman:op.cit. Vol. 2 - p. 64 .

(٢) ابن الاثير : الكامل جـ ١٠ ص ٤٥٤ حوادث سنة ٥٠١ هـ

(٣) ابن القلانسي : الذيل ص ١٦١ ، Grousset:op.cit.Vol.1 p.349

(٤) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان جـ ٨ ص ١٧

(٥) Runciman:op.cit.Vol.2 p.64.

(٦) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ١٨٠

(٧) الزبداني كورة بين دمشق وبعلبك (ياقوت الحموي — معجم البلدان) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان جـ ٨ ص ١٧

(٨) أبو الفدا : البداية والنهاية جـ ١٢ ص ١٧١ ،
Runciman:op. cit. Vol. 2 - p. 64 .

برتراند وتأسيس امارة طرابلس الصليبية :

كان آخر الأعمال التي قام بها وليم جوردان قبل وصول برتراند هو الاستيلاء على حصن عرقه وهو حصن منيع من أعمال طرابلس وكان بيد غلام للقاضي فخر الملك ابن علي بن عمّار (١) . وقد انتهز هذا الغلام فرصة شق طرابلس عصا الطاعة على فخر الملك فاستقل هو الآخر بعرقه . وعندما طال مكث الفرنج في نواحيه ضاق به القوت وانقطعت عنه الميرة ولم يجد أحدا أمامه من زعماء المسلمين يستطيع أن يستنجد به غير طفتكين فأرسل اليه يلتمس منه المعونة على دفع الافرنج عنه (٢) ، وقال : " ارسل من يتسلم هذا الحصن مني ، قد عجزت عن حفظه ولأن يأخذه المسلمون خير لي دنيا وآخره من أن يأخذه الفرنج "

لذلك أرسل اليه طفتكين ثلاثمائة رجل الى عرقة تحت قيادة قائد اسمه اسرائيل فتسلم منه الحصن ، ولكن ما كاد غلام ابن عمّار ينزل من الحصن حتى رماه اسرائيل بسهم (٣) قتله ، وذلك حتى لا يعرف طفتكين ما خلفه من أموال في القلعة . وكانت عرقة على جانب كبير من الأهمية ، ويؤدي استيلاء الدماشقة عليها الى قطع الطريق على الصليبيين بين أنطرطوس وطرابلس (٤) .

وعزم طفتكين على زيارة عرقة للاطلاع عليه ، وتقويته بالعساكر والأقوات وآلات الحرب ، فسار في أربعة آلاف فارس وفتح في طريقه حصونا للفرنج منها حصن الأكمة (٥) .

ولما علم وليم جوردان بذلك وكان على حصار طرابلس توجه في ثلاثمائة فارس ومائتي تركبولي Turcopole (٦) واشتبك مع جيش طفتكين فهزمه في شعبان سنة ٥٠٢ هـ (١١٠٨ م) وطارده الى حمص ثم عاد فحاصر عرقة ، فلما نازلها طلب من كان بها الامان ، فأمنهم على نفوسهم ، وتسلم الحصن بعد حصار

---

(١) ابن الأثير : الكامل جـ ١٠ ص ٤٦٧ حوادث سنة ٥٠٢ هـ
(٢) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٦٢
(٣) النويري : نهاية الارب جـ ٢٦ ص ٧٨
(٤) سعيد عاشور : الحركة الصليبية جـ ١ ص ٣٦٥
(٥) ابن الأثير : الكامل جـ ١٠ ص ٤٦٨ حوادث سنة ٥٠٢ هـ
(٦) كلمة تركبولي Turcopole تعني بالعربية : جند في خدمة الافرنج آباؤهم أتراك (أو عرب) وأمهاتهم يونان ، أسامة بن منقذ : الاعتبار ص ٥١ ،
Runciman: op. cit. Vol.2 - p. 67 .

ثلاثة أسابيع (ابريل سنة ١١٠٨ م) ، وهناك رأى يقول أن حامية عرقة عندما يئست من المقاومة فرت ليلا وتركت القلعة خالية ليحتلها الصليبيون فى الصباح التالى (١) وترك وليم جوردان بعرقه حامية من الصليبيين وعاد الى طرابلس ليواصل الحصار وكله أمل فى أن يتم فتح طرابلس على يديه .

وفى تلك الأثناء كان أهل تولوز فى فرنسا قد علموا بأن أميرهم ريموند قد أنجب لهم ابنا شرعيا وهو الفونسو جوردان فأرسلوا فى استدعائه من الشرق ليتولى أمر ارثه الشرعى . ووافقت أمه الكونتيسه الفيرا على ذهابه الى فرنسا لأنها فضلت له أن يرث الاملاك الخصبة بجنوب فرنسا على امارته المضطربة والتى لم تتكون بعد فى الشرق . فوصلت الفيرا مع ابنها الفونس جوردان الى تولوز (٢) سنة ١١٠٨ م ، وهناك تم الاتفاق بين ابنى ريموند — برتراند وألفونسو جوردان — على أن يتنازل برتراند عن املاك ابيه فى أوربا ويتخلى الفونسو جوردان عن كل ماله من ارض فى الشرق . وبعد ذلك سافر برتراند الى الشرق فى صيف ١١٠٨ م على رأس أربعة آلاف فارس (٣) يحملهم أسطول قوى من أربعين سفينة (٤) ، ومعه ابنه الصغير بونز ، وكان برتراند عند خروجه من الغرب الى الشام مصمما على الاستيلاء على طرابلس فمر فى طريقه على جنوا حيث أجرى مباحثات مع الجنوية ليساعدوه فى الاستيلاء على طرابلس مقابل امتيازات تجارية يمنحها اياهم فى المدينة (٥) .

وفى ذلك الوقت نفسه كان وليم جوردان قد حاول هو الآخر أن يعقد اتفاقا مشابها مع الجنوية فأرسل الرسل الى جنوه . ولكن وجود برتراند بنفسه فى جنوا جعله يكسب البولة فتعهدت له جنوا بأن تساعده فى الحصول على تركة أبيه فى (٦) الشام من ناحية وفى الاستيلاء على طرابلس من الفاطميين من ناحية أخرى مقابل ما وعدها به من مركز تجارى ممتاز فى طرابلس (٧) .

---

(١) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ١ ص ٢٦٦

(٢) Runciman:op.cit.Vol.2-p. 65 .

(٣) Setton:op.cit. Vol.1 - p. 396 .

(٤) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ١ ص ٢٦٧ ،
Runciman:op.cit. Vol.2-p. 65 .

(٥) Grousset:op.cit. Vol.1 -p. 352 .

(٦) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ١ ص ٢٦٨

(٧) William of Tyre: op. cit.Vol. 1 - p. 475;Runciman:op. cit vol. 2 - p. 65 .

وهكذا أبحر برتراند صوب الشرق وصحبته اسطول جنوى فاتجه الى القسطنطينية حتى ليضمن تأييد الامبراطور الكسيوس صديق والده ومساندته له . وعندما وصل برتراند الى القسطنطينية رحب به الكسيوس ووعده بالمساعدة وفى مقابل ذلك أقسم برتراند يمين الولاء للامبراطور مجددا التحالف بين أمراء بروفانس فى الشرق والامبراطورية البيزنطية (١) .

وفى أول شعبان سنة ٥٠٢ هـ (١١٠٩م) (٢) وصل برتراند الى ميناء السويدية فى جملة ثمانين مركبا فى البحر (٣) مشحونة بالمقاتلة الافرنج والجنويين وسرعان ما جلب على نفسه عداء تانكرد لأنه طالبه بأن يعطيه نصيب أبيه فى انطاكيه الذى كان قد أخذه فى عام ١٠٩٨ م (٤) . فأجابه تانكرد بأنه مستعد للتفاهم معه بشأن هذا الموضوع ، اذا نهض برتراند لمساعدته فى الحملة التى أوشك على توجيهها لاستيلاء على المصيصة ، والمدن البيزنطيه فى قيليقية (٥) .

وبالطبع لم تلق هذه المقترحات القبول من جانب برتراند بسبب يمين الولاء والتبعية الذى سبق أن اقسمه لألكسيوس .

فعرض على تانكرد أن يستولى له على جبله التى كان فخر الملك قد لجأ اليها ، ولكن تانكرد رفض وأصر على أن يتعاون معه برتراند فى الحملة الموجهه لقيليقيه .

ونتيجة لذلك أمر تانكرد برتراند بحزم أن يغادر امارته وألا تطأ قدمه بعد ذلك أرض امارة انطاكيه (٦) . كما أمر أهل انطاكيه ألا يبيعوا له المؤن

---

(١) سعيد عاشور : الحركة الصليبية جـ ١ ص ٢٦٨ ،
Grousset:op.cit.Vol.1-p.353.

(٢) يذكرها ابن الاثير فى الكامل جـ ١٠ ص ٤٧٥ فى حوادث سنة ٥٠٣ هـ والصيغة المثبتة من ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٦٣

(٣) سعيد عاشور : الحركة الصليبية جـ ١ ص ٢٦٨ ، بينما يذكر ابن القلانسى : الذيل ص ١٦٣ ، سبط بن الجوزى : مرآة الزمان جـ ٨ ص ٦١٧ ، أبو المحاسن جـ ٥ ص ١٧٩ أنه وصل فى ستين سفينة فقط ، بينما يذكر وليم الصورى أنه وصل فى سبعين سفينة .

(٤) William of Tyre:op.cit.vol. 1-p.476 ;Setton :op.cit. Vol.1 - p. 397 .

(٥) Runciman:op.cit.Vol.2-p. 60,66

(٦) سعيد عاشور : الحركة الصليبية جـ ١ ص ٢٦٨
Alberti:Aquensis(Rec.Hist.Occid.) Vol.4 p.665.

والاقوات . وكان أن أبحر برتراند في اسطوله البروفنس الجنوى نحو أنطرطوس التي كانت في حوزة أحد أتباع وليم جوردان فبادر هذا التابع بالسماح لبرتراند بالدخول الى المدينة وأعطاه كل ما يلزمه من المؤن . وفي اليوم التالي بعث برتراند برسول الى مقر وليم جوردان بجبل الحاج يطلب ارث والده (١) . ولكن وليم رد عليه قائلا بأنه المالك لهذه البلاد والمدافع عنها طوال السنوات الأربع السابقة (٢) . ولولاه لضاعت تلك البلاد بين المسلمين من ناحية والنورمان في انطاكيه من ناحية أخرى ، هذا بالاضافة الى أنه ضاعف تلك التركة بالاستيلاء على عرقة وحصن عكار (٣) ولم يلبث وليم الذى كان خائفا من قوات برتراند الضخمة وخاصة الاسطول أن استغاث بأعداء برتراند وعلى رأسهم تانكرد ، فطلب وليم جوردان من تانكرد أن يتدخل لصالحه (٤) . ووعده أن يكون في مقابل ذلك تابعا له . ولكن هذا الاجراء من جانب وليم جوردان أجبر برتراند على أن يتخذ اجراءا مماثلا . فكتب الى بلدوين الاول ملك بيت المقدس يدعوه للحضور لمساعدته في النزاع القائم بينه وبين وليم جوردان ويخبره بتحالف وليم جوردان وتانكرد ضده لحرمانه من تركة ابيه . وأظهر برتراند استعداده للدخول في تبعية الملك بلدوين الأول بصفته الحاكم الأكبر بين الفرنج في الشرق . ولم يكن بلدوين الأول بالرجل الذى يترك تلك الفرصة تفلت من يده وهو الحريص على أن يجعل من مملكة بيت المقدس سلطة عليا تهيمن على جميع الامارات الصليبية ببلاد الشام ، لذلك أسرع بارسال رسولين الى تانكرد ووليم جوردان يخبرهما بأن برتراند تحت رعاية الملك بلدوين نفسه وحمايته ، ويحذرهما من القيام بأى عمل عدوانى ضده ثم اختتم الملك رسالته اليهما بدعوتهما الى الحضور لمقابلته أمام طرابلس للنظر في رد تركة ريموند الى ابنه برتراند (٥) . وكان بلدوين يرى في تلك الفرصة أنها سوف تمكنه من انهاء الخلافات بين كل الفرنجه وسوف تمكنه من توحيد قواتهم تحت قيادة مملكة بيت المقدس (٦) ، ولذلك حضر بلدوين على الفور على رأس خمسمائة فارس والتقى ببرتراند الذى أقسم له يمين الولاء

---

(١) William of Tyre:op.cit.Vol.1-p.476;Runciman:op.cit. vol.2 - p. 66 .

(٢) Setton:op.cit. Vol.1-p. 377 .

(٣) سعيد عاشور : الحركة الصليبية جـ ١ ص ٣٦٩

(٤) ابن الأثير : الكامل جـ ١٠ ص ٤٧٥ حوادث سنة ٥٠٢ هـ ، ابن القلانسى : الذيل ص ١٦٣ ، Grousset:op.cit.Vol.1.p.p.353,354.

(٥) سعيد عاشور : الحركة الصليبية جـ ١ ص ٣٦٩ ، ٣٧٠

(٦) Setton:op.cit.Vol.1 - p. 397 .

وفي تلك الأثناء غادر وليم جوردان جبل الحاج واحتل من جديد أنطرطوس حيث انتظر قدوم تانكرد . ولم يكد تانكرد يصل اليه حتى زارهما رسولا الملك بلدوين ، بوستاس جارفيه ، وباجان صاحب حيفا (١) ، وكان تانكرد يشعر بأنه غير مدين بالتبعية للملك بلدوين ، لذلك فان بلدوين استدعاه بالاسم الأعلى لدولة أورشليم (٢) . واراد وليم جوردان أن يستحث تانكرد على القتال ، ولكن تانكرد أدرك أن التعدي ليس اجراء عمليا (٣) وصحبه الى طرابلس حيث انضم بهما بعد قليل بلدوين دي بورج أمير الرها (٤) .

وفي يونيه سنة ١١٠٠ م اجتمع خارج أسوار طرابلس في قلعة صنجيل كل أمراء الصليبيين بالشرق ، اذ حضر برتراند بجيشه ، وقدم الملك بلدوين من الجنوب بجيشه ، وجاء تانكرد في سبعمائة من خيرة الفرسان ، أما بلدوين كونت الرها وجوسلين فقد قدما في حرسيهما (٥) .

وكان هناك حزبان يواجه كل منهما الآخر . ففي الجانب الأول كان يوجد الملك بلدوين الاول وبرتراند وبلدوين لي بورج ، وجوسلين ، وفي الجانب الآخر كان يوجد تانكرد ووليم جوردان بقليل من الأتباع .

وهناك تم للملك بلدوين النصر الشخصي العظيم وذلك بجلوسه في مركز العدالة وسماعه لدعاوى كل من بلدوين لبرج ضد تانكرد ، وبرتراند ضد وليم جوردان (٦) . وبفضل جهود بلدوين ملك بيت المقدس تم الوفاق أولا بين تانكرد وبين بلدوين كونت الرها وجوسلين . وهو أن يكف تانكرد عن ادعاءاته في الرها ويعترف بردها لبلدوين لبرج قريب الملك بلدوين ، وفي مقابل ذلك يمنح الملك بلدوين لتانكرد اقطاعات في طبريه والناصرة وحيفا وقبة الصخرة المقدسة في أورشليم . وبذلك أصبح تانكرد تابعا للملك بلدوين بفضل هذه الاقطاعات ، وهذا يعني أنه اذا عاد بوهيمند الى انطاكيه فان في استطاعة تانكرد أن يسترد مكانه في امارة بيت المقدس التي تركها في سنة ١١٠١ م وبذلك تهيأ لتانكرد أن يستغني بالدخل الوارد من هذه الاقطاعات (٧) . أما ارث ريموند كونت ترلوز فقد تم الاتفاق على أن يحتفظ وليم جوردان بأنطرطوس وبما فتحه من البلاد مثل عرقه

---

(١) Runciman:op.cit.vol.2 -p.68

(٢) Setton: op.cit.Vol. 1-p. 397 .

(٣) Runciman:Vol.2-p. 68 سعيد عاشور : الحركة الصليبية جـ ١ ص ٣٧٠ ،

(٤) Grousset :op.cit.-Vol.1-p.p. 355,356 .

(٥) William of Tyre: op.cit.Vol.1-p. 477 .
Setton:op.cit. Vol.1 -p.p. 397, 398 .

(٦) Setton: op.cit. Vol. 1 -p.p. 397,398 .

(٧)

وأقسم وليم جوردان يمين التبعية لتانكرد (١) . وبذلك أصبح الجزء الشمالي من امارة طرابلس تحت نفوذ تانكرد . أما برتراند فقد حصل على الجزء المتبقي من ارث أبيه وهو قلعة صنجيل وجبيل علاوة على طرابلس عندما يتم الاستيلاء عليها (٢) . وأقسم برتراند يمين التبعية للملك بلدوين .

كذلك تقرر أنه في حالة وفاة أحد المطالبين بالارث دون ولد فان بلاده تؤول الى الآخر .

سقوط طرابلس في أيدي الصليبيين :

كان الوصول الى الصلح بين القادة الصليبيين ايذانا بنهوض وتضامن أمراء الفرنج للاستيلاء على طرابلس ، تلك المدينة التي ظلت تقاوم الحصار ست سنوات متواصلة . ولكن في تلك المرة لم يكن بوسع طرابلس ولا بوسع الوالي الفاطمي على طرابلس وهو شرف الدولة أن يقاوموا الصليبيين ، فالاسطول البروفنسي الجنوي يحاصرها من البحر ، وقطع المساعدة عنها من ناحية البحر ، بينما فرسان بلدوين صاحب مملكة بيت المقدس ، وبرتراند بن ريموند الصنجيل ، وتانكرد صاحب انطاكيه وبلدوين ليبرج كانوا يحاصرونها بجموعهم وحشودهم من البر وذلك منذ أول شعبان سنة ٥٠٢ هـ (١١٠٨م) (٣) . فالصليبيون يزدادون قوة يوما بعد يوم ، بينما أهل طرابلس تزداد حالتهم سوءا (٤) ، فألصقوا أبراجهم بسورها ، فلما رأى الجند وأهل البلد ذلك سقط في أيديهم . وكان الوالي الفاطمي شرف الدولة قد كتب منذ شهور مضت الى مصر يستنجدون وزيرها الأفضل ويسألونه أن يمدهم بالاقوات والمؤن ، ولكن الحكومة الفاطمية لم تتخذ اجراءا سريعا عندئذ لتموين طرابلس وتزويدها بالرجال والسلاح (٥) ، وتحت الحاح شرف الدولة أعدت الدولة الفاطمية أسطولا ضخما تألف من حمالات لنقل الجنود وسفن للمؤن

---

(١) William of Tyre:Vol.1-p.477;Runciman:Vol.2-p.68 .

(٢) سعيد عاشور : الحركة الصليبية جـ ١ ص ٢٧٠ William of Tyro:op.cit Vol.1-p.477. ابن الاثير : الكامل جـ ١٠ ص ٢٧٥ حوادث سنة ٥٠٢ هـ ، ابن القلانسي : الذيل ص ١٦٢ ، Runciman:op.cit.Vol.2-p.68 . Grousset:op.set.Vol.1 p. 356 ,Setton:op.cit.Vol.1-p.398

(٣) ابن الأثير : الكامل جـ ١٠ ص ٢٧٥ يذكرها في حوادث سنة ٥٠٣هـ ، ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٦٣ ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ١٧٩

(٤) William of Tyre: op.cit. Vol.1-p.478 .

(٥) سعيد عاشور : الحركة الصليبية جـ ١ ص ٢٧١ Runciman:op.cit.Vol.2-p. 68.

(٦)

وكان سبب تأخره أنه فرغ منه وألحت عليه ، واختلفوا فيه أكثر من سنة[1] . وكان كلما سار الاسطول نحوهم ردته الريح الى مصر .

وأخيرا بعد أن هدأت الرياح وبعد أن استطاع الافضل تسوية المنازعات اقلعت السفن الفاطمية بعد أن تضاءل عددها . ولكن الوقت كان قد فات اذ لم تكد تصل الى مياه طرابلس حتى وجدوا البلد قد أخذت . ذلك أن أهل طرابلس عندما ضاق بهم الحصار عقدوا مجلسا فيما بينهم اتفقوا فيه على ارسال رسالة الى الملك بلدوين بشروط التسليم[2] . فأرسل شرف الدولة الى الملك بلدوين يعرض شروط التسليم ، وطلب الأمان لكل من أراد أن يغادر المدينة من سكانها بما يحمل من متاع . ومن أراد منهم البقاء يعتبر من رعايا الفرنج ويحتفظ بأملاكه على أن يؤدي ضريبة سنوية ، وطلب لنفسه الاذن بالرحيل مع عساكره الى دمشق . فلما ملكت أطلقوا ووصلوا الى دمشق بعد أيام[3] من فتحها . وهكذا استسلمت مدينة طرابلس[4] في ١٢ يوليو سنة ١١٠٩ م الموافق يوم الاثنين ١١ ذي الحجة سنة ٥٠٢ هـ[5] والتزم بلدوين بالاتفاق الذي عقده مع شرف الدولة فلم يتعرض للنهب والتخريب ما كان بيده من المناطق[6] .

---

(١) ابن الأثير : الكامل جـ ١٠ ص ٤٧٥ ، ٤٧٦ حوادث سنة ٥٠٢ هـ

(٢) William of Tyre:op.cit.Vol.p.478.

(٣) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٦٢ ، William of Tyre:op.cit. Vol.1-p.478 ; Runciman:op.cit.Vol.2p.69

(٤) Alberti Aquensis:(Rec.Hist.Occid.)Vol.4pp. 667,668; Sotton:op.cit.Vol.1.p.398;William of Tyre:op.cit.Vol.1 p. 478;Runciman:op.cit.Vol.2-p. 69;Grousset:op.cit. Vol.2. -P.358 . سعيد عاشور : الحركة الصليبية جـ ١ ص ٣٧٢

(٥) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ١٧٩ ، ابن القلانسي : الذيل ص ١٦٣ ، ابن ظافر : أخبار الدول المنقطعة ورقة ٧٦ ، أبو الفدا : المختصر في أخبار البشر جـ ٢ ص ٢٢٤ ، سبط بن الجوزي : مرآة الزمان جـ ٨ ص ١٧ ، ابن أيبك الدواداري : كنز الدرر جـ ٦ ص ٤٧٢ .

بينما يذكرها ابن الأثير في حوادث سنة ٥٠٣ هـ ، وكذلك ابن الجوزي : المنتظم في تاريخ الملوك والأمم جـ ٧ ق ٢ ص ٤١٨ ، ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب في أخبار من ذهب جـ ٤ حوادث سنة ٥٠٣ هـ ، وكذلك اليافعي : مرآة الجنان وعبرة اليقظان جـ ٣ ص ١٧٢ .

وأكبر دليل على هذا التشكك في سنة سقوط طرابلس ما أورده العيني في كتابه عقد الجمان حوادث سنة ٥٠٢ هـ : " ومنها أن الفرنج أخذوا طرابلس في هذه السنة ، وقيل في السنة الآتية "

(٦) Runciman:op.cit . Vol. 2-p. 69.

أما الجنوية فانهم شقوا طريقهم الى داخل المدينة بعد أن تبين لهم هلوعها من وسائل الدفاع . فأخذوا ينهبون ما فيها من الأموال وأسروا الرجال وسبوا النساء والاطفال ، وغنموا من أهلها الاموال والأمتعة ، وكتب دور العلم الموقوفة ما لا يحد ولا يحصى ، فان أهلها كانوا من أكثر أهل البلاد اموالا وتجارة ولم تستطع السلطات كبح جماحهم الا بعد زمن غير قصير . وفي وسط هذه الفوضى اشتعلت النار بمكتبة بني عمّار التي تعتبر أروع المكتبات في العالم الاسلامي (١) . فحل الدمار بها وأمحى لها كل أثر .

وهنا أجد أنه من الواجب عليّ أن أقف قليلا لأبين عوامل سقوط طرابلس ، اذ ألقى أبو المحاسن تبعة سقوط طرابلس على الفاطميين فيقول : ومن هذا يظهر عدم اكتراث أهل مصر بالفرنج من كل وجه ، الأول من تقاعدهم عن المسير في هذه المدة الطويلة ، الثاني : ضعف العسكر الذي أرسلوه مع أسطول مصر ، ولو كان لعسكر الاسطول قوة لدفع الفرنج من البحر عن البلد على حسب الحال ، والثالث : لم لا خرج الوزير الأفضل بن أمير الجيوش بالعساكر المصرية كما كان فعل والده بدر الجمالي في أوائل الامر . هذا مع قوتهم من العساكر والاموال والأسلحة (٢) .

وفي الواقع أن الدولة الفاطمية كانت تعاني وقت دخول الصليبيين كما بيّنا فيما سبق الضعف السياسي والانقسامات المذهبية ، وأخذت منذ ظهور السلاجقة في الشام تفقد امتلاكها تدريجيا . ولو أن الفاطميين اتفقوا مع السلاجقة على دفع الخطر المشترك لكان من الممكن أن تفشل الحملة الصليبية الاولى ولكان من الصعب على الصليبيين أن يمروا من جبال طوروس الى الشام

وكانت الدولة الفاطمية قد بلغت في أيام الآمر بأحكام الله درجة كبيرة من الضعف والانحلال وأخذت تسير بخطى حثيثة نحو نهايتها المحتومة . فمن انقسامات مذهبية الى حروب داخلية ، وكان الآمر يتناهى في العظمة ويتقاعد عن الجهاد ولم ينهض لقتال الفرنج البتة (٣) ، بينما كان الأفضل مشغولا بمحاربة النزارية بعد أن فشلت قواته التي أرسلها الى عسقلان في مواجهة الصليبيين . وذكر النويري وابن الفرات أن السبب الذي دعا أهل طرابلس الى التسليم أنهم كانوا ينتظرون

---

(١) Hitti:op.cit.p.289;Grousset:op. cit. p.356;Runciman:op. cit.vol.2-p. 69 ;Michaud's Hist.of the Crusades Vol. 1-p. 288 .

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ١٧٩ ، ١٨٠ ، سعيد عاشور : الحركة الصليبية جـ ١ ص ٢٧١

(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ١٧٨

وصول النجدة بحرا من مصر جاءهم رسول منها على مركب يطلب منهم لاسم للخليفة الفاطمي جارية جميلة كانت في طرابلس وخشب مشمش يصلح لعمل عود وغيره من آلات الطرب ، واذا أقبلت الدولة كما قال أفلاطون : " خدمت الشهوات العقول ، واذا أدبرت خدمت العقول الشهوات "(١)

ولكننا يجب أن لا نلقي اللوم كله في سقوط طرابلس على الفاطميين ، بل يجب أن نشير لدور السلاجقة أيضا ، فعلى الرغم من مسير فخر الملك الى السلطان السلجوقي بنفسه كما بيّنا محملا بالهدايا الكثيرة للسلطان محمد وللخليفة العباسي المستظهر . وعلى الرغم من تعهده بأن يقوم بالانفاق على الجند فانه لم يجد منهم غير الكلمات المعسولة والسؤال عن حاله وما يعانيه في مجاهدة الكفار(٢) ويقاسيه من ركوب الخطوب في قتالهم(٣) . ولكنه لم يظفر بشيء من المعونة المنشودة وتقاعس السلطان السلجوقي عن نجدته ، بحجة اشتغال جيشه باخماد ثورة جاولي . ولذلك لا يمكن أن نغفل السلاجقة في تقاعسهم عن القتال مما أدى الى سقوط طرابلس في ايدي الصليبيين .

وبذلك تبين لنا أن استهتار الافضل بنجدة طرابلس وتلكؤه في ارسال المؤن وجهل الخليفة الفاطمي بحالة طرابلس السيئة لصغر سنه ، واستبداد الأفضل بأمور الدولة بالاضافة الى تقاعس السلاجقة ، كل ذلك كان من العوامل الرئيسية في سقوط المدينة .

ولم يكد يتم سقوط طرابلس حتى طالبت حكومة جنوا برتراند بثمن خدماتها فتقرر اتفاق بين الافرنج والجنويين على أن يكون للجنويين الثلث من البلد وما نهب منه والثلثان لريموند(٤) . كما منحهم حصنا يقع على بعد عشرة أميال جنوبي طرابلس(٥) . وبالاضافة الى ثلثي مدينة جبيل الباقية فأصبحوا بذلك يمتلكونها كلها

---

(١) كرد علي : خطط الشام جـ ١ ص ٢٩٢ ، ابن القرات : تاريخ ابن الفرات جـ ٨ ص ٧٨ ، ٧٩

(٢) ابن الاثير : الكامل جـ ١٠ ص ٤٥٣ حوادث سنة ٥٠١ هـ

(٣) سعيد عاشور : الحركة الصليبية جـ ١ ص ٢٦٤

(٤) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٦٢ ، Setton:op.cit.Vol.1-p.398

(٥) J.Richard:op.cit. p. 74 .

توحيد امارة طرابلس :

وبعد أن تم احتلال مدينة طرابلس وعاد الأمن الى حالته الطبيعية أصبح برتراند أميرا على طرابلس واتخذ لقب كونت ، وأكد تبعيته لمملكة بيت المقدس ، وفي نفس الوقت تناسى وعوده السريعة للامبراطور البيزنطي (١) . والملاحظ أن امارة طرابلس ولدت ممزقة ، وأخذت تعاني من ذلك التمزق ما لم تعانيه امارة أخرى من الامارات الصليبية ببلاد الشام ، لأن معنى استيلاء برتراند على مدينة طرابلس ، واستيلاء وليم جوردان على أنطرطوس وعرقة هو تقطيع اوصال الاقليم الواحد ، مع ما ينتج عن ذلك من ضعف وحزازات ، هذا الى أن اختلاف اتجاهات الحاكمين وتوزع ولائهما توزيعا متضادا زاد من حدة الفرقة والانقسام . اذ بينما اعترف برتراند أمير طرابلس بالتبعية لملك بيت المقدس اذا بوليم جوردان صاحب أنطرطوس وعرقة يقدم ولائه لامير انطاكيه وجميع تلك الظواهر وغيرها كانت بدون شك لا تبشر بخير ، وأنذرت بالصدام بين الرجلين اللذين اقتسما املاك بيت ريموند الصنجيل في الشرق (٢) .

ولكن شاء حسن حظ الامارة أن لا يطول انتظار برتراند للاستحواذ على كل ما ترك والده بالشرق من ارث اذ أن وليم جوردان صرعه سهم طائش قبل أن يغادر جبيل الفرنج طرابلس ، وقيل أن هذا السهم كان بتحريض من برتراند (٣) ، ولكن لا يوجد دليل كاف يؤيد هذا الرأي . ومهما يكن من أمر فقد أسرع برتراند فاستولى على كل املاك وليم جوردان ، وبذلك ضم برتراند جميع الممتلكات البروفنسالية في الشام تحت سيادته وانتقلت بذلك تبعية املاك وليم جوردان من تبعية تانكرد الذي قامر على الحصان الخاسر ، الى تبعية الملك بلدوين (٤) .

وبذلك لم يعد لتانكرد نفوذ اطلاقا في امارة طرابلس الجديدة بعد مقتل

---

(١) سعيد عاشور : الحركة الصليبية جـ ١ ص ٢٧٤ ،
Runciman:op.cit. Vol.2- p. 69 .

(٢) سعيد عاشور : الحركة الصليبية جـ ١ ص ٢٧٤

(٣) J.Richard : op.cit.p. 5

(٤) Setton:op.cit.vol. 1-p.398 .
ويشير ابن القلانسي الى أن مقتل وليم جوردان قد تم قبل افتتاح طرابلس فيقول بعد أن أصلح بلدوين بينهم عاد السردانى (وليم جوردان) الى عرقة ووجد بعض الافرنج في زرعها فأراد ضربه فضربه الافرنجي فقتله
ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٦٣

حليفه ، كما حقق بذلك برتراند بن ريموند ما كان يطمع فيه أبوه من انشاء امـــارة بالشرق ، ولكن هذه الامارة " طرابلس " لم تبلغ من الضخامة ما كان يتصوره ريمونـد ، فان أراضى " حمـص " لم تدخل فى نطاقها ، وبدلا من اعترافها بسيادة امبراطـور بيزنطـه الذى يقيم بعيدا عنها اتخذت سيدا لها يقيم فى بيت المقدس قريبـــا منهـــا (١) . وقد اشتهرت هذه الامارة بثروتها ورخائها وبفضل ما اشتهرت بـــه من الثروة ، والموقـع ، بأن ربطت بين الفرنج بشمال الشام ، والفرنج ببيت المقدس ، قامت بدور جوهرى فى تاريخ الحروب الصليبيـة .

استئصال مراكز المقاومـة حـول طرابلـــس :

ولا يفوتـنى قبل ان انهى ذلك الفصل أن أتكلم قليـلا عن استئصال الصليبيين لمراكز المقاومـة حول طرابلس .

وكان أول هذه المراكز بانياس ، التى استولى عليها تانكرد الذى وجد نفســه لم ينل ما اراده من نصرة السردانى " وليم جـوردان " (٢) ، ففى طريق عودته مـــن طرابلس سار تانكرد صاحب انطاكيـه الى بانياس فحصرها وافتتحهـــا (٣) ولم يجـــد أسلمها سوى مقاومـة ضعيفـة مما جعل تانكرد لا يتعرض لأرواح أهاليهـــا (٤) .

ومما لا شك فيه أن سقوط طرابلس فى ايدى الصليبيين أحدث رد فعل عنيـــف فى بلاد الشام فقد انهارت له مقاومة المسلمين فى كثير من المدن الساحلية ، ويبدو أن تانكرد استغل هذه الاضطرابـات ورد الفعل فنزل على جبله وفيها فخر الملك ابن عمّار الذى كان صاحب طرابلس كما سبق أن بيّنـا وكانت الاقوات فيها قليـلة ، ولم تستطع جبـلة هى الأخرى أن تقاوم حصارا طويـلا (٥) ، فتسلمها بالامان فى يـــوم الجمعة الثانى والعشرين من ذى الحجة سنة ٥٠٢ هـ يوليو سنة ١١٠٩م (٦) . وخرج

---

(١) Grousset: op.cit. Vol. 1 -p. 358 .

(٢) الصينى : عقد الجمان حوادث سنة ٥٠٢ هـ ، ابن القلانسى : الذيل ص ١٦٣

(٣) ابن الاثير : الكامل جـ ١٠ ص ٤٧٦ حوادث سنة ٥٠٣ هـ ، ذكر كرد علـى أن السردانى " وليم جوردان " هو الذى افتتح حصن بانياس وجبـل كرد على : خطط الشام جـ ١ ص ٢٩٢ .

(٤) النويرى : نهاية الأرب جـ ٢٦ ص ٧٩ ، اليافعى : مرآة الجنان جـ ٣ ص ١٧٣ ، سعيد عاشور : الحركة الصليبية جـ ١ ص ٣٧٥

(٥) ابن القلانسى : الذيل ص ١٦٤ ، سبط بن الجوزى : مرآة الزمان جـ ٨ ص ١٧ ، ابن الأثير : الكامل جـ ١٠ ص ٤٧٦ حوادث سنة ٥٠٣ هـ ، الصينى : عقد الجمان حوادث سنة ٥٠٢ هـ

Setton:op. cit. Vol. 1-p. 398 .

منها ابن عمار سالما الى شيزر فأكرمه صاحبها الامير سلطان بن على بن منقذ الكناني واحترمه وسأله أن يقيم عنده فلم يفعل وسار الى دمشق حيث أشفق عليه طغتكين ، فأكرمه وانزله في دار وأقطعه الذبداني وأعمالها في المحرم سنة ٥٠٣هـ (١١٠٩م) . وكان لابن عمار البلاء الحسن في دفع عادية الصليبيين عن بلده ولم يترك بابا من أبواب الخداع ليصدهم عن طرابلس الا طرقه حتى دفع بعقله وحسن ادارته عن تملكها عشر سنين(٢) . وهكذا أصبحت بانياس وجبله اجزاء من امارة انطاكيه الصليبية ونشط برتراند من جهته فزحف بجنود الصليبيين الى رفنيه شرقي أنطرطوس وحاصرها ، فخرج طغتكين للدفاع عنها واكتفى مؤقتا بأن عسكر قرب حمص لمراقبة الامور(٣) ، فلم يتمكن الافرنج من منازلتها ومضايقتها وانتهى الموقف بعقد اتفاق ودي بين طغتكين والصليبيين فاشترطوا أن يكون لهم الثلث من استغلال اقليم البقاع وأن يسلم اليهم حصني المنيطرة وابن عكار ، وأن يكون حصن مصياث وحصن الطوفان وحصن الأكراد داخلا في شروط الموادعة ويحمل اهلها عنها مالا معينا في كل سنة الى الافرنج(٤) . على أن الصليبيين لم يحافظوا على كلمتهم مدة طويلة اذ لم يلبث تانكرد صاحب انطاكيه أن استولى على حصن الاكراد سنة ١١١٠م اثناء قيامه بغارة على شيزر ، ومن الواضح أن حصن الاكراد بحكم موقعه كان يجب أن يتبع امارة طرابلس لا أنطاكيه(٥) . لذلك نجد تانكرد يعطيه لأمير بونز بن برتراند الذي خلف أباه سنة ١١١٣م ، وذلك بسبب تحسن العلاقات بين انطاكيه وطرابلس في عهد بونز وظل حصن الأكراد تابعا لكونتيه طرابلس الى أن منحه كونت طرابلس في سنة ١١٤٢م الى الفرسان الأسبتاريه(٦) .

وبعد قليل - سنة ١١١٠م - استولى الصليبيون على بيروت من المسلمين وبذلك أصبحت طرابلس في مأمن من المسلمين الى حد كبير .

وهكذا تكونت كونتيه طرابلس الصليبية ، وأصبحت تمتد على شريط ساحلي يزيد اتساعه في الشمال عنه في الجنوب ، ويقع بين البحر وجبال لبنان ، وتميزت

---

(١) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٦٥
(٢) كرد علي : خطط الشام جـ ١ ص ٢٩٣
(٣) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٦٥
(٤) المرجع السابق ، نفس الصفحة ، كرد علي : خطط الشام جـ ١ ص ٢٩٤
(٥) سعيد عاشور : الحركة الصليبية جـ ١ ص ٣٧٦
(٦) King : The knights Hospitallers in the Holy land. p. 36 .

الكونتيه بوجود منفذ أو معبر يعرف بمنفذ حمص يتجه من الغرب الى الشرق ويقع بين جبال لبنان المرتفعة وجبال النصيرية التى ترتفع على مسافة قصيرة من الساحل الشرقى لحوض البحر المتوسط ، ويربط هذا المنفذ المنطقة الساحلية بداخلية بلاد الشام عن طريق وادى العاصى ، وتتألف المنطقة الساحلية من سهول ساحلية ضيقة على مصبات الانهار وهى سهل مرقية فى الشمال ، وسهل جبيل فى الجنوب (١) .

هذا بالاضافة الى السهل الذى تكون بفضل رواسب النهر الكبير والذى قامت فيه مدينتا عرقه وأنطرطوس .

وعلى هذا النحو كانت حدود كونتيه طرابلس بوجه عام تمتد من قلعة المرقب شمالا الى جبيل جنوبا ، ومن وادى العاصى شرقا الى الساحل غربا .

* * *

(١) J.Richard: op.cit. -p. 1 .

الفصل الثالث

امارة طرابلس وعلاقتها بالقوى الاسلامية

أهم نقاط الفصل الثالث : -

* السلاجقة وطرابلس
* البيت الزنكي وطرابلس
* صلاح الدين وطرابلس
* دمشق والحشيشية وطرابلس

تمهيـــــد :

بعد اتمام فتح طرابلس ، استقر بها برتراند وتلقب بلقب كونت طرابلـــس . ولمدة سنوات بعد استيلاء الفرنج على طرابلس فان تاريخ الامارات الصليبيـــة الاربع يميـل الى السير في طريق واحد (١) .

وقد حدث بعد اتمام فتح طرابلس أن شن برتراند هجوما على رفنيـــه — شرقي انطرطوس — بقصد فتحهـا ، وعرف ظهير الدين طغتكين ذلك من قصدهـم فنهض في العسكر نحوهـا لحمايتها وخيم بازائهم بحمص فلم يتمكن الافرنـج من منازلتهـا ومضايقتهـا (٢) ، وترددت بينهم وبين طغتكين الرسل ، حتى انتهى الامر بالاتفاق على تقرير الموادعـة على الاعمـال والمسالمة ، كما تقـرر أن ينسحب برتراند بقواته ويستولي على ثلث دخل البقاع فضلا عن حصني المنيطـرة الذي يسيطر على الطريق الموصـل بين بعلبك وجبيـل ، وحصن ابن عكار الـذي يشرف على الطريق الموصـل بين عرقـة وحمص (٣) . وتعهد برتراند أمير طرابلس في مقابل ذلك أن يكف عن العبث والفساد في الاعمال والاطراف وأن يدخل حصـن مصياث وحصن الطوفان وحصن الاكراد في شروط الموادعـة (٤) ، على أن يقـدم أهل هذه الحصـون الى برترانـد قدرا معينـا من المال .

على أن تنكرد لم يلبث أن استولى على حصن الاكراد أثناء غارته على شـيزر فتسلمه من أهـله (٥) . والواقع أن حصن الاكراد بحكم موقعه كان يجب أن يتبـع امارة طرابلس لا انطاكيـه ، ولذلك لم يلبث ان تخلى تنكرد عنه للامير بونز الـذي خلف أبـاه برتراند في حكم طرابلس سنة ١١١٢ م ومنذ هذه السنة ظل حصـن الاكراد تابعا لامارة طرابلس الى أن منحه كونت طرابلس ريموند الثاني في سنـة ١١٤٢ م للفرسـان الاسبتاريـة (٦) .

---

(١) Setton: op. cit. Vol. I p. 399

(٢) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٦٥

(٣) سعيد عاشور : الحركة الصليبية جـ ١ ص ٣٧٦ ، كرد علي : خطط الشـام جـ ١ ص ٢٩٤ .

(٤) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٦٥ ، العيني : عقد الجمـان حوادث سنة ٥٠٢ هـ

(٥) ابن القلانسي : نفس المرجع ص ١٦٧

(٦) سعيد عاشور : الحركة الصليبية جـ ١ ص ٣٧٦ .

وفى أوائل سنة ١١١٠م (٥٠٣ هـ) أرسل برتراند من قبله رجالا لمساعدة بلدوين فى هجومه على بيروت (١)، وسار جوسلين صاحب تل باشر الى ثغر بيروت لمعاونة النازلين عليه من الفرنج (٢)، واشتركوا جميعا فى حصار بيروت وعمل الصليبيون برجا ونصبوه على سور بيروت فلما أتموا صنعه زحفوا به، ولكن أهل بيروت قذفوه بحجارة المجانيق، فأفسد وعندئذ شرع الصليبيون فى عمل غيره، كما قام برتراند بعمل برج آخر. وفى ذلك الوقت وصل من مصر أسطول قوامه ١٩ سفينة حربية، وتغلب الاسطول الفاطمى على مراكب الفرنج واستولى على بعضها، وبذلك تمكنوا من انجاد اهل بيروت بالميرة والعدة فقويت نفوسهم على القتال. وكان ان انقذ بلدوين الى السويدية يستنجد بمن فيها من الجنوية فقدم منهم عدد كبير فى اربعين سفينة فزحف الصليبيون برا وبحرا فى يوم الجمعة العشرين من شوال سنة ٥٠٣ هـ (١١٠٩م) ونصبوا على السور برجين، ولما اشتد اليأس بحاكم المدينة (الأمير شجاع الدولة) من قدوم مساعدة أخرى هرب الى قبرس فسقطت المدينة فى ١٣ مايو سنة ١١١٠ م (٥٠٣ هـ) (٣)

طرابلس والسلجقة :

أما عن المشرق فان سلجقة العراق اهتزوا لنبأ سقوط طرابلس فى قبضة الصليبيين وكانوا عازمين على الاتحاد ليأخذوا زمام المبادرة بالهجوم (٤) وكانت الدولة السلجوقية قد خضعت جميعها للسلطان محمد السلجوقى بعد وفاة اخيه بركياروق فى ربيع الآخر سنة ٤٩٨ هـ يناير (١١٠٥م) (٥).

وفى سنة ١١١٠ م أمر السلطان محمد السلجوقى أمراءه بشن هجوم ضد الرها ومضايقتها (٦)، فاستعان مودود أتابك الموصل بجيرانه من الترك

---

(١) Runciman : op. cit. Vol. 2 p. 92 .

(٢) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٦٧

(٣) احمد السلجوقى : مختصر التواريخ حوادث سنة ٥٠٣ هـ، ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٦٧. William of Tyre:Vol.I p. 484.

(٤) Setton : op. cit. Vol. I p. 399

(٥) البندارى : تاريخ دولة آل سلجوق ص ٨٢، ٨٣

(٦) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٦٩

والاكراد مثل أدراء ميافارقين واربل وغيرهما وحاصر الجميع الرهـا في ابريل وظـل الحصار الى مايـو سنة ١١١٠ م (١)

وما أن علم بلدوين الثاني د ى بورج امير الرها بحشد تلك القوات الاسلاميـة الضخمـة حتى ارسل جوسلين د ى كورتناى الى فلسطين للاستنجاد بالملـك بلدوين الاول الذى لم يستطع الحضور على عجل لانه كان يحاصر بيروت وأوشكت المدينة أن تسقط في يده عندما بلغـه استغاثـة بلدوين د ى بورج . وما كاد بلدويـن الاول يستولى على بيروت في مايـو سنة ١١١٠ م حتى جمع قواته واتجه صـوب الرهـا وصحبته برتراند امير طرابلس على رأس فرسانـه (٢) .

وعندما اقترب الصليبيـون من الرها رفع مودود الحصار عن المدينة واتجـه صوب حـران ليستدرج الفرنج ويعبروا الفرات (٣) . وهناك انضم اليه طغتكـين على رأس قوات دمشق . فرأى الملك بلدوين أن يقوم الصليبيون بعمل جامع ضـد تلك الحشـود التركيـة ، لذلك استدعى الملك بلدوين تنكرد رسميا ليلحق ببقيـة الفرنج ، وكانت هذه التجمعـات الصليبيـة يجمعها شيئـان ، العاطفة الصليبيـة والوحدة القويـة المتعصبـة . وكان في استطاعة الصليبيين بعد أن وحـدوا صفوفهـم وبلغت اعدادهـم ٢٥ ألف مقاتل (٤) أن يلاحقـوا المسلمين عند حـران وأن ينزلوا ضربتهم بالاتراك قبل أن يتمكنوا من تنفيذ خطتهم لولا ظهور الاحقاد القديمة بين زعمـاء الصليبيين (٥) . لذلك انسحب تنكرد الى سمساط ، ولم يستطع الحلفـاء الآخرون البقاء طويـلا بعيدا عن بلادهـم فاستعدوا للرحيـل والعودة الـى اماراتهم خصوصـا وقد جاءت الاخبار الى الملك بلدوين بخطورة هجمات الفاطميين على مملكـة بيت المقدس .

ولم يعد امام بلدوين متسع من الوقت ليوفق بين امراء الصليبيين مرة أخـرى فعبر الصليبيـون الفرات بعد أن دعموا مدينـة الرها بالمؤن والرجال وحـددوا الاماكن الـتي يحتشد فيها المسيحيون ليسهل الدفاع عنها وجعلوا فيها كـل

---

(١) Grousset : op. cit. Vol. I p. 459

(٢) سعيد عاشور : الحركة الصليبية جـ ١ ص ٤٥٦ ، ٤٥٧

(٣) ابن الاثير : الكامل جـ ١٠ ص ٤٨٥ ، ٤٨٦ حوادث سنة ٥٠٥ هـ ، ابن القلانسى : الذيل ص ١٦٩ ، ابن العديم : زبدة الحلب ص ١٥٤ ، ١٥٥

(٤) Sotton : op. cit. Vol. I p. 399 .

(٥) سعيد عاشور : الحركة الصليبية جـ ١ ص ٤٥٨

ما يحتاجون اليه (١) وكان ذلك في عام ١١١٠ م ولكن حدث في عام ١١١١ م (٥٠٤ هـ) أن ظهرت حركة في العالم الاسلامي للتحرر من خطر الفرنج ، فان تجار حلب سار منهم جماعة الى بغداد فاستغاثوا ومنعوا الناس من الصلاة (٢). وحينئذ اهتم السلطان والخليفة بهذا الامر ، وصدرت الاوامر بالاستعداد لحملة كبيرة لحرب الصليبيين . واجتمع تحت قيادة مودود حاكم الموصل جمع من حكام الاقاليم في دولة السلاجقة مثل سكمان القطبي صاحب خلاط وتبريز وبعض ديار بكر والاميران ايلنكي وزنكي ابنا برسق — وكانا يحكمان همذان وخوزستان والامير احمد بك (احمد يل) صاحب مراغه في أذربيجان ... وغيرهم وكوتب الامير أبو الهيجاء صاحب اربل ، والامير مودود ، فاجتمعوا ما عدا الامير ايلغازي فانه سير ولده اياز وأقام هو . فلما اجتمعوا ساروا الى بلد سنجار (٣) ، واتجهوا لمهاجمة الرها معقل الصليبيين ، فاستحصنت عليهم لوجود بلدوين الأول ملك بيت المقدس بها فانصرف مودود عنها الى غواحيها ومال بمن معه الى تل باشر (٤) ، على أن جوسلين صاحب تل باشر أنفذ الى الامير احمد يل الكردي يلاطفه بمال وهدية . وكان اكثر العسكر مع احمد يل (٥) فأبى مواصلة الحصار وارتحل عن الحصن لنجدة حلب التي كادت أن تسقط في يد تانكرد ، ويبدو أن مودود وحلفاءه لم يجدوا من رضوان امير حلب ترحيبا فانه اغلق أمام مودود ابواب حلب لانه كان يخاف من أن يطمع فيها من امراء شمال العراق وغش خاطرهم اكثر من خشيته تانكرد (٦) . والواقع أن رضوان لم يظهر أي اهتمام أو حماسة لفكرة الحرب الكبرى أو للوحدة الاسلامية .

على أن مقدم مودود الى حلب — وان لم يؤد الى نتيجة ما — كان نقطة انتقال في تاريخ حركة الافاقة الاسلامية ، اذ تطلع مودود لمهاجمة الصليبيين بالشام ذاتها ، والى تفكيره في القطع بينهم وبين الرها ، وبذلك انتقل مسرح النضال بين زعماء حركة الافاقة الاسلامية وبين الصليبيين الى أرض الشام ، ومن ثم أخذ مودود في التقرب الى بعض الامراء الشاميين من المسلمين فانعقدت المودة بينه وبين طغتكين أتابك دمشق ، واتفق رأيهما على مهاجمة الصليبيين

---

(١) ابن الاثير : الكامل ج ١٠ ص ٤٨٦ حوادث سنة ٥٠٥ هـ
(٢) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٧٣
(٣) ابن الاثير : الكامل ج ١٠ ص ٤٨٥ حوادث سنة ٥٠٥ هـ
(٤) حسن حبشي : نور الدين والصليبيين ص ١٥ ، ١٦
(٥) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٧٥
(٦) Setton : op. cit. Vol.I p. 400 .

في طرابلس ووعدهما سلطان بن منقذ أمير شيزر بالمساعدة .

وهكذا ظهرت بادرة من الاتحاد بين الامراء المسلمين بشمال العراق وبلاد الشام لأول مرة منذ مقدم الصليبيين الى الشرق (١) .

وكانت طرابلس هي المنفذ البحري الطبيعي لدمشق (٢) . ولكن هذه الحملة التي هاجمت طرابلس سنة ١١١١ م لم تستطع تحقيق شيء ما لحلول فصل الشتاء (٣) . هذا الا أن مودود وحلفاءه من امراء شمال العراق ، كانوا متعبين من طول الطريق فتكاسلوا عن المضي الى طرابلس وعادوا الى بلادهم . وكان الامير برسق قد اشتد به المرض واعلن الرغبة في العودة ، في حين كان سكمان القطبي توفي فجأة عند بالس وعاد جنده بجثمانه وانسحب احمد بك الكردي مسرعا ليطلب من السلطان ليقطعه ما كان لسكمان من البلاد (٤) . وبذلك لم يبق الى جانب مودود سوى ايباز الارتقي بن ايلغازي فضلا عن طغتكين صاحب دمشق (٥) .

ولما عرف الافرنج رحيل العساكر وتفرقهم اجتمعوا ونزلوا أفاميه بأسرهم (٦) ، وعلى رأسهم بلدوين دي بورج أمير الرها وجوسلين دي كورتناي صاحب تل باشر ، وتانكرد أمير انطاكيه ، وبلدوين ملك بيت المقدس ومعه برترانـد أمير طرابلس (٧) .

واستقر الصليبيون امام افامية على الضفة الشرقية لنهر العاصي — في حين كان طغتكين ومودود على الضفة الغربية للنهر عند شيزر ، حيث اتجه سلطان ابن منقذ صاحب شيزر الى مودود وطغتكين ، وهوّن عليهما أمر الفرنج وحرضهما على الجهاد (٨) فرحلوا وقطعوا العاصي ونزلوا في قبلي شيزر (٩) عند قلعة الروج التي تقع على بعد ثلاثين ميلا جنوب انطاكيه أعلى وادي العاصي . وحدثت مناوشة بسيطة قرب شيزر ثم انسحب الطرفان بحذر الى اوطانهم (١٠) .

---

(١) حسن حبشي : نور الدين والصليبيين ص ١٦ ، ١٧٥ ، ابن القلانسي : الذيل ص ١٧٥ ، ١٨٤ ، ١٨٥

(٢) Setton : op. cit. Vol. I p. 400 .

(٣) حسن حبشي : الحرب الصليبية الاولى ص ١٧

(٤) ابن الاثير : الكامل جـ ١٠ ٤٨٧ حوادث سنة ٥٠٥ هـ

(٥) سعيد عاشور : الحركة الصليبية جـ ١ ص ٤١٤

(٦) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٧٧

(٧) Grousset : oP. cit. Vol. I p. 469 .

(٨) ابن الاثير : الكامل جـ ١٠ ص ٤٨٧ حوادث سنة ٥٠٥ هـ

(٩) ابن القلانسي : الذيل ص ١٧٧

(١٠) Setton: op. cit. Vol. I P. 400 .

واستحكمت المودة بين اتابك طغتكين وشرف الدين مودود (١) ورحل مودود بعد ذلك عن الشام (٢).

ويهمنا هنا أن نشير الى ما حدث في ذلك الدور من ترابط الصليبيين جميعا في بلاد الشام وتآلفهم من اطراف العراق وشمال الشام الى جنوب فلسطين (٣) تحت زعامة بلدوين الاول ملك بيت المقدس. وحتى علاقة العداء التقليدية بين طرابلس وانطاكيه أخذت تتبدل لتحل الصداقة محل العداء (٤)

وأخيرا نود أن نشير الى طموح برتراند ورغبته في توسيع نطاق كونتيته وعدم اكتفائه بالقسم الساحلي منها. على أن برتراند لم يلبث أن مات في ٣ يناير سنة ١١١٢ م (٥) الموافق الثاني من شعبان سنة ٥٠٥ هـ بعلة لحقته (٦).

بعد وفاة برتراند بن ريموند الصنجيل خلفه ابنه الصغير بونز الذي لم يتبع سياسة ابيه وجده في معاداة تانكرد، ويبدو أن العلاقات بين انطاكيه وطرابلس قد تحسنت بدرجة كبيرة منذ أواخر ايام برتراند والسبب في ذلك انه بعد موت بوهيمند في ايطاليا سنة ١١١١ م طالب الامبراطور الكسيوس مرة أخرى بانطاكيه من تانكرد وذلك تبعا لاتفاقية المنعقدة بين الكسيوس وبوهيمند سنة ١١٠٨ م ولكن تانكرد لم يستجب لمطالب الكسيوس ورفضها، وعندئذ أرسل الكسيوس رسولا وهو برتوميتس Butumites ليستميل برتراند والملك بلدوين في تحالف ضد تانكرد، وتمهل برتراند أمام هذه الفكرة، الا أن رفض الملك بلدوين كان حاسما وفاصلا بين الاثنين — برتراند والكسيوس (٧).

وكانت مثل هذه الخطة التي يريدها الكسيوس غير مناسبة ولا تتلاءم مع سياسة بلدوين تجاه وحدة الفرنج وتعاونهم. في حين أن هذه الخطة بالنسبة لبرتراند كانت تعني انهاء الشجار القديم منذ أيام والده ريموند مع النورمان في انطاكيه

---

(١) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان جـ ٨ ص ٢٢

(٢) حسن حبشي : نور الدين والصليبيين ص ١٧

(٣) Runciman : op. cit. Vol. 2 p. 123 .

(٤) Setton : op. cit. Vol. 1 p. 401 .

(٥) Setton : op. cit. Vol. I p. 401 ; J. Richard: op. cit. p6. ذكر ريشارد انه مات في يناير، ويقول جروسيه أن برتراند توفي في اوائل سنة ١١١٢ م بعد وفاة تانكرد مباشرة. Grousset: op. cit. Vol. I p. 889; William of Tyre: op. cit. Vol. I p. 492.

(٦) ابن القلانسي : الذيل ص ١٨١ (٧) Setton: Vol. I p. 400.

فضلا عن انهاء المكائد والدسائس مع الكبيوس . وكنتيجة لذلك فان امراء انطاكيه وطرابلس اعلنوا العداء ، ويبدو أن بلاط طرابلس رأى أنه لا بد من كسب رضى تانكرد اذا اراد الكونت الغائب أن يستقر في مركزه (١) . وقام الاوصياء على بونز بارساله الى انطاكيه ودبروا أمره مع تانكرد صاحب انطاكيه ، حيث تلقى تعاليم الفروسية وآدابها (٢) ، ويقال ان بونز تعلق في تلك الفترة بغرام سيسيل — زوجة تنكرد الشابة حتى اذا ما توفى تنكرد في ١٢ ديسمبر سنة ١١١٢ م فقد تزوج بونز من ارملة تنكرد الشابة سيسيل الفرنسية . واقطع تانكرد بونز انطرطوس وعافيشا ومرقيه وحصن الاكراد (٤) ، وبذلك بلغت كونتيه طرابلس في عهده اقصى اتساعها ولم يبذل الى حدودها النهائية وفي سنة ١١١٣ م دخل طغتكين اتابك دمشق في صراع مع الملك بلدوين الاول مما اثار الحزازات بين الاثنين (٥) . وكان طغتكين يقاسي من غارات الفرنج في بيت المقدس ، وكان بلدوين يتابع الغارات على اعمال دمشق ونهبه وخرابه (٦) . وعندئذ اتجه طغتكين نحو مودود اتابك الموصل وارسل اليه يشرح له الحال ويستنجده ويحثه على سرعة الوصول اليه (٧) ، وانتقل تميرك صاحب ستجار والامير ايلغازي بن ارتق صاحب ماردين ، وانضمت البيوت السلجوقية عند سلميه الى الجنوب الشرقي من حماه — ثم سار الى جنوب بحيرة طبرية عند الاقحوانه (٨) .

وكان الملك بلدوين في عكا عندما بلغه نبأ الحملة السلجوقية على اقليم طبريه (٩) فأرسل في الحال يطلب المساعدة من روجر الصقلي صاحب انطاكيه وبونز صاحب طرابلس (١٠) . ولكن بلدوين لم يشأ ان ينتظر وصولهما فتعجل في مهاجمة السلاجقة ولم يكد يصل بلدوين الى جسر الصنبرة — الى الجنوب الغربي من بحيرة طبرية — حتى وقع في كمين نصبه له مودود وطغتكين . وكان عدد جيش بلدوين حوالي سبعمائة فارس وأربعة آلاف من المشاه (١١) . فانهزم الفرنج على بعد ثلاث

---

(١) Runciman : op. cit. Vol. 2 p.p. 124-125 .
(٢) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٨١
(٣) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ١ ص ٣٧٧
(٤) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٨١
(٥) Grousset : op. cit.Vol. I p. 484
(٦) ابن الاثير : الكامل ج ١٠ ص ٤٩٥ حوادث سنة ٥٠٧ هـ
(٧) المرجع السابق : نفس الجزء والصفحة
(٨) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٨٥
(٩) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ١ ص ٣٢٠
(١٠) Setton : op. cit. Vol. I p. 402
(١١) Alberti Aquensis (Rec.Hist.Occid.)Vol.4 p. 694

كسرات (١) . ويقدر عدد القتلى من الفرنج بألفى رجل من الاعيان ، وكثر القتل فيهم والأسر . وممن أسر ملكهم بلدوين فلم يعرف فأخذ سلاحه ، وأطلق فنجا (٢) . وبعد انتهاء موقعة جسر الصنبرة فى يوم السبت الحادى عشر من المحرم سنة ٥٠٧ (٢٨ يونيه سنة ١١١٣ م) (٣) وصل فى اليوم نفسه بونز وروجرز الى طبريه ولاموا بلدوين على تسرعه ، ولكن النهاية لم تأت بعد ، فان القوة الصليبية الاقل فى العدد اتخذت لها على تل غرب طبرية مأوى وتحصنوا به لصعوبة مرتقاه (٤) . وبالرغم من الامان الذى حصلوا عليه الا انهم قاسوا من قلة المياه واقاموا به ستة وعشرين يوما ، والمسلمون بازائهم يرمونهم بالنشاب فيصيبون من يقرب منهم ، ومنعوا السيرة عنهم لعلهم يخرجون الى قتالهم ، فلم يخرج منهم احد (٥) . ولمدة شهرين اخذت حملات الاتراك تطوف المملكة الى ضواحى يافا وأورشليم نفسها . وقد ساعد الفلاحون العرب الاتراك على النهب والتخريب ، فخربوا المراكز الصليبية فى اقليم البلبل حتى وصلوا بيسان (٦) ونابلس (٧) ونهبوا بلاد الفرنج من عكا الى القدس وخربوها .

وزاد موقف الصليبيين سوءا عندما قامت حامية عسقلان بهجوم على بيت المقدس مستغلة سوء موقف الصليبيين قرب طبرية (٨) . ولم ينقذ الصليبيين من هذا الموقف السيء سوى وصول عدد من الحجاج الغربيين فى الصيف بلغ عددهم ستة عشر الفا (٩) مما بدل الموقف فجأة لصالح الصليبيين . وأذن الامير مودود للعساكر فى العود والاسراعة ، على أن يجتمعوا فى الربيع لمعاودة الغزاه . وتوجه طنتكين مع مودود الى دمشق (١٠) ، فدخل البلد يوم الجمعة فى ربيع الاول سنة ٥٠٧ هـ الموافق ٥ سبتمبر سنة ١١١٣ م (١١) فلقى مصرعه بيد احد الباطنية وقتل قاتله .

(١) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٨٥

(٢) ابن الاثير : الكامل ج ١٠ ص ٤٩٦ حوادث سنة ٥٠٧ ، ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٨٥

(٣) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ١ ص ٣٢١

(٤) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق : ص ١٨٥

(٥) ابن الاثير : الكامل ج ١٠ ص ٤٩٦ حوادث سنة ٥٠٧ هـ

(٦) Setton : op. cit. Vol. I p. 402

(٧) ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ص ٤٩٦ حوادث سنة ٥٠٧ هـ ، ابن القلانسى : الذيل ص ١٨٦

(٨) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ١ ص ٣٢١ ، ٣٢٢

(٩) Setton : op. cit. Vol. I p. 485 .

(١٠) ابن الاثير : الكامل ج ١٠ ص ٤٩٦ حوادث سنة ٥٠٧ هـ ، بينما ذكر ابن القلانسى انها يوم الجمعة الاخيرة من شهر ربيع الأول : ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٨٧

(١١) Grousset : op. cit. Vol. I p. 485 .

واتهم الرأى العام طغتكين بقتل مودود (١) الذى أثار وجوده فى دمشق المخاوف فى نفس طغتكين الذى اعتقد أن الغرض من حركة الجهاد هو رغبة السلطان السابقة فى بسط سيطرته على دمشق تحت ستار محاربة الصليبيين والمهم هو أن الفرنج قد فرحوا بمصرع مودود واستفادوا من تلك الجريمة ، وقد أدى سوء الظن بطغتكين واتهامه بتدبير مقتل مودود الى الجفوة بينه وبين السلطان السلجوقى والى ضمور فكرة قتال الصليبيين (٢) ، ونتيجة لذلك اضطر طغتكين الى اقامة هدنة دائمة مع الملك بلدوين فى سنة ١١١٤ م ، ثم مع جميع امراء الفرنج (٣) سنة ١١١٥ م

وحدث أن تحررت الممتلكات الصليبية فى بلاد الشام والعراق لزلزال عنيف فى نوفمبر سنة ١١١٤ م فرأى السلطان محمد السلجوقى أن يستغل ذلك الظرف وما نجم عنه من تصدع اسوار المدن والقلاع الصليبية لارسال حملة جديدة الى بلاد الشام بزعامة برسق لمحاربة الصليبيين (٤) ، فضلا عن الانتقام من طغتكين اتابك دمشق والقضاء على ايلغازى أمير ماردين .

وعبرت قوات برسق الفرات عند الرقة ، وما كاد امراء الشام والصليبيين يسمعون بقدوم هذه الحملة حتى اجمعوا على مقاومتها ، فمن الجانب الاسلامى قام تلك الحملة ايلغازى بن ارتق امير ماردين ولؤلؤ الخادم الوصى على حلب ، وطغتكين اتابك دمشق ، فى حين قاومها من الجانب المسيحى روجر أمير انطاكيه وبونز أمير طرابلس .

وسار برسق الى مدينة حماه وهى فى طاعة طغتكين ففتحها عنوة ، وسار ايلغازى وطغتكين وهمس الفوارس الى انطاكيه واستجاروا بصاحبها روجر وسألوه أن يساعدهم على حفظ مدينة حماه ، ولم يكن بلغهم فتحها ووصل اليهم بأنطاكيه بلدوين صاحب القدس وصاحب طرابلس وغيرهما من شياطين الفرنج (٥) . واتفقوا على أن يتفرقوا بسبب الشتاء ولكثرة المسلمين .

وبعد استيلاء برسق على حماه سار الى افاميه وهى تابعة لامارة انطاكيه مما أدى

---

(١) ابن ايبك الدوادارى : كنز الدرر جـ ٦ ص ٤٧٦ ، ابن الجوزى : المنتظم جـ ٧ ق ٢ ص ٤٢٢ ، اليافعى : مرآة الجنان جـ ٣ ص ١٩٣

(٢) حسن حبشى : نور الدين والصليبيون ص ١٧ .

(٣) Setton : op. cit. Vol. I p. 403 .

(٤) سعيد عاشور : الحركة الصليبية جـ ١ ص ٣٢٦ ، ٣٢٧

(٥) ابن الاثير : الكامل جـ ١٠ ص ١٠ ٥ حوادث سنة ٥٠٩ هـ

الى التقارب بين أمراء المسلمين والصليبيين لمقاومة العدو المشترك ممثلا في سلجقة فارس ، ومنهم من غزو بلاد الشام (١) ، واجتمعت القوات الاسلامية المتحالفة مع قوات الصليبيين وهم قوات دمشق ، وقوات حلب جنبا الى جنب مع قوات روجر امير انطاكيه وملك بيت المقدس وبونز كونت طرابلس وبلدوين كونت الرها التي اجتمعت عند افاميه حيث وصلت عساكر الشرق مع برسق بن برسق (٢) ، ولكن برسق تبين له صعوبة الاشتباك مع ذلك العدد الضخم من القوات الاسلامية المتحالفة مع الصليبيين ، فآثر البرسقي الانسحاب وتراجع الى الصحراء بدمشق شديد . وكان انسحاب برسق خديعة ، فقد انسحب ليستولي على تل دعاب وهي اذ ذاك لصاحب انطاكيه (٣) " روجر " وليهدد أراضي انطاكيه وحلب وأخذ روجر زمام الموقف عندما نجح في نصب كمين لبرسق في دانيث — وهي في منتصف الطريق بين افاميه وحلب — في ١٤ سبتمبر سنة ١١١٥ م (٤) . وكانت الهزيمة لبرسق الذي اسرع بالفرار والنجاه بنفسه (٥) . وذبح الفرنج حوالي ثلاثة آلاف من المسلمين وأسروا النساء وأحرقوا الشيوخ والأطفال وما تبقى من الاسرى غير هؤلاء احتجزوا من أجل الفدية .

وقيل عن كثرة الغنائم أن تقسيمها استغرق حوالي يومين أو ثلاثة ، وتقدر هذه الغنائم بحوالي ثلاثمائة الف بيزنت (كما قال فولشر أسقف شارتر) (٦) . وبعد ذلك مات برسق وأخوه زنكي في سنة عشر وخمسمائة (٧) . وقد ظلت الامارات الصليبية بعد وفاة برسق تتمتع لفترة كبيرة بأمان لم تر مثله من قبل (٨) .

والواقع أن هذا السلام الذي تمتعت به الامارات اللاتينية سمح لهم أن يذهبوا في طرق منفصلة ويوجه كل أمير نشاطه بما يعود على امارته بالاتساع والمنفعة ، فهم يستغلون التجمع ساعة الخطر لأنهم لا يجتمعون ساعة النصر .

---

(١) Setton : op. cit. Vol. I p. 404

(٢) اسامة بن منقذ : الاعتبار ص ١٢٠ ، ابن ايبك : كنز الدرر ج ٦ ص ٤٧٨

(٣) اسامة بن منقذ : الاعتبار ص ١١٥ ، أبو الفدا : المختصر في اخبار البشر ج ٢ ص ٢٢٨

(٤) Setton : op. cit. Vol. I p. 404 .

(٥) ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ص ٥١١ حوادث سنة ٥٠٩ هـ

(٦) Fulcherii Cornotensis(Rec.Hist.Occid.) Vol. 3 p.431 ; Setton: op. cit. Vol. I p. 404

(٧) ابن الاثير : الكامل ج ١٠ ص ٥١١ حوادث سنة ٥٠٩ هـ

(٨) Setton: op. cit. Vol. I p. 405 .

ولذلك نجد بونز يتجه بعد ذلك الى اتباع السياسة التى وضعها أسلافه بخصوص مهاجمة ممتلكات دمشق وحمص ، وكان والده برتراند يسعى الى ضم هذه الاراضى اليه ولذلك نجده يتلقب بسيد حمص ، ولكنه لم يستطع ضمها اليه بسبب ضعف قوته الحربية (١) .

ويأتى بونز بعد أبيه فنجده يتجه الى مد حدود دولته بالاتجاه شرقا (٢) فيجمع وحشد ونهر (٣) الى ناحية البقاع وهى المنطقة المحيطة ببعلبك . وفى جمادى الاخرة ملك الفرنج رفنيه (٤) وهى لطغتكين صاحب دمشق وقووها بالرجال والذخائر وبالغوا فى تحصينها . وكانت رفنيه تسيطر على مدخل البقيعة من جهة وادى نهر العاصى . وانتهز طغتكين صاحب دمشق فرصة خلو رفنيه من عسكر يمنع عنها وكان عنده سيف الدين البرسقى وكان قد بلغهما نزول بونز فى عين الجن (عين جار) (٥)

وكان بونز قد أسس ايضا فى سهل البقاع قلعة يحرس على السفوح الشرقية من جبال النصيرية لحماية مدخل البقيعة وأثناء وجوده فى عين جار هاجمته قوات طغتكين وآقسنقر (٦) وهم على غرة ، فلم يتمكنوا من ركوب خيلهم ولا أخذ سلاحهم (٧) . وتراجع بونز الى طرابلس ، وتمكن طغتكين من استرداد رفنيه بعد أن أخذ كل من فيه من الفرنج أسيرا ، فقتل البعض وترك البعض ، وغنم المسلمون من سوارهم وكراعهم وذخائرهم ما امتلأت منه ايديهم وعادوا الى بلادهم سالمين (٨) . أما الحصن الثانى لبونز فى اقليم البقاع وهو حصن بغرين الذى أسسه لحماية مدخل البقاع ولشن اغارات دائمة منه على رفنيه ، فقد استولى (٩)

---

(١) J.Richard : op. cit. p.p. 17 - 18 .

(٢) سعيد عاشور : الحركة الصليبية جـ ١ ص ٣٧٧

(٣) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٩٧ ، ذكر ابن القلانسى اسم أمير طرابلس فقال أنه بدران (برتراند) ولكنه فى الواقع هو بونز وهذا خطأ من الناسخ ، سعيد عاشور : الحركة الصليبية جـ ١ ص ٣٧٧ ، ٣٧٨

(٤) ابن الاثير : الكامل جـ ١٠ ص ٥١٢ حوادث سنة ٥٠٩ هـ

(٥) William of Tyre: op. cit. Vol. 2 p. 30 .
سبط بن الجوزى : مرآة الزمان جـ ٨ ص ٣٢ - ٣٩

(٦) Setton : op. cit. Vol. I p. 405 .

(٧) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٩٧

(٨) ابن الاثير : الكامل جـ ١٠ ص ٥١٢ حوادث سنة ٥٠٩ هـ

(٩) Grousset : op. cit. Vol. I p. 641 .

عليه برسق في سنة ١١١٥ م (١) ، ولم يشأ بونز أن يفقد حصن رفنيه المنيع ، ففي سنة ١١٢٦ م (٥٢٠ هـ) هاجم حصن رفنيه وهو بيد المسلمين (٢) واستنجد ببلدوين الثاني ملك بيت المقدس الذي كان قد هزم طغتكين في ٢٥ يناير سنة ١١٢٦م ليعاونه في مهاجمة رفنيه في مارس ١١٢٦ م (٣) وكانت رفنيه تابعة لأتابك دمشق ، لذلك لجأ حاكم رفنيه — شمس الخواص — الى الاستنجاد بطغتكين وآقسنقر البرسقي . وأسرع الاميرين المسبعيين بونز وبلدوين الثاني في زحفهما على رفنيه قبل أن تتمكن القوات الاسلامية لنجدته فاستسلم الحصن لهما ، بعد حصار استمر ثمانية عشر يوما (٤) .

وكان الاستيلاء على الحصن بالغ الاهمية عند الفرنج لا لأنه كفل الأمان والسلامة لطرابلس فحسب ، بل أمن ايضا طرق الاتصال بين بيت المقدس وانطاكيه . وبذلك استعادت الفرنج رفنيه من المسلمين (٥) . ولكن رفنيه سرعان ما عادت مرة ثانية الى يد المسلمين اذ خرج في ذلك الوقت البرسقي من الموصل لنجدة حاكم رفنيه — شمس الخواص — واتخذ طريق منبج المؤدي الى الشام ، واتجه صوب انطاكيه حيث عاث في الآثار واستولى على بعض أطرافها (السورين الخارجين) ولكنه لم يتيسر له الاستيلاء عليها لمبادرة ملك بيت المقدس الى الدفاع عنها (٦) .

وفي نفس ذلك الوقت قام اسطول فاطمي بمهاجمة موانئ فلسطين الصليبية مما اضطر الملك بلدوين الى أن يبعث الى البرسقي في طلب الصلح ويعيد رفنيه اليه ، فوجد البرسقي ذلك العرض مناسبا خاصة وأنه خاف أن يحل بالمسلمين ما حدث لهم عند عزاز فانسحب ووصل الموصل يوم ٢٦ نوفمبر سنة ١١٢٦م حيث قتل في اليوم نفسه بيد أحد الباطنية في مسجد الجامع بها في ذي القعدة سنة ٥٢٠ هـ (١١٢٦ م) (٧)

---

(١) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ١ ص ٢٧٨
(٢) ابن الاثير : الكامل ج ١٠ ص ٦٤٠ حوادث سنة ٥٢٠ هـ
(٣) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ١ ص ٥٢٨
(٤) Runciman: op. cit. Vol. 2 p. 30 ; William of Tyre : op. cit. Vol. 2 p. 174.
(٥) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٢١٦ .
(٦) Grousset: op. cit. Vol. 1 p. 643 .
(٧) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ١ ص ٢١٤ ، ابن القلانسي : الذيل ص ٢١٤ ، ابن ايبك الدواداري : كنز الدرر ج ٦ ص ٤٩٧

هذا عن سياسة بونز تجاه المسلمين في النصف الاول من امارته على طرابلس فقد أصابه نجاح كبير اذ أن امارة طرابلس ظلت في نمو حتى بلغت أقصى اتساعها سنة ١١١٢ م وصارت تمتد من المرقب شمالا حتى نهر الكلب جنوبا ، ومن شاطىء البحر المتوسط غربا حتى بعرين ورفنيه وحصن الاكراد وعكار شرقا (١) . ولكن في النصف الثاني من ولايته أصيب بهزائم على أيدي المسلمين وذلك لظهور فكرة مناهضة المسلمين بفضل زوال الخوف الذي استولى على مختلف القوى الاسلامية في بادىء الامر من تقدم الصليبيين السريع في الشرق وبروز المطامع الشخصية بين زعماء الصليبيين انفسهم حتى أخذ بعضهم في الكيد للبعض الآخر .

وقد رأينا فيما سبق ظهور بعض الشخصيات التي تولت حركة المقاومة ضد الصليبيين والتي ظهرت في شمال العراق خاصة ، مثل مودود أتابك الموصل التي ظهرت فكرة الجهاد قوية على يديه ، والذي تطلع الى مهاجمة الصليبيين بالشام ليقطع بينهم وبين الرها حتى قتل أخيرا على يد أحد الباطنية فكان مصرعه ضربة للجهاد الاسلامي (٢) .

ثم حمل لواء الجهاد بعد مودود ايلغازي الى أن ظهر بلك بن أرتق صاحب قلعة خرتبرت الذي تطلع ايضا للقضاء على الصليبيين وساعده الحظ فأسر جوسلين الاول عند سروج وذلك في رجب سنة ستة عشر وخمسمائة (١١٢٢ م) (٣) . وأراد بلدوين الثاني ملك بيت المقدس الذي اصبح وصيا على امارة انطاكيه بعد مقتل روجر على الرها بعد أسر جوسلين أن يثبت للقوة الاسلامية الناهضة أن القوة الصليبية ما زالت قادرة على تهديد الشرق . لذلك استعد لمهاجمة حلب . غير أن بلك فاجأه بك وبين في الفرنجي وأسره ووضعه مع جوسلين . وبذلك أصبحت انطاكيه والرها وبيت المقدس خالية من حماتها الذابين عن بيضتها (٤) .

ولم يكن بونز امير طرابلس على جانب من الكفاية يؤهله لجمع كلمة الصليبيين وتزعمهم وليس لديه من القوة لتخليص الاميرين الصليبيين الى أن مات بلك وهو على حصار

---

(١) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ١ ص ٢٧٨
(٢) حسن حبشي : نور الدين والصليبيين ص ١٧
(٣) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٠٨
(٤) حسن حبشي : نور الدين والصليبيين ص ٢٠ ،
William of Tyre : op. cit. Vol. I p. 539 .

منبج التابعة لامارة طرابلس الصليبية بسهم طائش (١) ، ثم حمل اللواء بعده ضد الصليبيين آقسنقر البرسقي أتابك الموصل الى أن قتله جماعة من الحشيشية في ثامن ذي القعدة سنة ٥٢٠ هـ (١١٢٦ م)

البيت الزنكي وطرابلس :

وأخيرا ظهر زنكي اقوى الشخصيات التي ظهرت في النصف الاول من القرن الثاني عشر الذي كان الصليبيون قبل ظهوره قد اتسعت بلادهم وكثرت اجنادهم وعظمت هيبتهم وزادت ثرواتهم وامتدت الى بلاد المسلمين ايديهم وضعف أهلها عن كف عاديتهم وتتابعت غزواتهم (٢) .

وما كاد عماد الدين زنكي بن آقسنقر يتولى أتابكية الموصل في ربيع الآخر سنة احدى وعشرين وخمسمائة (٣) حتى أخذت الامور تتغير لصالح المسلمين ، اذ اتبع سياسة تستهدف تقوية نفوذه في النواحي التي تحت سلطانه أولا ثم محاولة ضم ما يمكن ضمه من البلدان الاسلامية التي سوف يعتمد عليها لتموين قواته بعد ذلك ، حتى اذا تم له ذلك كله استطاع أن يخرج بما اجتمع لديه من القوات لمحاربة الصليبيين وطردهم عن اطراف العراق والشام .

وفي سنة ٥١٧ هـ (١١٢٣ م) انصرف زنكي لما يجري بالعراق نظرا لما تعرضت له دولة السلاجقة من انقسام خطير عقب وفاة السلطان محمود سنة ١١٢١ م وفي اثناء الذي نشب بين اخوة السلطان الراحل ، اختار الخليفة العباسي المسترشد ان يؤيد سلجوق شاه ، في حين خف زنكي اتابك الموصل لمساعدة مسعود ضد الخليفة وسلجوق ، وعندئذ حلت الهزيمة بزنكي فتشجع الخليفة وزحف على الموصل ، ولكنه فشل في الاستيلاء عليها وارتد الى بغداد . وبعد مقتل الخليفة العباسي المسترشد سنة ١١٢٥ م لجأ الخلفاء العباسيون الى استرضاء زنكي والاستعانة به . وهكذا تفرغ زنكي لمنازلة خصومه من امراء المسلمين حينا ومحاربة القوى الصليبية احيانا (٤) في حين اهتم بمصالحه في الشام أمير من دمشق

---

(١) ابن الاثير : الكامل جـ ١٠ ص ٦١٩ حوادث سنة ٥١٨ هـ

(٢) ابو شامه : الروضتين جـ ١ ص ٧٦

(٣) ابن الاثير : الكامل جـ ١٠ ص ٦٤١ حوادث سنة ٥٢١ هـ ، ابن ايبك : كنز الدرر جـ ٦ ص ٤٤٩ ، ٥٠١

(٤) سعيد عاشور : الناصر صلاح الدين ص ٥١ ، ٥٢

اسمه سوار (١) جعله زنكي واليا على حلب ولم يكن بوسعه أن يمده بعساكر كثيرة . غير أنه دخل في خدمة سوار جماعات مختلفة من التركمان المغامرين بناء على تشجيع زنكي وقد رأوا أن يستفيدوا من حوادث الشقاق بين الصليبيين (بعد مقتل بوهيمند وطمع الاميرة اليسرفي أن تنفرد بالحكم) . فعبروا الفرات وأغاروا على الاراضي الواقعة شرقي نهر العاصي من ممتلكات امارة انطاكيه واتخذوا مناطق معرة النعمان وكفر طاب قواعد لاعمالهم الحربية في تلك الجهات (٢) ، ثم تركوا امارة انطاكيه واتجهوا صوب امارة طرابلس فأغاروا على اعمالها وغنموا وقتلوا وأسروا كثيرا ، فخرج بونز امير طرابلس للدفاع عن امارته فاقتتلوا فانهزم الفرنج وأكثروا القتل في عساكره فمضى هو ومن سلم معه الى قلعة بعرين (٣) فتحصن فيه وحاصره التركمان اياما حتى نفد ما فيه من القوت والماء بحيث هلك منهم ومن خيلهم الاكثر (٤) . ثم هرب الفصر من الحصن في عشرين فارسا (٥) من اعيان اصحابه . وفي ذلك الوقت كان الملك فولك متجها صوب الشمال لانجاد انطاكيه فالتقت به عند صيدا اميرة طرابلس " سيسليا " فأخبرته بأن زوجها بونز وقع في كمين نصبه له جماعة من التركمان بجبال النصيرية وأنه هرب الى قلعة بعرين على حافة (٦) واد بنهر العاصي . وبناء على ذلك اتجه فولك على الفور الى بعرين ليجلوا التركمان . فلما سمع التركمان بذلك قصدوهم وكادت الفرنج أن تهزم فهاجموا رفنية فاضطر عسكر المسلمين الى رفع الحصار عن بعرين .

ثم تكررت بعد ذلك غارة التركمان على طرابلس في رجب سنة ٥٢١ هـ (مارس ١١٢٧ م) (٧) فسار عسكر دمشق مع مقدمهم الامير بزواش الذي اصبح اليه الحل والعقد . ويبدو أن هذا الامير اراد أن يمكن لنفسه ففكر في القيام بحملة ضد

---

(١) Runciman: op. cit. Vol. 2 p. 195 .

(٢) الياقعي : مرآة الزمان جـ ٣ ص ٢٥٢ ، Setton:op.cit.Vol.I p.433 ،

(٣) ابن الاثير : الكامل جـ ١١ ص ٧ حوادث سنة ٥٢٧ هـ ، ابي الفدا : المختصر جـ ٣ ص ٨ ، ابو الفدا : البداية والنهاية جـ ١٢ ص ٢٠٤ ، العيني : عقد الجمان حوادث سنة ٥٢٧ هـ

(٤) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٤٠

(٥) ابي الفدا : المختصر جـ ٣ ص ١٢ ، ابن الاثير : الكامل جـ ١١ ص ٧ حوادث سنة ٥٢١ هـ

(٦) Runciman:op. cit. Vol. 2 p. 195 ;William of Tyre : op. cit.Vol.2 p. 56 .

(٧) كذا في ابن الاثير : الكامل جـ ١١ ص ٥٠ حوادث سنة ٥٢١ ، ابن القلانسي : الذيل ص ٢٥٨ ورد الاسم بزواج .

الصليبيين تخفي عليه شيئا من المهابة والاهمية ، وشجعه على ذلك ، العمل الناجح الذي اصابه سوار عندما غزا امارة انطاكية في يوم السبت الثالث عشر من شعبان سنة ٥٢٠ هـ (ابريل ١١٢٦م) (١) في ثلاثة آلاف فارس حتى وصل الى اللاذقية فقتلوا وأسروا سبعة آلاف اسير ما بين رجل وامرأة وصبي ومائة ألف رأس من الدواب ما بين فرس وبغل وحمار وبقر وغنم (٢) . وساعدت الفتن الداخلية في انطاكية بسبب التنازع على الحكم على عجز انطاكية على الدفاع (٣) عن نفسها .

وكان لذلك النجاح الذي حققه سيف الدين سوار اكبر الاثر في تشجيع بزواثر (٤) لغزو امارة طرابلس ، فاجتمع معه من الغزاه المتطوعة والتركمان ايضا خلق كثير وقاد هذه الجموع الى داخل طرابلس جماعة من نصارى طرابلس الوطنيين فقادوهم عبر منافذ لبنان الى السهل الساحلي (٥) . وفوجيء كونت بونز بالهجوم ، فبادر بمدافعتهم وخرج على رأس جيش ضئيل واشتبك معهم في موقعة دارت بالقرب من قلعة صنجيل انتهت بهزيمة بونز هزيمة نكراء فر على اثرها الى الجبال ولكن عسكر المسلمين عثروا عليه وقتلوه (٦) . وترتب على مقتله ان حصر بزواثر حصن وادي ابن الاحمر وملكه (٧) . وبذلك انتهى عهد حكم الكونت بونز بن برتراند الذي امضى في حكم طرابلس خمسة وعشرين سنة كان فيها حاكما اداريا كفءا ولكن حظه من السياسة كان ضئيلا ، اذ حرم دائما على أن يتملص من سيادة ملك بيت المقدس غير أنه لم يكن من القوة ما يمكنه بحق الاستقلال عنه .

وكان لبونز ثلاثة ابناء وهم ريموند الثاني الذي تزوج من هودبرنا Hodierne (٨) أخت ملكة بيت المقدس ، ميلزند والتي أنجب منها خليفته ريموند الثالث وابنته ميليسند ،

---

(١) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٥٥ .

(٢) ابن الاثير : الكامل جـ ١١ ص ٤٠ حوادث سنة ٥٢٠ هـ .

(٣) Grousset:op. cit.Vol.2 p.p.65 - 66 .

(٤) ابن الاثير : الكامل جـ ١١ ص ٥٠ حوادث سنة ٥٢١ هـ ، ابن القلانسي : الذيل ص ٢٥٨ ، العيني : عقد الجمان حوادث سنة ٥٢١ هـ ،
William of Tyre: op. cit. Vol.2 p.p.82 - 83 .

(٥) J.Richard:op.cit.p.20;Runciman:op.cit.Vol.2 p.p.202-3

(٦) ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك حوادث سنة ٥٢١ ، سعيد عاشور : الحركة الصليبية جـ ١ ص ٥٢٤ ؛ Runciman:op.cit.Vol.2p. 202 ;
William of Tyro: op. cit. Vol. 2 p. 83 .

(٧) ابن الاثير : الكامل جـ ١١ ص ٥٠ حوادث سنة ٥٢١ هـ ، ابن القلانسي : الذيل ص ٢٥٨ ؛ J.Richard:op.cit.p.20

(٨) Runciman : op. cit. Vol. 2 p. 195 .

أما الابن الثاني لبونز فهو فيليب الذي سمي باسم جده لامه الملك فيليب الأول ملك فرنسا (١) ، والثالثة هي ابنته اجنيس التي تزوجها رينو الثاني صاحب المرقب (٢) . تولى ريموند كونتيه طرابلس وقد بلغ من العمر وقتذاك اثنين وعشرين سنة وكان لزاما عليه حين تولى زمام الامور أن ينتقم لمصرع ابيه لا من الغلمان الاتابكية بدمشق الذين لم يكن ندا لهم في القوة بل من المسيحيين بلبنان الذين خانوه وتسببوا في قتل ابيه اذ دلوا المسلمين على موضعه ، فزحف على القرى التي ارتابفي مساعدتها للمسلمين ، فقتل رجالها وسبى نساءها وأطفالها وباعهم ارقاء في طرابلس (٣) .

وفي ذلك الوقت سنة ٥٢١ هـ (١١٢٧ م) عاد عماد الدين زنكي ابن اقسنقر — صاحب الموصل وحلب — الى حلب لاستئناف الجهاد (٤) ، وقد أمن زنكي دائما بأن قيام وحدة بين الامارات الاسلامية في الشام يجب أن يسبق أية خطوة عملية ضد الصليبيين (٥) .

لذلك قام زنكي في شعبان سنة ٥٢١ هـ (يونيه ١١٢٧م) بمحاولة جديدة ضد حمص التي كان يحكمها الامير معين الدين أنر نائبا عن البور بن في دمشق فراسله في تسليمها فاحتج عليه بأنها للامير شهاب الدين وأنه نائبه (٦) . وأنها بيده أمانه ولا يسلمها الا عن غلبه (٧) .

فأقام زنكي على حصارها بعض الوقت . فلما استعصت عليه رحل عنها في ٢٠ شوال وزحف الى حصن بعرين اقوى قلاع كونتية طرابلس (٨) .

وفي الواقع أنه لم يترك حصار حمص ويتوجه الى بعرين في ١١ يوليه سنة ١١٢٧م الا أنه علم أن الصليبيين اتوا لنجدة حمص آملين أن يقتالوه فاضطر الى ترك حصارها

---

(١) J.Richard : op. cit. p. 6

(٢) الأب فردينان توتل اليسوعي : مقالة عن زيارة الى قلعة المرقب ، مجلة المشرق لسنة ٣٢ ، ١٩٣٥ ص ٥٢٩

(٣) Runciman : op. cit. Vol. 2 p. 203 ;William of Tyre: op. cit. Vol. 2 p. 83

(٤) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ٢٦١

(٥) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ١ ص ٥٧٤

(٦) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٥٨

(٧) ابن الاثير : الكامل ج ١١ ص ٥٠ ، ٥١ حوادث سنة ٥٢١ هـ

(٨) ابن الاثير : الكامل ج ١١ ص ٥٠ ، ٥١ حوادث سنة ٥٢١ هـ

واتجه لمواجهة الصليبيين عند بعرين فزحف اليها وحصرها وضيق عليها الحصار وكانت بعرين تشرف على المنحدرات الشمالية لجبال النصيرية ، واستنجد ريموند الثاني كونت طرابلس بفولك ملك بيت المقدس وجمع الفرنج فارسهم وراجلهم وساروا الى زنكي ليرحلوه عن بعرين (١) (٢) . فلما علم زنكي بذلك نصب لهم كمينا فتظاهر جماعة من الاتراك بالانهزام امام الفرنج هزيمة نكراء ، فقتل منهم أكثر من الفين وأسر كثيرون ، من بينهم ريموند الثاني صاحب طرابلس (٣) . بينما استطاع فولك أن يحتمي الى قلعة بعرين حيث حاصره زنكي وشدد الحصار حتى نفد ما عندهم من المؤن (٤) . وهذا الحصن كبير الاهمية لانه يتحكم في مدينتين ، حماه وحمص (٥) فاذا استولى زنكي عليه ومن فيه من الفرنج ملك جميع بلادهم في اسرع وقت ولكن فولك استطاع ان يرسل طلبا للنجدة السريعة الى بطرق بيت المقدس وجوسلين الثاني امير الرها وريموند د بواتيه امير انطاكيه يسألهم أن يسرعوا لنجدته فلبى الجميع نداءه وتجمعت جنودهم في البقيعة . وفي هذه الاثناء كان فولك قد اشتد به المرض لطول مدة الحصار وانقطاع الاخبار عنه ، وتحرج الحصن لقذف المجانيق ، وصل زنكي بحساب تلك النجدة التي بدأت تشق طريقها الى بعرين ، لذلك لم يستطع عليه زنكي سوى التوالي عن بعرين ودفع خمسين الف دينار (٦) (٧) مقابل اطلاق سراح الملك وبقية الاسرى ومنهم ريموند الثاني كونت طرابلس .

وهناك رأي يقول بأن عماد الدين زنكي علم وهو على حصار بعرين أن الامبراطور البيزنطي حنا كومنين قدم على رأس جيش كبير لنجدة الصليبيين خصوصا وأنهم

---

(١) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ١ ص ٥٧٤ ، ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ٢٦١ ، ابن ايبك : كنز الدرر ج ٦ ص ٥٢٥ ، Grousset:op. cit.vol.2p.p.69-70;William of Tyre: op. cit.Vol.2p.85

(٢) ابن الاثير : الكامل ج ١١ ص ٥١ حوادث سنة ٥٢١ هـ

(٣) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ١ ص ٥٧٤ ،
William of Tyre :op. cit.Vol.2 p. 85.

(٤) ابن العديم زبدة الحلب ج ٢ ص ٢٦١ ، ٢٦٢ ،
Runciman:op.cit. Vol.2 p. 204

(٥) ابن الاثير : الكامل ج ١١ ص ٥١ حوادث سنة ٥٢١ هـ ،
Grousset: op. cit. Vol. 2 p. 74 .

(٦) ابن الاثير : الكامل ج ١١ ص ٥٢ حوادث سنة ٥٢١ هـ ، ابن القلانسي : الذيل ص ٢٥٩

(٧) ابن الاثير : التاريخ الباهر في الدولة الاتابكية ص ٦٢

أرسلوا اليه يستعرضون به ويعرفونه ما فعله زنكي فيهم (١) .

وفي سنة ٥٢٤ هـ (١١٤٠ م) عندما هاجم زنكي دمشق لكي ينفذ سياسته العامة بالجبهة الاسلامية المتحدة ، لجأ معين الدين أنر حاكم دمشق الى الاستعانة بالملك فولك ملك بيت المقدس لصد عماد الدين زنكي عنهم وكان الشرط مع الزنج أن يكون في جملة المبذول لهم انتزاع ثغر بانياس من يد ابراهيم بن طرغت وتسليمها اليهم (٢) ، واشترك ريموند الثاني أمير طرابلس مع فولك وريموند دي بواتيه امير انطاكيه حتى استسلمت بانياس في اواخر شوال سنة ٥٢٤ هـ (يونيه سنة ١١٤٠ م) . ونشير هنا الى التحالف الذي تم بين الصليبيين وحكام دمشق ، قد جمد الموقف في بلاد الشام وشل حركة زنكي ضد الصليبيين حتى كان افتتاح زنكي للرها في سادس جمادي الاخرة سنة تسع وثلاثين وخمسمائة (٢٢ ديسمبر سنة ١١٤٤ م) (٣) بالسيف مع ما هي عليه من القوة والحصانة والامتناع على قاصديها والحماية على طالبيها من العساكر البهم (٤) .

وأخيرا قتل زنكي وهو على حصار قلعة جعبر في ٥ ربيع الاخر سنة ٥٤١ هـ (٤ ديسمبر ١١٤٦ م) (٥) على يد أحد خصيانه ويدعى يرنقش . ويريد أن نبين هنا مدى الضعف الذي أصاب امارة طرابلس في تلك الفترة ، ولا أدل على ذلك العجز في القيام بواجبات الدفاع عن الامارة ما قام به ريموند الثاني بعد هزيمته في بحيرة حمص هذه الهزيمة النكراء التي استنفدت قوى كونتيه طرابلس وجعلتها عرضة لاغارات المسلمين اذ استنجد بفرسان الاسبتارية Hospitalier للدفاع عن حدود كونتيته ، خاصة في منفذ حمص — طرابلس ، وفي جبال الاسماعيلية فتنازل لهم عن بعض حقوقه على رفنيه وبحرين اللتين سقطتا في ايدي المسلمين

---

(١) ابن الاثير : الكامل جـ ١١ ص ٥٢ حوادث سنة ٥٢١ هـ ، ابن العديم : زبدة الحلب جـ ٢ ص ٢٦٢ ؛ Runciman: op. cit.Vol.2 p. 213 ; Grousset: op.cit. vol.2 p. 80

(٢) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٧٢

William of Tyre : op. cit. Vol. 2 p.p. 106 - 107

(٣) ابن الاثير : الكامل جـ ١١ ص ٦٨ حوادث سنة ٥٣٩ هـ ،

William of Tyre: op. cit. Vol. 2 p. 144 .

(٤) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٧٩

(٥) ابو شامه : الروضتين جـ ١ ص ٤٢ ، ابن الاثير : التاريخ الباهر ص ١٢٢ ، الكامل جـ ١١ ص ١١٠ حوادث سنة ٥٤١ هـ

كما أنه أعظم بعض القلاع الاخرى مثل حصن الاكراد وحصن أعزاز (١).

وجاءت الحملة الصليبية الثانية وعلى رأسها لويس السابع ملك فرنسا وكونراد الثالث امبراطور المانيا الى بلاد الشام لتثبيت دعائم الامارات الصليبية واسترداد الرها والحد من نفوذ المسلمين ، وأراد كل أمير من امراء الصليبيين أن يستغل تلك الحملة لتحقيق مصالحه الخاصة فأراد ريموند امير طرابلس أن يستغل الرابطة التي تربطه بالملك الفرنسي لويس السابع عن طريق امه الفرنسية لتسخير الحملة في استرداد قلعة بعرين من المسلمين (٢) ، ولكن الحملة اتجهت نحو مساعدة مملكة بيت المقدس في الاستيلاء على دمشق . ولم يشترك ريموند الثاني في حصار الفرنجة لدمشق وسبب هذا التغيب يرجع الى وقوع كارثة عائلية كبيرة ، ذلك أن كونت تولوز ، الفونسو جوردان كان من المحاربين الصليبيين الذين اقسموا مع الملك لويس على الاشتراك في الحملة الصليبية الثانية وابحر الفونسو جوردان مع زوجته وابنائه من القسطنطينية فوصل الى عكا بدلا من ميناء طرابلس الذي كان ينزل فيه معظم فرنجة بروفانس ، ووصل في كتيبة عسكرية قوية فانتعشت آمال الفرنج في الشرق لما هو معروف به عندهم من الميل الى الصامرة ، فهو ابن صليبي خطير ، هو ريموند كونت تولوز ، وجرت ولادته في الشرق في جبل الصنبل ، بينما كان ابوه يحاصر طرابلس (١) ، وأشار قدومه الارتياح والفرح لكونت طرابلس القائم في الحكم فعلا (ريموند الثاني) وحفيد برتراند الذي لم يكن ابنا شرعيا للكونت ريموند ، فاذا طالب الفونسو جوردان بحقه في طرابلس ، فمن العسير انكار حقه ، ويبدو أنه كان يميل الى الاشارة الى حقوقه ويرى بعض المؤرخين انه كان يريد ان يستولي على طرابلس ليقدمها لابنه برتراند الثاني (٤) . ولكن بينما كان في طريقه من انطاكيه الى بيت المقدس ، توقف في قيساريه فصرعه الموت فجأة وقال البعض أنه مات مسموما بايعاز من ريموند الثاني ليتخلص منه (٥) .

ونتيجة لتعرض ريموند للاتهام فانه امتنع عن الاشتراك في الحرب الصليبية .

---

(١) J.Richard: op. cit. p. 63 .

(٢) سعيد عاشور : الحركة الصليبية جـ ٢ ص ٦٢٨ ، ٦٢٩

(٣) William of Tyre : op. cit. Vol. 1 p. 454 .

(٤) J.Richard : op. cit. p. 7 .

(٥) هناك رأي يقول أن الملكة ميسلند هي التي ارتكبت الجريمة لصالح اختها العزيزة هودبرنا بينما رأي يقول أن سبب الوفاة يرجع الى مرض حاد كالزائدة الدودية
Runciman : op. cit. Vol. 2 p. 280 ;
William of Tyre : op. cit. Vol. 2 p. 182

وبعد فشل الحملة الصليبية الثانية لم يبق بالشرق من أمرائها الا برتراند أمير تولوز الذي ظل مقيما بفلسطين حتى غادرها الملك لويس ، ثم سير رحاله صوب الشمال متظاهرا بأنه ينوي الابحار من ميناء بشمال الشام . وعندئذ اجتاز برتراند السهل حيث تنتشر البقيعة نحو البحر ثم تحول فجأة الى الداخل واستولى على حصن المريمة وتملكه وأظهر أنه يريد أخذ طرابلس من القمص (١) .

وأرسل ريموند قوة لتجبر برتراند على ترك الحصن ، ولكن القوة فشلت في مهمتها . وتراجعت الحامية حصن المريمة الى موقعة المنيح اذ يتحكم في الطريق الممتد من طرابلس الى انطرطوس ، وفي الطريق الذي يتجه من طرابلس الى داخل البلاد الى البقيعة (٢) .

ولما أحس ريموند الثاني بعجزه بسبب تخلي بعض انصاره عنه وعدم ميلهم الى مساعدته ، كتب الى نور الدين محمود بن زنكي الذي كان مجتمعا هو ومعين الدين أنر ببعلبك (٣) . وبفضل المعونة التي قدمها سيف الدين غازي صاحب الموصل لريموند في استرداد المريمة فان الحصن لم يستطع الصمود امام قوة المسلمين الضخمة فقتل اكثر من كان فيه (٤) ودك المسلمون الكافرون القلعة حتى تساوت بالارض ثم تركها نور الدين محمود ومعين الدين أنر ليحتلها من جديد الكونت ريموند وانسحبا وفي أثرهما عدد كبير من الاسرى (٥) . ومن بين الأسرى كان برتراند وأمه (٦) . فنقلهما الى حلب حيث امضيا في الاسر اثني عشر سنة . وهناك رأى يقول بأن اخت برتراند تزوجت من نور الدين محمود وأنجبت له ابنه الصالح الذي خلفه في الحكم (٧) .

---

(١) ابن الاثير : الكامل ج ١١ ص ١٣١ حوادث سنة ٥٤٣ هـ ، التاريخ الباهر ص ٩٠ ، ابن القلانسي : الذيل ص ٣٠٠

(٢) Grousset:op.cit.Vol.2 p. 270 ; Runciman:op.cit. vol.2 p.p. 287-288 .

(٣) ابن الاثير : الكامل ج ١١ ص ١٣١ حوادث سنة ٥٤٣ هـ ، ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ٢٩١ ، ٢٩٢ ، أبو شامه : الروضتين ج ١ ص ٥٥

(٤) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٣٠٠

(٥) ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ص ١١٤

William of Tyre: op. cit. Vol.2 p. 197 .

(٦) كذا في ابن القلانسي الذيل ص ٣٠٠ ، حسن حبشي : نور الدين والصليبيين ص ٥٩ ، أما رنسمان فيقول انها أخته

Runciman : op. cit. Vol. 2 p.p.287 - 288 .

(٧) ابن الأثير : التاريخ الباهر ص ٩٠

وفي ذلك الدور — أي في النصف الثاني من القرن الثاني عشر اشتدت احوال الدولة الفاطمية سوءا. وازداد استبداد الوزراء بالخلفاء الفاطميين ، فانتهز بلدوين الثالث تلك الفرصة وقام ببناء قلعة في غزه ليقوم بعد ذلك بمهاجمة عسقلان . وقام الوزير الفاطمي العادل بن السلار بمحاولة مع نور الدين محمود ليدبرا معا هجوما مشتركا ضد الفرنج ، فأرسل ابن السلار اسامه بن منقذ الى نور الدين وقال له " تأخذ منك مالا وتمضي اليه لينازل طبرية ويشغل الفرنج عنا لنخرج من هاهنا نخرب غزه ، وكان الفرنج خذلهم الله قد شرعوا في عمارة غزه ليحاصروا عسقلان " . قلت " يا مولاي فان اعتذر او كان له من الاشغال ما يعوقه أن شيء تأمرني ؟ " . قال " ان نزل على طبرية ،فاعطه المال الذي معك ، وان كان له مانع فدبون من قدرت عليه من الجند وأطلع الى عسقلان اقم بها في قتال الافرنج ، واكتب الي بوصولك لآمرك بما تعمل " (١) .

وخرج الاسطول المصري الى ثغور الساحل في غاية من القوة وكثرة العدد والعدة ، وذكر أن عدة مراكبه سبعون مركبا حربيه مشحنة بالرجال (٢) . وقاموا بالاغارة على المدن الساحلية من يافا الى طرابلس وحطموا الكثير من المراكب أما نور الدين فلم يشن لمهاجمة الفرنج لانشغاله بالاستيلاء على دمشق وما زال الى ان تم الصلح بينه وبين مجير الدين ابق ، وكان في امكانه الاستيلاء عليها ولكنه كان لا يريد ان يدفع لذلك ثمنا باهظا من ارواح المسلمين ليكون بذل نفوسهم في مجاهدة المشركين (٣) .

مصرع ريموند الثاني كونت طرابلس وقيام ريموند الثالث في حكم طرابلس :

أما ريموند الثاني فلم يكن سعيدا في حياته الزوجية مع مودبرنا وهي ابنه بلدوين الثاني ملك بيت المقدس اذ لم تختلف عن شقيقتها ميلسند واليس في العناد والميل الى المرح وتهامس الناس بالشكوك حول شرعية ابنتها ميلسند ، وكان ريموند الثاني شديد الغيرة عليها لدرجة انه كان يحاول ان يطبق عليها العادات الشرقية مثل التزام المرأة البيت (٤) . وفي سنة ١١٥٢ م بلغت العلاقات بين الزوجين

---

(١) اسامه بن منقذ : الاعتبار ص ١٠

(٢) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٢١٥ ، كرد علي : خطط الشام ج ٢ ص ٢٧ ، ابو شامه : الروضتين ج ١ ص ٨٠ ، العيني : عقد الجمان حوادث سنة ٥٤٦ هـ

(٣) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١١٦

(٤) Runciman: op. cit. Vol. 2 p. 378 .

درجة كبيرة من السوء استوجبت تدخل بلدوين الثالث وأمه ميلسند بحكم الصلة العائلية بينهما لفض النزاع بين امير طرابلس وزوجته ، وسافر ملك بيت المقدس وأمه الى طرابلس ، ولكن نصائحهما لم تجد مع ريموند الثاني وزوجته ، وعندئذ صحبت ميلسند اختها هودبرنا لتقيم معها في نابلس (١) ورافقهما الكونت ريموند الثاني نحو ميل أو أكثر ، وبينما كان الكونت يجتاز عند عودته المدخل الجنوبي لعاصمته وثب عليه جماعة من الاسماعيلية الحشيشية فقتلوه في سرعة عجز معها حرسه في القبض على الجناه ، ولم يعرف الباعث على اقترافهم هذه الجريمة .

وكان أن اتهمت هودبرنا وتشكك الناس في تآمرها على قتل زوجها . اما ريموند الثاني فقد خلف ابنا صغيرا هو " ريموند الثالث " الذي كان في الحادية عشرة من عمره ، فقام بلدوين الثالث ملك بيت المقدس بتنظيم شئون الوصاية على الطفل الصغير باعتباره ادنى الاقارب الذكور . وقد اسندت الوصاية الى امه هودبرن وفي ذلك الوقت استغل نور الدين فرصة الخلافات والفوضى التي سادت طرابلس قبل مقتل اميرها وبعد مقتله (٢) فقام في المحرم سنة سبع واربعين وخمسمائة (١١٥٢ م) بمهاجمة حصن انطرطوس (٣) وافتتاحه وقتل من كان فيه من الافرنج ، وطلب الباقون الامان فاجيبوا الى ذلك . غير انهم لم يلبثوا ان طردوا منها ، ثم قام بلدوين بموافقة هودبرن بتسليم انطرطوس الى فرسان الداوية . ونلاحظ هنا أن قامصة طرابلس كانوا يمنحون الداوية قلاع كونتيتهم التي ضربتها جيوش المسلمين لترميمها واتخاذها مراكز دفاعية للكونتية (٤) .

ويهمنا في هذا الدور ما قام به نور الدين من الاستيلاء على دمشق بعد أن أمن بعدم استطاعته طرد الصليبيين ما لم تنتظم القوى الاسلامية المبعثرة بين الفرات والنيل في هيئة وحدة متكاملة . وكانت العقبة الكئود في سبيل هذه

---

(١) سعيد عاشور : الحركة الصليبية جـ ٢ ص ٦٤٧ ، William of Tyre:op. cit.V.2p.214 ويرى رانسيمان أن ميلسند كانت شديدة التأثير على ريموند وهودبرنا . فوافق على تسوية ما وقع بينهما من شجار ، غير أنه تراءى أن تنعم هودبرنا بأجازة طويلة Runciman:op.cit.Vol.2p.379.

(٢) سعيد عاشور : الحركة الصليبية جـ ٢ ص ٦٤٨

(٣) ابن القلانسي : الذيل ص ٣١٨ ، أبو شامه : الروضتين جـ ١ ص ٨٦ ، ٨٧ ، كرد علي : خطط الشام جـ ٢ ص ٢٨ Runciman:V.2 p.p.336-337

(٤) J.Richard: op. cit. p. 67 .

الوحدة في مدينة دمشق التي لم يكتفي حكامها بصم آذانهم عن الدعوة لوحدة الصف وانما تآمروا جهرا ضد القضية العربية الكبرى ولم يخجلوا من محالفة الصليبيين في بيت المقدس ضد نور الدين محمود (١) . وكان نور الدين يعلم من محاولاته السابقة لاستيلاء على دمشق أن دمشق لن تؤخذ بالقوة والا تدخل الصليبيون . وأخيرا استولى نور الدين على دمشق يوم الاحد ٢٥ ابريل سنة ١١٥٤ م العاشر من صفر سنة تسع واربعين وخمسمائة " لامر المقدر المقضي والامر الماضي وسعادة نور الدين الملك واهل دمشق وكافة الناس " (٢)

وهكذا توحدت بلاد الشام تحت راية نور الدين من الرها شمالا حتى حوران جنوبا " فثبت الاسلام اوتاده وأيقن الكفار بالبوار ووهنوا واستكانوا " (٣) . وبذلك اصبح في وسع نور الدين في مقدرته ان يوجه ضرباته الى الصليبيين شمالا وجنوبا دون ارعائق .

وفي سنة ٥٥٨ هـ (١١٦٢ م) هاجم نور الدين امارة طرابلس فجمع العساكر ودخل بلاد الفرنج ونزل في البقيعة تحت حصن الاكراد عازما على دخول بلادهم ومنازلة طرابلس ، فبينما الناس في بعض الايام في خيامهم اذا بصليان الفرنج وراء الجبل الذي عليه حصن الاكراد فكبسوا المسلمين ووضعوا فيهم السيف وأكثروا فيهم القتل والاسر وقصدوا خيمة نور الدين محمود فخرج من ظهر خيمته عجلا بغير قباء ، فركب فرسا ونجا بنفسه ، ولسرعته ركب الفرس والشبحة في رجله فنزل انسان كردي فقتلها فنجا نور الدين وقتل الكردي ، فأحسن نور الدين الى مقتليه ووقف عليهم الوقوف (٤) .

وانسحب نور الدين الى بحيرة قدس بالقرب من حمص وأحضر ما يحتاج اليه من الخيام واجتمع اليه كل من نجا من المعركة ، فعاد العسكر في مدة قريبة كأنه لم ينفد

---

(١) سعيد عاشور : الناصر صلاح الدين ص ٥٥

(٢) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٢٧

(٣) ابن الاثير : التاريخ الباهر ص ١٠٧ ، أبو شامه : الروضتين جـ ١ ص ٩٧

(٤) King:The Knights Hospittallers p. 89 .
ابن واصل : مفرج الكروب جـ ١ ص ١٢٥ ، ابن الاثير : الكامل جـ ١١ ص ٢٩٤ حوادث سنة ٥٥٨ هـ ، التاريخ الباهر ص ١١٦ ، ١١٧ ، ابي الفداء : المختصر جـ ٣ ص ٤١ ، ابن قاضي شهبه : الكواكب الدرية في السيرة النورية ص ١٢١ ، ابو شامه : الروضتين جـ ١ ص ١٢٧ ، ابن العديم : زبدة الحلب ص ٣١٤ ، ابن هاشم الطباخ : اعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهداء جـ ٢ ص ٤٢ ، ٤٣

منه أحد ، أن أنه أعاد تنظيم قواته وحلف بالله لا يظله سقف حتى يأخذ الثأر (١)

وكان الصليبيون الاسبتارية وقوات ريموند الثالث صاحب طرابلس وبوهيمند الثالث وقنصطنطين كولمان حاكم قيليقية يريدون قصد حمص وأخذها ولكن وصول الامدادات لنور الدين جعل الصليبيون يعدلون عن رأيهم ويقولون : " لم يفعل هذا (٢) الا وعنده قوة يمتنعنا بها " وراسلوه في طلب الصلح ولكنه رفض فتفرقوا الى بلادهم (٣)

ونريد ان نقول هنا ان علاقة امارة طرابلس بالمسلمين في المرحلة التالية تتعلق بمسألة التسابق على مصر بين الدولتين النورية والصليبية وليس من الممكن علينا فهم هذه العلاقة من سنة ٥٦٠ هـ (١١٦٤ م) الا على اعتبار انها جزء (٤) من تلك المسابقة .

وفي ذلك الوقت استنجد شاور بنور الدين ليعيده الى الوزارة في مصر التي انتزعها منه ضرغام . وعندئذ استنجد ضرغام بالصليبيين وانتهز نور الدين فرصة خلو الشام من الفرنج فأراد ان ينتقم من الهزيمة التي حلت به عند حصن الاكراد كما اراد ايضا أن يتبع فرصة الحمل لقائده شيركوه في مصر ، فهاجم حارم . وما أن ذاع خبر الزحف النوري على حارم بين الصليبيين حتى جزعوا على انطاكيه : فتكون حلف كبير من بوهيمند الثالث امير انطاكيه وريموند الثالث امير طرابلس ، وقنصطنطين كولمان (٥) حاكم قيليقيه البيزنطي بالاضافة الى قوة كبيرة من فرسان الاسبتاريه والمعبد . واقتربت القوتين من بعضهما ، فدارت بينهما (٦) معركة حامية في ١١ افسطس سنة ١١٦٤ م في رمضان سنة ٥٥٩ هـ . وفي هذه

---

(١) احمد علي الحريري : الاعلام والتبيين ورقة ١٠ ، العيني : عقد الجمان حوادث سنة ٥٥٩ هـ

(٢) J.Richard: op. cit. p. 21 .

ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ص ١٢٦ ، ابن الاثير : الكامل ج ١١ ص ٢٩٥ حوادث سنة ٥٥٨ هـ ، الباهر ١١٦ ، ١١٧

(٣) ابن قاضي شهبه : الكواكب الدرية ص ١٢١

(٤) حسن حبشي : نور الدين والصليبيين ص ٨٨ ، ٨٩

(٥) King:op.cit.p. 90 .

(٦) ابو الفدا : المختصر في اخبار البشر ج ٢ ص ٤١ ، ذكر أن المعركة دارت في ١٠ افسطس واستمرت يومين حتى سقطت حارم ، انظر سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ٦٨٥ ، ٦٨٦ ، حسن حبشي : نور الدين والصليبيين ص ٦٠ ، ابن ايبك : كنز الدرر ج ٧ ص ٣٦٥ ، ٣٦٦

الموقعة كانت مصيبة الصليبيين كبيرة . فقد بدأوا بالهجوم على ميمنة المسلمين وفيها عسكر حلب وصاحب الموصل فانهزم المسلمون فيها وتبعهم الفرنج فأبعدوا عن راجلهم ، فحينئذ عطف الامير زين الدين على كوجك في عساكر الموصل على راجل الفرنج فأفنادهم قتلا واسرا فعادت خيالتهم الذين ساقوا وراء المنهزمين خوفا على راجلهم ، فلما عادوا عاد المنهزمون وحملوا على الفرنج ، فهزم الصليبيون هزيمة شنيعة فقتل فيهم ما يزيد على عشرة آلاف " فارس وراجل " وأسروا ما لا يحد ، وكان في جملة الاسرى بوهيمند الثالث امير انطاكيه وريموند الثالث امير طرابلس " وكان شيطان الفرنج وأشدهم شكيمة على المسلمين (١) .

وقد اطلق سراح بوهيمند بعد ان امضى في الاسر نحو عام ، اما ريموند كونت طرابلس فقد ظل في اسر نور الدين ما يقرب من اثنى عشر سنة (٢) .

وفي سنة ٥٦١ هـ (١١٦٥م) خرجت حملة شيركوه الثانية الى مصر ورأى نور الدين ان يقوم بعدة هجمات على الصليبيين لكي يشغلهم عن عرقلة شيركوه فقام نور الدين بالهجوم على حصن المنيطرة من اعمال طرابلس (٣) . ولم يحشد له نور الدين ولا جمع العساكر وانما سار اليه بعربدة على غرة منهم فذهب اليه وحاصره وجد في قتاله فأخذه عنوة وقهرا وقتل من به وسبى وغنم غنيمة كثيرة (٤) .

وفي السنة التالية لاستيلائه على المنيطرة اي في سنة ٥٦٢ هـ (١١٦٧م) قام بالاغارة ايضا على امارة طرابلس مستغلا سوء الاوضاع فيها نتيجة لوجود اميرها ريموند الثالث في اسر نور الدين (٥) . ففي هذه السنة ٥٦٢ هـ (١١٦٧م) جمع نور الدين العساكر فسار اليه اخوه قطب الدين من الموصل وغيره فاجتمعوا عند حمص (٦)

---

(١) ابن الاثير : الكامل ج ١١ ص ٢٠٢ حوادث سنة ٥٥٩ هـ ، ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب في اخبار من ذهب ج ٤ ص ١٨٦ ، الغزي : نهر الذهب في تاريخ حلب ص ٩٦

(٢) William of Tyre: V.2p.308 . Runciman: op.cit. Vol.2 p.370

(٣) حسن حبشي : نور الدين والصليبيين ص ١١٧

(٤) ابن الاثير : الكامل ج ١١ ص ٢٢٢ حوادث سنة ٥٦١ هـ ، التاريخ الباهر : ص ١٢١ ، ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ص ١٤٨ ، ابن شداد : النوادر السلطانية ص ٢٨ ، ابو الفدا : المختصر ج ٢ ص ٦٠

(٥) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ٦٩٢

(٦) ابن الاثير : الكامل ج ١١ ص ٢٢٧ حوادث سنة ٥٦٢ هـ

ثم هاجموا بلاد الافرنج فأغاروا على حصن الاكراد ، ونهبوا وسبوا ثم اتجهوا الى حصار عرقة الى الشمال الشرقي من طرابلس وحاصروا جبلة وأخذوها وخربوها ، وسارت العساكر في بلادهم يمينا وشمالا تغير وتخرب وفتحوا الحريمة وصافيثا وعادوا الى حمص فصاموا بها رمضان ثم خرج نور الدين بعد ذلك لمهاجمة مملكة بيت المقدس من جهة الشمال الشرقي فخرب قلعة هونين ثم اتجهه لمهاجمة بيروت فتجدد في العساكر خلف اوجب التفرق ، وعاد قطب الدين الى الموصل فمنعه نور الدين الرقة على الفرات (٢) .

وكان نتيجة هذه الغارات المتلاحقة على الصليبيين بوجه عام وطرابلس بوجه خاص . ونتيجة لاعمال عمورى ملك بيت المقدس في مصر فانه (عمورى) كان لا يستطيع ان يقوم بمشروعه في مصر دون ان يطمئن الى وضع الصليبيين في الشام . ونتيجة لوجود ريموند الثالث في الاسر ولقلة الموارد البشرية بعد أن قتل وأسر كثير من الصليبيين بالشام وتناقصت اعداد الحجاج الوافدين من الغرب ، لذلك لم يجد عمورى في ذلك الوقت معينا له بصفته الوصي على امارة طرابلس غير مظلمات الفرسان . فأخذ يتوسع في منحهم القلاع والمدن للدفاع عنها . ويرجع السبب ايضا الى بسط نفوذهم على تلك المناطق الجديدة الى حدوث الزلازل في بلاد الشام سنة ٥٦٥ هـ (١١٧٠م) فكانت زلازل عظيمة متتابعة هائلة لم ير مثلها الناس (٣) مما سبب تخريب حصون عرقه والاكراد وصافيثا ، الامر الذي دعى عمورى كافل الكونتيه اذ رأى نفسه عاجزا عن ضمان الدفاع عن اراضي الكونتيه التي تفتحت في هذه المناطق الشمالية من الكونتيه الى ان يمنح فرسان الاسبتاريه الدفاع عن البقاع وحصن الاكراد (٤) بالاضافة الى حصن عرقه وعكار (٥) كما منح الداوية انطرطوس ومعظم الاجزاء الشمالية من امارة طرابلس (٦) .

وبذلك ظهر فرسان الداوية والاسبتاريه في صورة القوى الكبرى التي نهضت بعبء حراسة الاراضي والممتلكات الصليبية ببلاد الشام .

وفي سنة ٥٦٧ هـ (١١٧١ م) ارسل نور الدين قوة لمهاجمة انطاكيه وأخرى

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ص ١٥٢
(٢) ابن الاثير : الكامل ج ١١ ص ٢٢٨ حوادث ٥٦٢ هـ ، ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ٢٤٢ ، ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ص ١٥٢
(٣) ابن الاثير : الكامل ج ١١ ص ٢٥٤ حوادث سنة ٥٦٥ هـ
(٤) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ٩٦٢
(٥) J.Richard:op.cit.p.63 .
(٦) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ٩٦٢

لمهاجمة طرابلس ، بينما سار هو بنفسه وهاجم امارة طرابلس فحاصر عرقه وأخرب ربضه وأرسل فرقة اخرى الى حصن صافيثا والمريمة فأخذ ما عنوة وقتل كل من فيهما وسبى وخرب وغنم المسلمون غنائم كثيرة ، وعادوا اليه وهو بعرقة وسار نور الدين بالعساكر نحو طرابلس فراسله الفرنج وطلبوا الهدنة (١) .

وقد قبل نور الدين الصلح لارتيابه وتخوفه من صلاح الدين . وفي سنة ٥٦٨ هـ (١١٧٢ م) وافق نور الدين على أن يطلق سراح ريموند الثالث كونت طرابلس مقابل دفع ثمانين الف دينار (٢) وتولى الملك عموري والاسبتاريه جمع المال المطلوب .

وبذا تهيأ لريموند الثالث أن يعود لوطنه على أنه لم يؤد مطلقا مبلغ ثمانين الف دينار طلب مدينا بها لنور الدين . على أنه في اثناء السنوات الطويلة التي امضاها ريموند في الاسر انكب على القراءة والدراسة فتعلم اللغة العربية ودرس سير المسلمين وأساليبهم .

ومهما أن نوضح هنا أن ريموند الثالث اصبح في ذلك الوقت اكبر وأقوى شخصية صليبية في بلاد الشام ، فبعد وفاة عموري الاول في ١١ يوليو سنة ١١٧٤ م (أي بعد وفاة نور الدين في ابريل " منتصف مايو " سنة ١١٧٤ م الموافق يوم الاربعاء حادي عشر شوال سنة ٥٦٩ هـ (٣) تولى بلدوين الرابع امر مملكة بيت المقدس وكان مجزوما ، ولم يتجاوز الثالثة عشر من عمره ، وقد تولى أولا أمر الوصاية عليه ميلون دي بلانس ، فلما خرج ريموند الثالث من أسر نور الدين استغل فرصة محبة الامراء الصليبيين له ليدبر مؤامرة تنتهي بمقتل ميلون دي بلانس وأن يصبح ريموند وصيا على بلدوين الرابع المجذوم ملك بيت المقدس (٤) .

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب جـ ١ ص ٢٢٠ ، ابن الاثير : الكامل جـ ١١ ص ٢٢٢ ، ٢٢٤ حوادث سنة ٥٦٧ هـ

(٢) ابو شامه : الروضتين جـ ١ ص ٢٠٢ ، William of Tyre:V.2p.39 . حسن حبشي : نور الدين والصليبيون ص ١٤٢ ، يرى ابن واصل انه دفع مائة الف وخمسين ألف دينار وفكاك ألف أسير ، ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٢ ص ٢١ ، بينما يرى ابن جبير أن صلاح الدين هو الذي اطلقه ابن جبير : الرحلة ص ٢٠٩ ، ويرى ابو الفدا ؛ البداية والنهاية جـ ١٢ ص ٢٨٩ أن الذي اطلق ريموند هو نور الدين نظير مائة الف دينار وألف أسير ، أبو شامه : الروضتين جـ ١ ص ٢١٦ ، Runciman:V.2p.395

(٣) سعيد عاشور : الناصر صلاح الدين ص ١٠٨ ، ابن الاثير : الكامل جـ ١١ ص ٤٠٢ حوادث سنة ٥٦٩ هـ ، أبو الفدا ؛ المختصر جـ ٢ ص ٥٥

(٤) سعيد عاشور : الحركة الصليبية جـ ٢ ص ٧٢٧

وكان نتيجة لزوال ريموند من الوريثة الثانية الكبيرة في مملكة بيت المقدس وهي ايشيفانور اميرة الجليل ان ضم اليه طبرية واقليم الجليل .

صلاح الدين وامارة طرابلس :

وكان من حسن طالع المسلمين في ذلك الوقت ان تولى القائد البطل صلاح الدين القيام بنفس الدور الذي قام به نور الدين محمود من قبل لتوحيد القيادة الاسلامية وحسم ادواء الفتن التي بدأت تظهر في بلاد الشام بعد وفاة نور الدين وخرس ابنه الصالح اسماعيل . وكانت مصر في هذه المرة قاعدة النضال ضد الصليبيين ، فخرج صلاح الدين من مصر في سبعمائة فارس فاستولى على دمشق ثم حمص ثم حماه ، وزحف بعد ذلك الى حلب فحصرها ، فارسل الحلبيون الى ريموند امير طرابلس يطلبون منه المساعدة وكان ريموند صاحب الكلمة العليا في الامارات الصليبية بعد وفاة عموري الاول وطلبوا منه ان يقصد بعض البلاد التي بيد صلاح الدين ليرحل عنهم (١) ، وكان ريموند يدرك تماما اهمية تحالف الصليبيين مع حلب كما ادرك خطورة قيام وحدة اسلامية تجمع بين القاهرة ودمشق وحلب ، لذلك اسرع ريموند الثالث الى نجدة حلب وتظاهر بالقيام بدور حامي الصالح اسماعيل بن نور الدين . ولكنه في الواقع ما قام بهذا الدور الا نكاية في صلاح الدين ولكي يمد سريان الوحدة في وجهه (٢) .

ويبدو لنا أن ريموند حاول ان يستغل الوسائل السياسية مع صلاح الدين فقام بمفاوضته حول مسألة حلب ، فأرسل اليه يرغبه في الصلح ويقول له ان الفرنج قد تعاهدوا وصاروا يدا واحدة ولكن صلاح الدين لم يغتر بالتهديد ورد قائلا : " لست ممن يرهب بتأليب الفرنج وها انا سائر اليهم (٣) " ثم رد على الامير الحلبي ردا طيبا بأن ارسل قواته لمغارة على امارة انطاكيه فغنموا غنيمة حسنة وعادوا . ولذلك لم يتردد ريموند في الاستجابة لطلب كمشتكين فزحف بجيشه الى حمص حتى يرغم صلاح الدين على رفع الحصار عن حلب فسار الى حمص ونازلها سابع رجب (٤) ، وفعلا نجحت الخطة فاضطر صلاح الدين في أوائل

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص ٢٤ ، أبو شامه : الروضتين ج ١ ص ٢٣٩
ابن الاثير : الكامل ج ١١ ص ٤١٩ حوادث سنة ٥٧٠ هـ
(٢) سعيد عاشور : الناصر صلاح الدين ص ١١٥
(٣) ابو شامه : الروضتين ج ١ ص ٢٣٩
(٤) ابن الاثير : الكامل ج ١١ ص ٤١٩ حوادث سنة ٥٧٠ ، أبو شامه : الروضتين ج ١ ص ٢٣٩

فبراير سنة ١١٧٥ م الى ترك حلب والاسراع لنجدة حمص . وفي الحال انصرف ريموند الثالث الى حصن الاكراد بعد أن حقق غرضه

وفي ذلك الوقت ادرك الزنكيون خطر صلاح الدين فأرسل سيف الدين غازي الثاني (١١٧٠ — ١١٧٦ م) جيشا انضم الى جيش حلب وزحف الجميع على حماه (١) واشتبك المواصلة والحلبيون مع عسكر صلاح الدين في قرون حماه في ١٦ رمضان سنة ٥٧٠ هـ (١١٧٥ م) وانتهت المعركة بانتصار صلاح الدين بعد ان راسلوه في الصلح على ان يكون له ما بيده من بلاد الشام ولهم ما بأيديهم منها (٢) . ولم ترض نتيجة معركة قرون حماه سيف الدين غازي ابن مودود اتابك الموصل ، لذلك حاول بكل الوسائل نكث الصلح بين الحلبيين وصلاح الدين كذلك اتفق مع ريموند الثالث على أن يطلق من كان في اسره من امراء الصليبيين بحلب ومن جملتهم ارناط صاحب الكرك وجوسلين الثالث ، في مقابل أن يقوم ريموند الثالث صاحب طرابلس بمحالفة الحلبيين والمواصلة أن (الزنكيون) ضد صلاح الدين (٣) . وأعد سيف الدين غازي الثاني في ربيع سنة ١١٧٦ م عاشر شوال سنة ٥٧١ هـ وجمع امراء الجزيرة وديار بكر ، كما انضم اليه سعد الدين كمشتكين الخادم مدبر دولة الملك الصالح . وبلغ عدد جيش الحلبيين والمواصلة وحلفائهم نحو عشرين الفا . وكان صلاح الدين في قلة من العساكر لانه كان صالح الفرنج (٤) في المحرم من هذه السنة ٥٧١ هـ واستولى على بزاعه ومنبج واعزاز (٥) .

ثم سار صلاح الدين لمحاصرة حلب وانقضت سنة احدى وسبعين ودخلت سنة اثنين وسبعين وهو محاصر لها . على ان صلاح الدين لم يلبث أن قبل (٦) الصلح امام عناد حلب واصرار اهلها على عدم التسليم له .

وقام الصليبيون في هذه الآونة بمحاولة لشغل صلاح الدين عن محاصرة حلب فقام ريموند الثالث كونت طرابلس والوصي على مملكة بيت المقدس مع (٧) بلدوين ملك بيت المقدس الذي لم يتجاوز الخامسة عشرة من عمره . فقام ريموند

---

(١) سعيد عاشور : الناصر صلاح الدين ص ١١٦
(٢) ابن الاثير : الكامل ج ١١ ص ٢٢٢ حوادث سنة ٥٧٠
(٣) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ٧٤٧
(٤) ابن الاثير : الكامل ج ١١ ص ٢٢٧ حوادث ٥٧١ هـ
(٥) المرجع السابق ص ٤٢٩ ، ٤٣٠
(٦) المرجع السابق ص ٤٣١ ، ابن واصل مفرج الكروب ج ٢ ص ٤٧ ، المقريزي : السلوك ج ١ ص ٦٢ ، سعيد عاشور : الناصر صلاح الدين ص ١٢٠
(٧) Runciman:op.cit.Vol.2p.410 .

من البقيعة وهاجم اقليم البقاع بينما قدم من الجنوب جيش بلدوين الرابع ملك بيت المقدس بقيادة مقدم سيد تبنين (١) لمساعدته ولكن الهزيمة حلت بريموند وبلدوين على يد ابن المقدم حاكم بعلبك الذى أوقع بهم وقتل فيهم وأكثر وأسر نحو مائتى رجل منهم وسيرهم الى صلاح الدين (٢)

وفى ذلك الوقت كان شمس الدولة توراتشاه أخو صلاح الدين قد وصل الى دمشق فلما سمع بما حدث سار الى الفرنج ولقيهم عند عين الجر فهزمه الفرنج هزيمة ساحقة ، ولم يكد صلاح الدين يقدم من الشمال (٣) حتى انسحبوا من جديد فلم يقتف اثرهم ، اذ كان حريصا على العودة الى مصر لانه كان يتوقع خطرا خارجيا على مصر من جانب الصليبيين (٤) .

وقد كان نتيجة لانتصارات صلاح الدين المتكررة فى بلاد الشام على الحلبيين والصليبيين فى آن واحد أن قدم الى بلاد الشام حملة صليبية جديدة فى سنة ٥٧٢ هـ (١١٧٦ م) يقودها فيليب الالزاسى . ولكن هذه الحملة فشلت فى مهمتها التى كانوا يريدون توجيهها الى مصر .

ولكن الصليبيين فى الشام ارادوا أن يستفيدوا من الحملة الفلمنكية فى القيام ببعض الاعمال الحربية ضد المسلمين على الحدود الشرقية لامارة طرابلس والرها (٥) . وكانت الفرصة مناسبة للصليبيين فى غيبة صلاح الدين الذى كان لا يزال فى مصر . وقد كان هناك هدنة بين المسلمين والصليبيين وكان من جملة شروطها " انهم اذا وصل لهم ملك او كبير ، ما لهم فى دفعه تدبير ، انهم يبايعونه ولا يبايعونه ، ويحالفونه ولا يخالفونه ، واذا عاد عادت الهدنة كما كانت " (٦) وبعد أن أمد بلدوين الرابع ملك بيت المقدس فيليب الالزاسى بقوة من الفرسان والمشاه ، اتجه فيليب فى أواخر اكتوبر سنة ١١٧٧ م الى طرابلس لتنفيذ مشاريع أميرها ريموند الثالث ضد المسلمين فساروا الى مدينة حماه فحصروها وبها صاحبها شهاب الدين محمود الحارمى خال صلاح الدين — وهو مريض — ولكن الفرنج فشلوا بعد أن حاصروها اربعة أيام (٧) .

---

(١) Runciman: op. cit. Vol. 2 p. 410

(٢) ابن الاثير : الكامل جـ ١١ ص ٤٢٧ حوادث سنة ٥٧٢ هـ ، أبو شامه : الروضتين جـ ١ ص ٦١ ، المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٦٤

(٣) Runciman: op. cit. Vol. 2 p. 410 .

(٤) سعيد عاشور : الناصر صلاح الدين ص ١٢٣

(٥) سعيد عاشور : الحركة الصليبية جـ ٢ ص ٧٥٤

(٦) ابو شامه : الروضتين : جـ ١ ص ٢٧٥

(٧) ابن الاثير : الكامل جـ ١١ ص ٤٤٤ حوادث سنة ٥٧٢هـ ، ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٢ ص ٦٤

كان لانتصار الصليبيين بقيادة بلدوين الرابع على المسلمين عند نهر تل العاشية بالقرب من الرملة في اول جمادى الاخرة سنة ٥٧٣ هـ (١١٧٧م) أن دعم مركزهم واعاد الثقة الى نفوسهم ، فأخذوا يهاجمون المسلمين في شمال الشام في حماه وشيزر وحارم (١) .

حينئذ صمم صلاح الدين على ان يهاجم مملكة بيت المقدس واستطاع ان ينتصر عليهم انتصارات متتالية في ظاهر بانياس (وكان ذلك نتيجة لاعتداء الصليبيين على بصرى الدماشقة الذين خرجوا في ابريل سنة ١١٧٩ م لرعي مواشيهم في المراعي القريبة من بانياس مما ادى الى اشتباك بين الصليبيين بقيادة بلدوين الرابع وصفري صاحب حصن بانياس من ناحية وبين عز الدين فرخشاه وصلاح الدين من ناحية أخرى وانتهى الامر بانهزام الفرنج ونصر المسلمين عليهم ، وقتل من مقدميهم جماعة ومنهم الهمفري (٢) ، وكان بدء صبّه الله على المسلمين

وكان نتيجة لتلك الانتصارات المتلاحقة ان اضطر بلدوين الى عقد هدنة مع صلاح الدين لمدة سنتين وتم توقيعها في مايو سنة ١١٨٠ م (٣) على أنه يلاحظ أن هذه الهدنة عقدت بين صلاح الدين ومملكة بيت المقدس وحدها ، مما جعل صلاح الدين في حل من مهاجمة الصليبيين في شمال الشام . وبخاصة امارة طرابلس فهاجم صلاح الدين بالاستعانة باسطول مصر انطرسوس وأنزل بها كثير من الخسائر مما اضطر ريموند الثالث أمير طرابلس الى عقد هدنة مشابهة مع صلاح الدين (٤)

وفي هذه الاثناء تحسنت العلاقات بين صلاح الدين وريموند الثالث صاحب طرابلس بدرجة واضحة في الوقت الذي ساءت فيه بين ريموند وبارونات مملكة بيت المقدس بسبب اختيارهم جاى لوزجنان ملكا على بيت المقدس بعد وفاة بلدوين الخامس . وطلب جاى من ريموند الثالث حساب البلاد فوقع الخلاف بينهم (٥) . وكان من حسن حظ الصليبيين أن يحدث ذلك الانقسام الخطير بين صفوفهم في الوقت الذي كانت الهدنة لا تزال قائمة بين صلاح الدين والصليبيين

---

(١) أبو شامه : الروضتين جـ ٢ ص ٨

(٢) ابن الاثير : الكامل جـ ١١ ص ٤٥٢ حوادث سنة ٥٧٤ هـ

(٣) المرجع السابق ص ٤٦٤ ، Runciman:op.cit.Vol.2p.241.

(٤) سعيد عاشور : الناصر صلاح الدين ص ١٢٤ ، المقريزي : السلوك جـ ١ ص ٧٧ ، Runciman:op.cit.Vol.2 p.421 ; William of Tyre : op. cit. Vol. 2 p.p. 448 – 449 .

(٥) ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٢ ص ١٨٤ ، ١٨٥

وكان سبب هذه الهدنة التي عقدها ريموند مع صلاح الدين لمدة اربع سنوات (٥٨١ — ٥٨٥ هـ) (١١٨٥ — ١١٨٩ م) أن بلاد الشام تعرضت لقحط شديد سنة ١١٨٥ فرغب ريموند بعقد هذه الهدنة لانه كان يدرك مدى حاجة الصليبيين الى فترة من السلم والهدوء يدعمون فيها مركزهم ويصفون خلافاتهم الداخلية (١) كما انهم افادوا من هذه الهدنة استئناف العلاقات التجارية بينهم وبين جيرانهم المسلمين مما مكنهم من الحصول على حاجتهم من القمح منها (٢). بينما رحب بها ايضا صلاح الدين ليتفرغ الى القضاء على خصمه عز الدين مسعود صاحب الموصل وليقضي على ما حدث من نزاع بين اقاربه في مصر.

فلما اقصى ريموند عن كفالة بيت المقدس هادن السلطان ودخل في طاعته (٣) وصحبه صلاح الدين باطلاق سراح أسرى كونتيه طرابلس. فتوبت مناصحته للمسلمين (٤) وباين أصل ملته وبث السرايا في بلادهم، فخافوه وحذروا مكره. ثم استعان بصلاح الدين ضد لوزجنان عندما أراد لوزجنان أن يحاربه فراسل صلاح الدين وانتمى اليه، واعتضد به، وطلب منه المساعدة على بلوغ غرضه من الفرنج، ففرح صلاح الدين والمسلمون بذلك ووعده النصرة والسعي له في كل (٥) ما يريد، وضمن له أن يجعله ملكا مستقلا للفرنج قاطبة.

وفي الواقع ان هذا التصرف من جانب ريموند كان بدافع الرغبة في حماية نفسه وممتلكاته خصوصا بعد أن حشد جان لوزجنان عساكره لغزو طرابلس ومهاجمة حيفا، وبعد أن نزح منه بيروت. وفي الواقع أن التماس ريموند (٦) المساعدة من صلاح الدين لم يعتبر خيانة اذ كان امرا مألوفا بين الفرنج.

وكان ذلك من حسن طالع المسلمين ومن اسباب نصرة الاسلام (٧)، ولكن ارنباط صاحب الكرك شاء بحماقته المعهودة ألا يترك الصليبيين ينعمون بتلك الفرصة ويحاولون

---

(١) سعيد عاشور : الحركة الصليبية جـ ٢ ص ٧٩٢
(٢) Runciman: op.cit.Vol.2 p. 445.
(٣) ابن بهادر المؤمني : فتوح النصر جـ ١ ص ٢٤ حوادث سنة ٥٨٢ هـ، ابو الفدا : البداية والنهاية جـ ١٢ ص ٣١٩، ابو شامه : الروضتين جـ ٢ ص ٧٤
(٤) ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٢ ص ١٨٤، ١٨٥، المقريزي : السلوك جـ ١ ص ٩٢
(٥) ابن الأثير : الكامل جـ ١١ ص ٥٢٧ حوادث سنة ٥٨٢ هـ، العماد الاصفهاني : الفتح القسي ص ٦٨، كرد علي : خطط الشام جـ ٥ ص ٥٨
(٦) Grousset: op. cit.Vol.2p. 175 .
(٧) ابو شامه : الروضتين جـ ٢ ص ٧٤، ٧٥، ابن واصل جـ ٢ ص ١٨٥

تصفية خلافاتهم الداخلية اثناء الهدنة مع صلاح الدين .

وفي هذا الوقت الذي ازدادت فيه احوال الصليبيين سوءا اذ لم يقتصر الامر على عدم تعاون ريموند وبوهيمند مع جاي لوزجنان بل تطور الامر الى ما أنذر بالصدام بين جاي لوزجنان وريموند . وذلك أن ريموند أمير طرابلس كان يمتلك مدينة طبرية بوصفه اميرا على اقليم البلقاء ، فاعتصم بها عقب تتويج جاي ، وعندئذ اتفق فرسان الداوية مع جاي لوزجنان على محاصرة طبرية وانتزاعها من ريموند (١) . مما جعل ريموند يتجه الى صلاح الدين طالبا مساعدته ضد ملك بيت المقدس والداوية (٢) . وفعلا لبى صلاح الدين نداء حليفه ريموند فأمده بالمعونة اللازمة . وفي ذلك الوقت جمع الملك جاي لوزجنان جيوشه في الناصرة لمهاجمة طبرية . ولكن بعض الامراء الصليبيين تدخلوا في آخر الامر لافهام الملك جاي لوزجنان حقيقة الموقف فأقنعوه بارسال مبعوث الى ريموند أمير طرابلس للوساطة بين الطرفين (٣) وفي الوقت نفسه حثوه على توجيه جهود الصليبيين ضد صلاح الدين والمسلمين ، وأرسلت الفرنج الى القمص القسوس والبطرك ينهونه على موافقته السلطان ويوبخونه فصار معهم (٤) . ثم دارت المعركة الحامية (٥) بين الصليبيين والمسلمين قرب صفوريه في مايو سنة ١١٨٧ م اواخر صفر سنة ٥٨٣هـ انهزم فيها الفرنج ولقي عدد كبير منهم مصرعهم ، وظل مقدم الاسبتاريه ونجا مقدم الداوية ووقع عدد كبير من الصليبيين في الاسر .

ثم عاد المسلمون سالمين وكان عودهم على طبريه وبها القمص ريموند الثالث

---

(١) King: op.cit. p. 118 .

(٢) في الواقع ان سبب النزاع بين ريموند الثالث والداوية نشأ حول مسألة شخصية وذلك أن فارسا فلمنكيا اسمه جيرار ريد فورت قدم الى طرابلس سنة ١١٧٣ م ، ودخل في خدمة الكونت ريموند .. الذي وعده بأن يزوجه اول اميره تصلح له من وريثات الاقطاعات بطرابلس غير انه لما مات سيد البطرون آلت اراضيه الى ابنته لوسيا ، تجاهل ريموند طلب جيرار وزوجها من احد اثرياء البيازنة واسمه بليفانو مما جعل جيرار يغضب وينضم الى طائفة الداوية ولم يلبث أن أضحى اقوى رجالها نفوذا . غير أنه لم ينس مطلقا لريموند تصرفاته .
Runciman: op. cit. Vol. 2 p. 408 .

(٣) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ٨٠٢

(٤) ابن بهادر المؤمني : فتوح النصر ج ١ ص ٢٤ حوادث سنة ٥٨٣ هـ

(٥) ابن الاثير : الكامل ج ١١ ص ٥٢١ حوادث سنة ٥٨٣ هـ ، ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص ١٨٧ . King: op.cit.p. 120 .

صاحب طرابلس ، فلم ينكر ذلك فكان فتحا كثيرا (١) وباكورة البركات ومقدمة ما بعدها من مباهج الحركات (٢) . كان هذا الانتصار افاقة للصليبيين في سباتهم العميق ، وباعثا لهم على التكتل امام الخطر الاسلامي فأسرع ريموند الثالث امير طرابلس الى الدخول في طاعة الملك لوزجنان ومصالحته ، " ودخل الملك على القمص ليتقمص له بالود الاخلص ورمى عليه بنفسه ، واستبدل وحشته بأنسه ، فاصطلحا بعدما اصطلحا ، وأصحبا بعدما جمحا ، وتزاورا الفرنج وتوازروا ، وتآمروا ما بينهم وتشاوروا . وتمت بينهم ليوم الصاف الصافاه ، وزالت المنافرة والمنافاه " (٣) . وقد اختار الصليبيون صفوريه — قرب عكا — نقطة لحشد جيوشهم فيها ، فحشدوا وجمعوا جموعهم ، وجاءتهم الامداد من سائر بلادهم الساحلية وبلغت عبرتهم خمسين الفا ومعهم صليب الصليوت (٤) . ولم يكد يسلم صلح الدين بزوال اسباب الخلاف القائم بين ريموند وجاى لوزجنان ودخول ريموند في طاعة الملك ، ونشه بذلك الاتفاقية المبرمة بينهويين صلح الدين حتى زحف لطبريه التي كانت ملكا لاشيفا زوجة ريموند الثالث في اوائل يوليو سنة ١١٨٧م وهو يوم الخميس لسبع بقين من ربيع الآخر . فهدم النقابون أحد ابراجها وأخذت المدينة عنوة ولجأ من بها الى القلعة التي لها ، فامتنعوا بها وفيها صاحبتها فأقام على حصارها فرقة من جيشه ومضى هو ليلتقي مع جيش الصليبيين الزاحف عليه (٥) . وعقد الفرنج مجلسا للحرب في عكا لبحث الموقف ، وفي هذا الاجتماع قال ريموند " أن طبريه لي ولزوجتي ، وقد فعل صلح الدين بالمدينة ما فعل وبقيت القلعة وفيها زوجتي ، وقد رميت أن يأخذ القلعة وزوجتي وما لنا بها ويعود ، فوالله لقد رأيت عساكر الاسلام قديما وحديثا ما رأيت مثل هذا العسكر الذي مع صلح الدين كثرة وقوة (٦) .

أما الادلة التي حاول بها ريموند ان يدعم وجهة نظره فأهمها أن المسلمين لن يستطيعوا ان يفعلوا شيئا بعد الاستيلاء على طبرية وأنهم لن يلبثوا أن ينصرفوا

---

(١) ابن الاثير : الكامل ج ١١ ص ٥٢١

(٢) ابو شامه : الروضتين ج ٢ ص ٧٦

(٣) العماد الاصفهاني : الفتح القسي ص ٦٥ ، ٦٨

(٤) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص ١٨٨ ، المقريزي : السلوك ج ١ ص ٩٣ ، ابن شداد : النوادر السلطانية ص ٢٧

(٥) ابن الاثير : الكامل ج ١١ ص ٥٢٣ حوادث سنة ٥٨٣ هـ ، مجير الدين الحنبلي : الانس الجليل ج ١ ص ٤٢

(٦) ابن الاثير : الكامل ج ١١ ص ٥٢٢ حوادث سنة ٥٨٣ هـ

اذا تحاشى الصليبيون الاصطدام بهم كما حدث في المرات السابقة ، فاذا فرض وأنهم زحفوا على الصليبيين في صفوريه فان الصليبيين سيكونون في مركز افضل (١) لأن المسلمين سيصلون مجهدين بسبب وعورة الطريق وحرارة الجو وقلة الماء فقال له البرنس ارناط صاحب الكرك : " قد أطلت في التخوف من المسلمين ولا شك انك تريد منهم ، وتميل اليهم وتخوفنا كثرتهم والا ما كنت تقول هذا ، أنت قد قلبتك الآفة وفي قلبك المخافة (٢) . حينئذ قال ريموند الثالث : " أنا واحد منكم ان تقدمتم تقدمت وان تأخرتم تأخرت . وسترون ما يكون . "

وفي الواقع انه بالرغم من سلامة رأى ريموند فان شك جيرارد دي ريدفورت مقدم الداوية في ريموند خصوصا بعد أن خلى ريموند سابقا بوعده له في أن يزوجه أول اميرة تطلع له من وريثات الاقطاعات بطرابلس . وكان نتيجة خلو ريموند بوعده له أن صار من اعدائه . لذلك اجتمع جيرار بالملك جاي لوزجنان (٣) على انفراد . واستطاع أن يقنعه بالزحف على طبريه . والتقى الجمعان في معسكرين ، وأدرك ريموند بحكم خبرته وتجاربه السابقة مع المسلمين عبث القتال ، ورأى المسلمين يحدقون بالفرنجة احاطة الدائرة بقطرها ورأى امارات الخذلان نزلت بأهل دينه (٤) فأيقن بالهزيمة وتحايل على النجاة بنفسه فحمل حملة مكروب على جناح الجيش الذي يقوده تقي الدين عمر صاحب حماه ابن اخو صلاح الدين فعلم تقي الدين أن لا سبيل الى الوقوف في وجوههم فأمر اصحابه أن يفتحوا لهم طريقا يخرجون منه ففعلوا ، فخرج القمص (ريموند الثالث) وأصحابه ثم التأم الصف بعد أن طاحموا (٥) مؤخرة جيشه فقتل أكثر فارس من اصحابه (ريموند) (٦) ونجا القمص ، وتوجه الى صور وتبعه جماعة من المسلمين ولم يدركوه .

وفي اليوم التالي — يوم الاحد — عاد الى طبرية فنازلها . فأرسلت الاميرة

---

(١) سعيد عاشور : الحركة الصليبية جـ ٢ ص ٥٢٢

(٢) ابن الاثير : الكامل جـ ١١ ص ٥٢٣ حوادث سنة ٥٨٣ هـ ، العماد الاصفهاني: الفتح القسي ص ٦٦ ، ابو الفدا : البداية والنهاية جـ ١٢ ص ٣٢٠

(٣) Runciman:op.cit.Vol.2p. 456 .

(٤) ابن الاثير : الكامل جـ ١١ ص ٥٢٥ حوادث سنة ٥٨٣ هـ، ابن شداد : النوادر السلطانية ص ٧٦

(٥) ابن بهادر : فتوح النصر جـ ١ ص ٢٥ حوادث سنة ٥٨٣ هـ

(٦) ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٢ ص ١٩٠ ، ابن الاثير : الكامل جـ ١١ ص ٥٢٥ حوادث سنة ٥٨٣ هـ

أشيفا Eschiva زوجة ريموند تطلب الامان ، فأجابها الى ذلك فخرجت آمنة بمالها ورجالها ونسائها وسارت الى طرابلس بلد زوجها ريموند الثالث (١)

وكان ريموند بعد أن وصل الى صور سار الى طرابلس اذ خاف أن يقصد السلطان صور فيأخذها لانها خالية ليس فيها من يقاتل ولا يقوى على حفظها ولكنه لم يلبث أن ندم على فراره من المعركة فتوفي بعد ذلك بثلاثة اشهر ندما على الفرار أو لمرضه بذات الجنب (الالتهاب البلوري) فكان كما قيل راح يبغي نجوه من هلاك فهلك غيظا وحنقا مما جرى على الفرنج خاصة وعلى دين النصرانية عامة ، وهكذا توفي ريموند دون أن ينجب من زوجته أشيفا صاحبة طبرية أحد يرثه في العرش لذلك أوصى ريموند قبل وفاته بأن يخلفه في حكم طرابلس ريموند - الابن الاكبر لبوهيمند الثالث - أمير انطاكية ، غير أنه اشترط (٢) أنه متى قدم الى الشرق أحد افراد بيت تولوز ، لا بد أن تكون الكونتيه له . ولكن بوهيمند الثالث أبدل ابنه الاكبر ريموند الذي كان محتاجا له في أن يكون بجانبه للدفاع عن امارته بابنه الاصغر بوهيمند الرابع وبذلك انتهت الأسرة البروفنسالية (الطولوشيه) في طرابلس وانتقل حكم تلك الامارة في أواخر سنة ١١٨٧ م الى البيت النورماني الذي كان يحكم انطاكية (٤) .

بوهيموند الرابع ١١٨٧ - ١٢٣٢ م

بيّنا فيما سبق كيف استطاع بوهيمند الرابع الوصول الى حكم امارة طرابلس والظروف التي أحاطت به . وقد استطاع البيت النورماني أن يدافع عن طرابلس في عهدها الجديد عندما اتجه صلاح الدين الى غزو القلاع الصليبية في اقليم الجليل ففي أواخر ديسمبر استولت فرقة من جيش صلاح الدين على قلعة هونين " وهي

---

(١) ابن الاثير : الكامل جـ ١١ ص ٥٣٨ حوادث سنة ٥٨٢ ، أبو شامه : الروضتين جـ ٢ ص ٧٩

(٢) ابو شامه : الروضتين جـ ٢ ص ٩٠ ، ابن شداد : النوادر السلطانية ص ٧٧ ، ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٢ ص ١٩٥ ، مجير الدين الحنبلي : الأنس الجليل جـ ١ ص ٣٢٦

(٣) سعيد عاشور : الحركة الصليبية جـ ٢ ص ٩٠

Runciman: op.cit. Vol.2 p. 469 ; J.Richard:op.cit. p.8;Grousset: op. cit. Vol.2 p. 823 .

(٤) سعيد عاشور : الحركة الصليبية جـ ٢ ص ٨٢٨ ، أبو الفدا : المختصر Rec. Vol. I p.p. 59 - 60 .

من أحصن القلاع وأمنعها (١) " فقد رأى صلاح الدين أن يستغل انتصاره في حطين في توجيه ضرباته لاخضاع البقايا الصليبية على شاطئ البحر مثل صور وطرابلس وانطاكيه . فقد قام صلاح الدين في سنة ٥٨٤ هـ (١١٨٨م) في منتصف ربيع الاول بالتوجه لمهاجمة حصن الاكراد من الجانب الشرقي . على أن الحصن أبدى مقاومة شديدة ، فكان قويا ودافع عنه اصحابه من الاسبتاريه في شجاعة (٢) .

وقام صلاح الدين في أثناء ذلك بحملة استكشافية لامارة طرابلس فقام بالاغارة على صافيتا والعريمة وبحمور ، وغيرها من البلاد والولايات ووصل الى قرب طرابلس ، وأبصر البلاد ، وعرف من أين يأتيها وأين يسلك منها ، ثم عاد الى معسكره سالما (٣) .

ثم سار صلاح الدين بعد ذلك في رابع جمادى الاولى فنزل بأنطرطوس سادسه فرأى الفرنج قد أخلوا المدينة واجتمعوا في برجين حصينين فخرب المسلمون دورهم ومساكنهم وسور البلد ونهبوا ما وجدوه من ذخائرهم (٤) وأمر بوضع النار في البلد وأحرق جميعه (٥) . ثم سار بعد ذلك الى مرقبه فوجدهم قد أخلوها ايضا ، ثم طمع ببصرة الى المرقب وهو من حصونهم التي (٦) لا ترام ولا يحدث أحد نفسه بملكه لعلوه وامتناعه وهو للاسبتار فتحول عنه

وفي ذلك الوقت ارسل صاحب صقليه نجدة بقيادة طاغيه يقال له المرغريط (٧) (مارجريت البرنديزي) على رأس اسطول مكون من ستين قطعة من الشواني وقد حال هذا الاسطول بين صلاح الدين وحصر مدينة طرابلس (٨) ، ولكن صلاح الدين

---

(١) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ٨٢٨ ، ٨٢٩ ، ابن الاثير : الكامل ج ١١ ص ٥٥٧ حوادث سنة ٥٨٣ هـ

(٢) ابو شامه : الروضتين ج ٢ ص ١٢٦ ، أبي الفدا : المختصر ج ٣ ص ٧٤

(٣) ابن الاثير : الكامل ج ١٢ ص ٦ حوادث سنة ٥٨٤ هـ

(٤) ابن الاثير : الكامل ج ١٢ ص ٧ حوادث سنة ٥٨٤ هـ

(٥) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص ٢٥٧

(٦) الأب فردناي نوفل اليسوعي : مقالة عن زيارة الى قلعة المرقب : مجلة الشرق لسنة ٢٢ - ١٩٢٤ ص ٥٩٦ ، ابن الاثير : الكامل ج ١٢ ص ٧ ، أبو الفدا : المختصر : ج ٣ ص ٧٤

(٧) Grousset : op.cit. Vol.3 p. 8.

(٨) ابن الاثير : الكامل ج ١٢ ص ٨ حوادث سنة ٥٨٤ هـ ، العماد الاصفهاني : الفتح القسي ص ١٠٢ ، Lane Pool:op.cit.p.247 .

تخطى طرابلس وذهب الى جبله فى ١٥ يوليو سنة ١١٨٨ م جمادى الاولى سنة ٥٨٤ هـ ، ثم تلا ذلك الاستيلاء على اللاذقية أكبر موانى انطاكيه فاستولى عليها فى ٢٢ يوليو سنة ١١٨٨ م ، واقتحموا كذلك حصن بحمور الواقع الى الشمال من المريمه .

ولكن فى ذلك الوقت لم يشأ السلطان أن يستنفد جهده فى محاصرة حصون طرابلس فقد قال قاضى جبله للسلطان " ان الاشتغال بطرابلس على احترازها واحتراسها وكثرة ناسها وتدرعها بلباس بأسها واستعدادها للحصار وتجنبها عن الأصحار يذهب الزمان ويفوت الامكان "(١) فاكتفى بغاراته فى نواحى طرابلس وزحف الى امارة انطاكيه فاستولى على حصن صهيون الذى يفوق الحصون ثم استولى على حصن بلاطنس وحصن العيون وقلعة بكاس ودربساك فنزل عليها ثامن رجب وهى من معاقل الداوية الحصينة . واستولى على بغراس وهو حصن حصين وقلعة منيعة وهو بالقرب من انطاكيه(٢) .

وهكذا أصبحت امارتا انطاكيه وطرابلس مقصوصتى الجناح ولم يبق منها سوى مدينتى انطاكيه وطرابلس وحصنا المرقب والاكراد ومدينة أنطرطوس .

وفى ذلك الوقت تسببت جهود صلاح الدين وثباتهم فى الجهاد قد فترت وتشوقوا الى بلادهم والراحة من جهادهم ، وملّوا الاقامة وابدوا السآمة(٣) لأنهم لم يروا طعم الراحة منذ حطين .

هذا فى الوقت الذى أدرك فيه بوهيمند الثالث ما تتعرض له انطاكيه من خطر فعقد معه صلاح الدين هدنه لمدة ثمانية اشهر اولها اول تشرين الاول (اكتوبر) وآخرها آخر أيار (مايو) سنة ١١٨٨م . وكان صاحب انطاكيه فى هذا الوقت أعظم الفرنج شأنا وأكثرهم ملكا(٤) ، فان أهل طرابلس سلموا اليه طرابلس بعد موت القمص (ريموند الثالث) صاحبها(٥) . وتعهد بأن يطلق جميع أسارى المسلمين .

---

(١) العماد الاصفهانى : الفتح القسى ص ١٠١ ، أبو شامه : الروضتين جـ ٢ ص ٥٨٤ ، ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٢ ص ٢٥٦

(٢) ابن الاثير : الكامل جـ ١٢ ص ١٨ سنة ٥٨٤ هـ ، ابن شداد : النوادر السلطانية ص ٦٣

(٣) ابو شامه : الروضتين جـ ٢ ص ١٣٢ ، الاصفهانى : الفتح القسى ص ١٢٩

(٤) ابن الاثير : الكامل جـ ١٢ ص ١٩ حوادث سنة ٥٨٤ هـ

(٥) ابن بهادر : فتوح النصر جـ ١ ص ٢٨ حوادث سنة ٥٨٤ هـ ، ابو الفدا : المختصر جـ ٢ ص ٧٥ ، العينى : عقد الجمان حوادث سنة ٥٨٤ هـ

يتبين لنا مما سبق أن المسلمين كانت بيدهم كل شيء وكانوا في مركز القوة في ظل البطل صلاح الدين الذي استطاع أن يحقق اعمالا ضخمة ضد القوة الصليبية في بلاد الشام في الفترة ما بين ١١٨٧ ، ١١٩٠ م وسواء كان الفضل في تلك الانتصارات السريعة الحاسمة الأثر التي أحرزها صلاح الدين راجعا الى صحوة المسلمين وافاقتهم لحقيقة الخطر الصليبي واتحادهم لمواجهته ، أو الى ما كان هناك من انقسامات وهزازات بين صفوف الصليبيين ، فاننا يجب ألا ننسى أثر شخصية صلاح الدين وهو الرجل الذي تزعم حركة الجهاد في ذلك الدور وأخلقه وشجاعته وبعد نظره وصبره على الجهاد .

وأريد أن أقول هنا أنه طالما كان المسلمون تحت راية واحدة تجمعهم وتوحد جهودهم كانت لهم السيطرة واليد الطولى على الصليبيين وكانوا أسياد الموقف يوجهون ضرباتهم في كل اتجاه . حتى كانت وفاة صلاح الدين في ٢٧ صفر سنة ٥٨٩ هـ (مارس سنة ١١٩٣ م) في دمشق بعد مرض قصير تاركا خلفه مملكة واسعة الاطراف وفراغا ضخما لم يستطع أحد من ابنائه السبعة عشر أو اخوته أو أبناء اخوته أن يملأه (١)

فوفاة صلاح الدين جاءت خسارة كبرى للجبهة الاسلامية المتحدة فتمزقت مملكته بين بنيه واخوته واشتد النزاع بينهم بدرجة جعلت من المتعذر الاحتفاظ بحالة من الاستقرار تضمن دوام السلم بين المسلمين والصليبيين (٢) فانتهز الصليبيون الفرصة واستولوا على جبيل سنة ٥٩٠ هـ (١١٩٣ م) ثم استولوا على بيروت سنة ٥٩٤ هـ (١١٩٧ م) .

هذا ما حدث في فترة التفكك والانقسام في صفوف المسلمين فقد شجع ذلك على تناول الصليبيين على المسلمين وتمكنهم منهم . ولكن الملك العادل استطاع أن يعيد الوحدة من جديد بين صفوف المسلمين واصبح سلطان البلاد (٣) بجميعها وصار ينتقل في ممالك اولاده والعمدة في كل الممالك عليه . وأصبح من أقوى رجال عصره .

فماذا كان الوضع حينئذ بعد أن أعاد الملك العادل من جديد توحيد

---

(١) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ٩١٠ ، ٩١١

(٢) صلح الرملة بين صلاح الدين وريتشارد في ٢ سبتمبر سنة ١١٩٢ ودخل فيه جميع الفرنج

(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٢٢٧ ، أبو الفدا : المختصر Rec. Vol. I p. 80 .

الدولة الايوبية . ففي رمضان سنة ٥٩٩ هـ (مايو سنة ١٢٠٣ م) اجتمع الصليبيون من حصن الاكراد وطرابلس والحصون التي حولها وجاءوا في فارسهم ورابلهم وقصدوا الملك المنصور ببارين فقام الملك المنصور بمحاربتهم فانهزم الفرنج وقتل وأسر من خيالتهم جماعة وكان يوما مشهودا (١) .

وفي اوائل الشهر التالي اي قبل مضي ما يقرب من ثمانية عشرة يوما على هزيمة الاسبتارية في بارين ، نجد الاسبتارية وعدتهم اربعمائة فارس وألف ومائتين من الرجالة عدا التركبولية من حصن الاكراد والمرقب يغيرون على حصن بعرين وتمكن الملك المنصور في هذه المرة ايضا من هزيمتهم وقتل منهم مقدم التركبولية وقبض من البحرية (٢) ، وقد استعان الملك المنصور بقوات (٣) بعلبك وحمص .

علاقة طرابلس بدمشق والحشيشيه :

قبل أن أختتم كلمتي عن علاقة امارة طرابلس بالمسلمين ، أرى أنه من الضروري أن اتكلم قليلا عن علاقة امارة طرابلس بدمشق ، تلك المدينة التي مد حكامها السلاجقة يد العون للمسلمين في نضالهم ضد الصليبيين عامة ، ولحكام طرابلس من اسرة بني عمار بوجه خاص ، ذلك كله في الوقت الذي عجزت فيه الدولة الفاطمية ، ولم تستطع النهوض لحماية ممتلكاتها على ساحل الشام بسبب " ضعف السلطنة واختلال احوال المملكة " (٤) من اختلاف العسكر وانقطاع الطرقات (٥) ولم تكن دمشق في ذلك الوقت قوة يستهان بها ، فمنذ لحظة نزول الفرنج على انطاكيه اراد الصليبيون أن يتجنبوا دمشق لذلك كاتبوا صاحبها ، وصاحب حلب يقولون لهما " باننا لا نقصد غير البلاد التي كانت بيد الروم " (٦)

ولقد بينا فيما سبق كثيرا من المواقف التي وقفتها دمشق الى جانب بنو عمار في طرابلس . فعندما استقل ابو محمد عبد الله بن منصور المعروف بابن صليحه

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٣ ص ١٤٣ ، أبو الفدا : المختصر Rec. Vol. 1 p. 81 .
(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٣ ص ١٤٩ ، المقريزي : السلوك ج ١ ص ١٦١
(٣) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ٩٤٤
(٤) المقريزي : اغاثة الامة بكشف الغمة ص ٢٤
(٥) ابن ميسر : اخبار مصر ص ٢٤
(٦) ابن الاثير : الكامل ج ١٠ ص ٢٧٥ حوادث سنة ٤٩١ هـ

بمدينة جبله ، وأعلن العصيان على فخر الملك بن عمار استحثان فخر الملك ابن عمار بسلاجقة دمشق ، " فبذل ابن عمار لدقاق بن تتش مالا ليقصده ويحصره ، ففعل ، وحصره فلم يظفر منه بشيء ، وأصيب صاحبه أتابك طغتكين بنشابه في ركبته ، وبقي أثرها ." (١)

وكان نتيجة لكثرة هجوم الصليبيين بالاضافة الى هجوم ابن عمار على ابن صليحة أن ارسل الى الامير ظهير الدين اتابك يلتمس منه " انفاذ من يراه من ثقاته ليسلم اليه ثغر جبله ، ويصل الى دمشق بماله وحاله " (٢)

وفعلا سير طغتكين ابنه تاج الملوك بوري الى جبله ، ولكن بوري أساء الى اهل جبله مما دعاهم الى ان يشكوه الى فخر الملك بن عمار ليخلصهم منه — وفعلا سير فخر الملك اليهم فرقة هزمت بوري وأصحابه ، وقبضت عليه وحملوه الى طرابلس اسيرا . وأوضحنا فيما سبق كيف عامل فخر الملك تاج الملوك بوري حتى لا يكسب عداء ابيه طغتكين ، فأكرمه ، وأرسل يعتذر لابيه ، ويبرر تدخله بخوفه من سقوطها في ايدي الصليبيين . (٣)

وفي سنة ١١٠٠ م في ٢١ اكتوبر ، بينما كان بلدوين البولوني امير الرها يجتاز طرابلس في طريقه الى بيت المقدس ليتولى عرشها بعد وفاة أخيه جودفري — اذ استقبله فخر الملك في طرابلس حيث اكرمه وأمده ورجاله بكل ما كانوا في حاجة اليه من ميرة وغذاء . وكان بلدوين قد تعرض لمخاطر جمة في طريقه قبل أن يصل الى طرابلس — كما حاول سلاجقة دمشق قطع الطريق عليهم — وتعهد فخر الملك لبلدوين بأن يحميه علما بتحركات عدوهما المشترك دقاق ملك دمشق السلجوقي (٤) ، كما أخبره بأن دقاق قد اقام كمينا له (٥) . ولكننا بالاطلاع على المصادر العربية التي استطعنا الحصول عليها لم نجد ما يشير من قريب أو بعيد الى وجود مثل هذا العداء ، ولكن يبدو أن فخر الملك منذ أن غادر

---

(١) ابن الاثير : الكامل ج ١٠ ص ٢١٠ حوادث سنة ٤٩٤ هـ
(٢) ابن القلانسي : الذيل ص ١٣٩ ، أبو الفدا : المختصر ج ٢ ص ٢١٣ ، ٢١٤
(٣) ابن القلانسي : الذيل ص ١٤٠
(٤) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ١ ص ٢٨٤
(٥) Gesta Francorum (Rec.Hist.Occid.)p.520; Fulcherii Cornotensis(Rec.Hist.Occid.)p.374-376;William of Tyre: op.cit. Vol.I p. 422 .

الصليبيون طرابلس في ١٦ مايو سنة ١٠٩٩ م ولمدة ثلاثة سنوات بعد ذلك ، أي قبل ان يشرع ريموند في حصار طرابلس ابتداء من سنة ١١٠٢ م لم تتعرض طرابلس لأي خطر ذو اهمية كبيرة — ونرى أن عدم تعرضه لخطر الصليبيين في تلك الفترة بالذات هي التي املت عليه حفاوته ببلدوين البولوني ، ليس هذا فقط ، بل تعهد أن يحيطهم علما بتحركات صديقه دقاق ملك دمشق السلجوقي .

وليس ادل على قيام العلاقات الودية بين طغتكين في دمشق وابن عمار في طرابلس من توجه فخر الملك بطلب المعونة الى طغتكين في سنة ٤٩٥ هـ (١١٠٢ م) عندما نزل ريموند الصنجيلي على طرابلس وحاصرها فطلب ابن عمار النجدة من امير حمص واتابك دمشق وأرسل اليهم يقول " من الصواب أن يعاجل صنجيل اذ هو في هذه المدة القريبة (١) " خصوصا بعد رحيل أعوان ريموند من بقايا حملة سنة ١١٠١ م الى بيت المقدس بعد فتح انطرطوس — ولكن الحظ لم يحالفهم فانهزموا وفروا الى دمشق وحمص ، وعاد ريموند من جديد لحصار طرابلس مما جعل فخر الملك يستنجد مرة ثانية بأمير دمشق وحمص فجاء عسكر مما للدفاع عن طرابلس (٢) .

وفي سنة ٤٩٨ هـ (١١٠٤ م) عندما استنجد ابن عمار بالامير سكمان ابن ارتق صاحب حصن كيفا وماردين بديار بكر في اقصى شمال العراق ، والامير جكرمش صاحب الموصل ، ورضوان صاحب حلب ، وطغتكين صاحب دمشق ، فان طغتكين لم ينجد ابن عمار في هذه الفترة كما يقول ابن القلانسي (٣) " لمرض اشتد به ولازمه "

ويبدو أنه لم يخرج لنجدة ابن عمار في طرابلس لانه سلب من سلاجقة دمشق الشرعيين الحكم لنفسه (٤) .

وليس أدل ايضا على العلاقات الحسنة بين دمشق وطرابلس في ظل ابن عمار من أنه حينما يئس ابن عمار من محاصرة الصليبيين له ، وعندما علم باستتباب الامر للسلطان محمد بن ملك شاه السلجوقي في بغداد خصوصا بعد وفاة

---

(١) ابن الاثير : الكامل جـ ١٠ ص ٢٤٤ حوادث سنة ٤٩٥ هـ
(٢) السيد عبد العزيز سالم ، طرابلس الشام في التاريخ الاسلامي ص ٩١
(٣) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٤٦
(٤) المرجع السابق : ص ١٤٤ ، ١٤٥ ، ابو الفدا : المختصر جـ ٢ ص ٢١٧ ، ابن الاثير : الكامل جـ ١٠ ص ٢٧٥ حوادث سنة ٤٩٨ هـ

أخيه بركياروق (بعد مرضه بالسل والبواسير)[١] في ربيع الآخر سنة ٤٩٨هـ ١١٠٥م وبعد نجاحه في اخماد فتنة الامير العربي سيف الدولة صدقة بن مزيد في الحلة في جنوب العراق وقتله في مارس سنة ١١٠٨ م رجب سنة ٥٠١ هـ[٢]

فان ابن عمار وهو في طريقه الى بغداد نزل بظاهر دمشق " وبالغ ظهير الدين في اكرامه وتناهى في احترامه "[٣] ، وسأله طغتكين الدخول اليه ، فدخل يوما واحدا الى الحمام وأدخله حمامه ، وقد صحبه ابن طغتكين تاج الملوك بوري لكسب رضاء السلطان لما اشيع عن والده من نكايات — ورأينا كيف عاد ابن عمار دون ان يحصل على أية مساعدة[٤] .

ورأينا كيف لم يجد حاكم عرقة — التابعة لامارة طرابلس ، حيث عبث الفرنج في نواحيها ، وأحس بعجزه عن حماية البلد من بش فيه غير طغتكين ، فأرسل اليه يطلب منه المعونة ، " ولأن يأخذه المسلمون خير لى دنيا وآخره من أن يأخذه الفرنج "[٥] .

وعندما نجح الصليبيون في الاستيلاء على طرابلس ، واخرجوا ابن عمار من جبله فان طغتكين لم يتغفل عنه بل اقطعه الزبداني من أعمال دمشق

ولم يقتصر الامر على هذا بل نجد طغتكين يقف بالمرصاد امام امراء طرابلس الصليبيين ، وأمام اهدافهم التوسعية .

ورأينا ذلك حينما شن برتراند هجوما على رفنيه بقصد افتتاحها ، فأسرع ظهير الدين طغتكين بالدفاع عنها ، وخيم تجاه حمص ، واستحصت رفنيه على برتراند ، وترددت بينه وبين طغتكين الرسل ، وانتهى الامر بالاتفاق على أن ينسحب برتراند بنواته ، نظير حصوله على ثلثغله اقليم البقاع بالاضافة الى استيلائه على حصن المنيطرة الذى سيطر على الطريق الموصل بين بعلبك وجبيل ، وكذلك حصن ابن عكار الذى يشرف على الطريق الموصل بين عرقه

---

(١) عماد الدين الاصفهانى : تاريخ دولة آل سلجوق : ص ٨٢ ، ٨٣ ، الراوندى : راحة الصدور وآية السرور ص ٢٢٤

(٢) ابن القلانسى : الذيل ص ١٥٩ ، ابن الاثير : الكامل جـ ١٠ ص ٤٤٠ حوادث سنة ٥٠١ ، أبو الفدا : المختصر جـ ٢ ص ٢٢٢

(٣) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٦٠

(٤) ابن الاثير : الكامل جـ ١٠ ص ٤٥٢ حوادث سنة ٥٠١ هـ

(٥) المرجع السابق ص ٤٦٨ حوادث سنة ٥٠٢ هـ

وحمص ، نظير تعهد برترانـد بأن يكف عن العبث في أراضي المسلمين ، وألا يهاجم حصن مصياف ، وحصن الطوفان ، وحصن الاكراد ، على أن يحمل أهلها عنهـا مالا معينا في كل سنة الى الافرنج[1] " . والحقيقة أن طغتكين لم يدخل في هذا الصلح الا نتيجة لسوء الاحوال الداخلية في دمشق من ذلك أنه وصله خبر أن كمشتكين الخادم التاجي الوالي ببعلبك قد ارسل الافرنج[2] بالتماس المصافاة منهم وبحثهم على شن الغارات على الأطراف . لذلك رأى طغتكين أن يهادن الفرنج ليتفرغ لوالي بعلبك الذي خرج عن طاعته وليس عن ضعف منه .

وليس أدل على ذلك من أنه حين خرج الامير شرف الدين مودود اتابك الموصل والامير سكمان القطبي صاحب ارمينيه وميافارقين والامير نجم الدين ايلغازي بن ارتق لمهاجمة الرها سنة ٥٠٣ هـ ، ١١١٠ م وخروج زعماء الفرنج طنكرى صاحب انطاكية وابن صنجيل صاحب طرابلس والملك بغدوين لانجاد الرها[3] . وما أن علم طغتكين بذلك حتى سار الى سلميه ومنها الى الرقة وقلعة جعبر حيث أخذ يترقب اخبار الفرنج . ولما علم بهزيمة الفرنج وذهاب الدبوس الاسلمية الى الرها لمحاصرتها ارسل شطرا وافرا من عسكره الى النازلين على الرها لمعونتهم ، وعاد هو الى دمشق لحمايتها .

وفي عام ٥٠٤ هـ (١١١١م) اراد بلدوين أن يهاجم طبريه التابعة لدمشق ولعل الدافع له لمثل ذلك الهجوم هو شعوره بقوة دمشق ووقوفها حائلا أمام اغراضه التوسعية رغم وجود هدنه بينهما — لذلك كتب " الى ابن صنجيل صاحب طرابلس يلتمس منه الوصول اليه في عسكره ليجتمع معه في طبريه "[4] وازاء ذلك فقد طلب طغتكين النجدة من رضوان صاحب حلب وأرسل اليه رسول يقول له " اذا لم تكن على اثقالهم وتحاوبهم في نصرة الباطل فلتكن على مثل ذلك في نصرة الحق[5] " وبالرغم من عدم محاولة رضوان لطغتكين فان طغتكين استطاع أن يجبرهم على طلب المهادنة " على أن يكون لبغدوين النصف من ارتفاع جبل عوف والسواد والجبانيه مضافا الى ما في يده ومن هذه

---

(١) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٦٥
(٢) المرجع السابق ص ١٦٦
(٣) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٦٩
(٤) ابن القلانسي : الذيل ص ١٧٤
(٥) ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك جـ ١ ص ٤٧

الاعمال التي يليها في ايدي العرب من آل جراح وكتب بينهما هذا الشرط ورحل كل منهما منكفئا الى عمله (١) .

وفي سنة ١١١١م (٥٠٥ هـ) نزولا على طلب المسلمين من اهل حلب بسبب تخاذل رضوان صاحبها وهزيمته على يد تنكرد واضطراره الى دفع جزية كبيرة الى امير انطاكية (٢) . وفي نفس الوقت وصلت سفارة من الامبراطور الكسيوس الى السلطان محمد السلجوقي يستعد به على الصليبيين ، أن أرسل السلطان السلجوقي حملة بقيادة الامير سيف الدين مودود صاحب الموصل وصحبته الامير احمد بل صاحب مراغة وسكمان القطبي صاحب ميافارقين . وقد كتب هؤلاء الامراء الى الامير ظهير الذين اتابك " بالوصول اليهم ورد التدبير فيما يعتمدون عليه اليه ووصل اليه كتاب السلطان بمثل هذه الحال (٣) "

وحاول طنكين توجيه هذه الحملة لغزو طرابلس " ويعدهم حمل ما يحتاجون اليه من الميرة من دمشق وعلفها وان ادركهم الشتاء أنزلهم في بلاده فلم يفصلوا وتفرقوا (٤) "

والواقع أن طنكين خاف على ملكه كما يقول ابن الاثير من انه " اطلع من الامراء على نيات فاسدة في حقه ، فخاف أن تؤخذ منه دمشق ، فشرع في مهادنة الفرنج سرا (٥) .

وفي عام ١١١٣م قام بلدوين ملك بيت المقدس بمهاجمة دمشق (٦) انتقاما من طنكين لموقفه منه في صور ـ وازاء هذا الموقف اضطر طنكين الى الاستنجاد بمودود وعزم على مهاجمة بلدوين في طبريه . وفعلا قام مودود وطنكين بمحاصرة طبريه وأخذوا ينهبون ويأسرون " وكان ممن أسر ملكهم بلدوين ، فلم يعرف فأخذ سلاحه وأطلق فنجا (٧) .

---

(١) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٧٤
(٢) ابن الاثير : الكامل ج ١٠ ص ٤٨٢ حوادث سنة ٥٠٤ هـ
(٣) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٧٥
(٤) المرجع السابق ص ١٧٧
(٥) ابن الاثير : الكامل ج ١٠ ص ٤٨٧ حوادث سنة ٥٠٥ هـ
(٦) اسامة بن منقذ : الاعتبار ص ١١٤ ، حسن حبشي : نور الدين والصليبيون ص ١٧
(٧) ابن الاثير : الكامل ج ١٠ ص ٤٩٦ حوادث سنة ٥٠٧ هـ

وكان بلدوين قد استنجد ببونز Pons (١) حاكم طرابلس وروجر الصقلي حاكم انطاكيه ، وغيرهم من امراء الفرنج ، فقويت نفوسهم ، ولكن المسلمين احاطوابهم من كل ناحية وصعد الفرنج الى جبل غرب بحيرة طبرية وظلوا به ستة وعشرين يوما والمسلمون بازائهم يرمونهم بالنشاب فيصيبون من يقرب منهم ومنعوا الميرة عنهم لعلمهم يخرجون الى قتالهم ، فلم يخرج منهم أحد (٢) ورجع المسلمون منصورين الى دمشق (٣) واذن مودود لعساكره بالعودة الى ديارهم ودخل دمشق ليقيم عند طغتكين للربيع فدخل الجامع ليصلي الجمعة فوثب عليه باطني قتله - فقيل أن الباطنيه الذين بالشام خافوه فقتلوه رغم أن الباطنيين خافه فوضع عليه من قتله (٤) .

وكان نتيجة لهذه الحادثة ونتيجة لخوف طغتكين من انتقام السلطان ان عقد معاهدة مع بلدوين ليأمن جانبه اذا اراد السلطان الانتقام " ولتعمر الاعمال بعد الاخراب وتأمن السوابل من شر المفسدين والخراب فاستقرت هذه الحال بينهما واستحلف كل واحد منهما صاحبه على الثبات والوفاء واخلاص المودة والصفاء (٥) "

ولكن هذه المعاهدة من جانب بلدوين لم تقف حائلا امام بونز الذي اراد ان يوسع ممتلكاته على حساب دمشق فقد استطاع بونز عام ١١١٥ م (٥٠٩ هـ) الاستيلاء على قلعة رفنيه التي تسيطر على مدخل البقيعة من جهة وادي نهر العاصي والتي جرى تحصينها . ولكن طغتكين حين اتاه الخبر بغلو رفنيه من عسكر بث عنها عساكره فاستردها " وأخذ كل من فيه من الفرنج أسيرا (٦) .

---

(١) Fulcherii Cornotensis (Rec.Hist.Occid.)Vol.3 p.426.

(٢) ابن الاثير : الكامل جـ ١٠ ص ٤٩٦ حوادث سنة ٥٠٧ ،
William of Tyre:op.cit. Vol.1 p. 520

(٣) ابو الفدا : المختصر في اخبار البشر جـ ٢ ص ٢٢٦

(٤) المرجع السابق ص ٢٢٦ ، ابن الاثير : الكامل جـ ١٠ ص ٤٩٧ حوادث سنة ٥٠٧ هـ ، ابن القلانسي : الذيل ص ١٨٧ ، ١٨٨

(٥) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٩٠

(٦) ابن الاثير : الكامل جـ ١٠ ص ٥١١ حوادث سنة ٥٠٩ هـ ، أبو الفدا : المختصر جـ ٢ ص ٢٢٩ ، سعيد عاشور : الحركة الصليبية ص ٢٧٨ .

وفي العام التالي ايضا لم يكف بونز عن محاولاته الاغارة على املاك دمشق فنجده يحاول الاغارة على حصن عكار ولكن طغتكين استطاع أن يصده - ولكن بونز لم يكف عن غاراته على دمشق فأغار على ناحية البقاع وذلك في الوقت الذي وصل فيه سيف الدين البرسقي صاحب الموصل الى دمشق في بعض عسكره لمعونة ظهير الدين اتابك فاتفقوا على مهاجمة بونز فهجموا عليه على حين غرة منه ونجحوا في صده عن البقاع " وذكر الحاكي المشاهد العارف أن المفقود المقتول من الافرنج الخيالة والسرجندية الرجالة والنصارى الخيالة والرجالة في هذه الوقعة ما يزيد على ثلثة آلاف نفس (١) "

وعاد الاثنان بعد ذلك الى دمشق حيث رجع البرسقي الى الموصل . ولم ينس بونز حاكم طرابلس حصن رفنيه ولم يشأ ان يفقده لذلك شيد الامير بونز قوى مرتفع على ضربة منها قلعة بحرين لشن الغارات دائمة على رفنيه في نهاية مارس ١١٢٦ م (٥٢٠ هـ) . ودعا بونز بلدوين الثاني ملك بيت المقدس لمساعدته في التغلب على رفنيه ،فلم يتردد بلدوين في اجابته الى طلبه ، وحين رأى شمس الخواص ذلك استنجد بطغتكين اتابك دمشق والبرسقي اتابك حلب والموصل . ولكن جيوش بونز وبلدوين بعد حصار ثمانية عشر يوما تمكنت من دخولها قبل أن تهب جيوش طغتكين والبرسقي لانقاذها .

وقد كان لرفنيه اهمية عظيمة بالنسبة للصليبيين (٢) ، لانها حمت كونتيه طرابلس ، وضمنت الاتصال بين بيت المقدس وانطاكيه . وهكذا ظل طغتكين للصليبيين (شاغل ومانع عن بعض اغراضهم) حتى توفي سنة اثنين وعشرين (٣) وخمسمائة (غرابيو سنة ١١٢٨ م) فخلت البلاد بالمره

---

(١) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٩٨

(٢) السيد عبد العزيز سالم : طرابلس الشام ص ١٥٠ ، ١٥١ ،
Fulchori (Roc.Hist.Occid.)p. 477 .

(٣) ابن الاثير : التاريخ الباهر ص ٢٨ ؛ أبو الفدا : المختصر ج ٢ ص ٢٤٠ ،
ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٢١٨ ، ٢١٩

امارة طرابلس والباطنيـــة (الاسماعيليـــة) :

وفد على الشام من فارس احد زعماء الباطنية واسمه بهرام ، فنزل على حلب ومنها الى دمشق حيث عهد اليه برعاية طغتكين (١) " وأكرم لاتقاء شره وشر جماعته " وعندما اتاق طغتكين الى خطر الباطنية أخذ يفكر في التخلص منهم ، ولكنه توفي في فبراير سنة ١١٢٨ م (٢) .

وبعد مقتل بهرام بيد أهل وادي التيم (٣) ، انتقاما منه لقتله أحد مقدميهم واسمه برق بن جندل - اقام الوزير الدمشقي ، ابي علي طاهر بن سعد المزدغاني - عوضا لبهرام في دمشق رجلا منهم يسمى ابا الوفا الذي علم امره بدمشق . ودبر الوزير المزدغاني مؤامرة مع الصليبيين وراسلهم ليسلم اليهم مدينة دمشق مقابل اعطائه - هو والاسماعيلية مدينة صور بدلها (٤) . وتقرر بينهم الميعاد يوم الجمعة والمسلمون في المساجد لفتح ابواب دمشق للصليبيين . ولكن المؤامرة انكشفت ، فاستدعى تاج الملوك المزدغاني اليه وقتله وأحرق جثته (٥) . وأمر بقتل الاسماعيلية بدمشق ، ولما وصلت هذه الاخبار الى الباطنية ببانياس فاستنجد الداعي اسماعيل بالصليبيين وعرض عليهم تسليم حصن بانياس اليهم " ليأمن بهم " (٦) ولكنه ما لبث ان مات بعد أن مرض (بعلة الزرب) وبعد أن سلم القلعة (بانياس) اليهم . وكان لحصول الفرنج على بانياس اثره في طمعهم في الحصول على دمشق فاجتمعوا كلهم من ايدسا جوسلين دي كورتناي ، وانطاكيه - بوهيموند الثاني - وطرابلس ، برنز - والساحل ، ووصل في البحر ملك كند - فولك الأنجوي - الذي قام مقام بلدوين الهالك - بلدوين الثاني (٧) مما

---

(١) ابن القلانسي : الذيل ص ٢١٥ ، ابن الاثير : الكامل حوادث سنة ٥٢٠ هـ ، ابو الفدا : المختصر ج ٢ ص ٢

(٢) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ١ ص ٥٥٨

(٣) ابو الفدا : المختصر ج ٢ ص ٢ ، ابن القلانسي : الذيل ص ٢٢٢

(٤) Setton: op. cit. Vol. 1 -p. 429
ابن الاثير : الكامل ج ١٠ ص ٦٥٦ حوادث سنة ٥٢٢ هـ ، سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ١ ص ٥٥٩ ، بينما يرى ابو الفدا أن الذي راسل الفرنج هو ابا الوفا : المختصر ج ٢ ص ٢

(٥) النويري : نهاية الارب ج ٢٥ ورقة ٤١ ، ابن الاثير : الكامل ج ١٠ ص ٦٥٧ حوادث سنة ٥٢٢ هـ ، ابو الفدا : المختصر ج ٢ ص ٢

(٦) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٢٤ ، ابن الاثير : الكامل ج ١٠ ص ٦٥٧ حوادث سنة ٥٢٢ .

(٧) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٢٤

دفع تاج الملوك الى الاستنجاد ببغداد[1] كما رحب بما عرضه عليه زنكى من محالفته ضد الصليبيين[2]. وكان فى ذلك الوقت قد أخذ نجم زكى يعلو حتى اصبح أميرا على الموصل والجزيرة والشام وأخذ يعمل على جمع شمل الامارات الاسلامية ، تحت قيادته . فبدأ بالاستيلاء على البوازيج ثم الموصل ، ثم جزيرة ابن عمر ، ثم نصيبين ، ثم سنجار ، فالخابور ، فحران ، ثم سار الى البلاد الشامية ، فاستولى على بزاعة ، ومنبج ، ثم استولى على حلب وتزوج ابنة رضوان . ثم راسل تاج الملوك بورى ، واتفقا على محاربة الفرنج وأرسل بورى ابنه سونج ، صاحب حماه — بمساكره وأمره بخدمة زنكى[3] ، والتقت عدد الجيوش المجتمعة مع تاج الملوك بورى ثمانية آلاف فارس وأنزلوا بالفرنج هزيمة منكرة وعاد المسلمون الى دمشق لم يمسسهم قرح .

ولم يغفر الباطنية لبورى موقفه منهم فعملوا على قتله ، ولكنهم لم يصيبوا منه مقتلا وان ظل أحد الجروحات ينتفض عليه بين الحين والآخر حتى مات بسببه فى يوم الاثنين ٦ يونيو سنة ١١٣٢ م (٢١ رجب سنة ٥٢٦ هـ) وخلفه ابنه شمس الملوك اسماعيل الذى كان يؤثر السلام مع الفرنج ليتفرغ لخطر عماد الدين زنكى ويتضح ذلك من موقفه من حاكم بيروت الذى اخذ يتعدى لتجارة دمشق . فان شمس الملوك اسماعيل أخذ يراسله فى امر اعادة ما سلبوه ولكنهم رفضوا .

ونتيجة لذلك اضطر شمس الملوك اسماعيل الى مهاجمة بانياس فاستولى عليها[4] فى ٢١ ديسمبر سنة ١١٣٢ م الموافق يوم الاحد غرة صفر سنة ٥٢٧ هـ

وكان نتيجة لسوء سيرة اسماعيل فى دمشق أن استنجد بزنكى " ليسلمها اليه طائعا ويمكنه من الانتقام من كل من يكرهه " ولكن والدة اسماعيل صفوة الملك قتلته وولت اخاه شهاب الدين محمود بن بورى الذى لم تكن

---

(١) سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان ص ١٢١ ، ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٢ ص ٢٠٠

(٢) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ١ ص ٥٦٦

(٣) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٢٧ ، ابن واصل : ج ١ ص ٤١

(٤) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٣٦ ، ابن الاثير : الكامل ج ١٠ ص ٦٨٤ حوادث سنة ٥٢٧ هـ ، ابو الفدا : المختصر ج ٣ ص ٧

Sotton : op. cit. Vol. I - p. 433 .

في يده السلطة بل كانت في يد معين الدين أنر الذي قوى التحالف مع الفرنج ليقف ضد اطماع زنكي مما جمد الموقف في بلاد الشام لفترة

وفي عام ١١٢٧ م (٥٢٠ هـ) تعرضت دمشق لبعض الفتن والاضطرابات ظهرت خلالها شخصية احد المماليك واسمه بزواش الذي " صار مقدم العسكر واليه الحل والعقد "(١) فقام هذا الامير بغزو امارة طرابلس فسار بعسكر دمشق واجتمع معه من الغزاه المتطوعة والتركمان ايضا خلق كثير(٢) ، ودارت المعركة بين الدماشقة وبونز امير طرابلس فقتل الاخير في اواخر مارس سنة ١١٢٧ م ، وأسر عدد كبير من اتباعه فضلا عن الغنائم الكثيرة التي حصل عليها المسلمون(٣) .

وحين قتل شهاب الدين محمود بن بوري اتابك دمشق اواخر يونيو سنة ١١٢٩ م بأيدي بعض غلمانه استدعى انر اخاه جمال الدين محمد بن بوري امير بعلبك ليحل محل اخيه القتيل ، وفي ذلك الوقت استولى زنكي على بعلبك وسار الى دمشق ولم يكد زنكي يحاصر دمشق حتى توفي جمال الدين محمد بن بوري واختير مجير الدين ابق ابن جمال الدين محمد اتابكا على دمشق(٤) . وكان نتيجة لهذا الهجوم أن ارسل معين الدين أنر الى الملك عزاك يطلب منه مساعدته ضد زنكي ، ويخوفه من زنكي ان ملك دمشق كما تعهد معين الدين ان يدفع له عشرين الف دينار شهريا طيلة مدة الحملة . هذا بالاضافة الى مساعدته في الاستيلاء على بانياس وكان نتيجة لذلك ان ترك زنكي حصار دمشق سنة ١١٤٠ م ثم قام بعد ذلك فولك ومعين الدين انر للاستيلاء على بانياس تنفيذا للاتفاقية وقام ريموند دي بواتيه امير انطاكيه وريموند الثاني امير طرابلس لمساعدة فولك واستسلمت بانياس في يونيو سنة ١١٤٠ م بعد مقتل حاكمها ابراهيم بن طرغت(٥) .

وبعد وفاة زنكي وهو على حصار قلعة جعبر في منتصف سبتمبر سنة ١١٤٦ م (٥ ربيع الآخر سنة ٥٤١ هـ)(٦) استطاع ابنه نور الدين محمود ان يعقد اتفاقية

---

(١) ابن الاثير : الكامل جـ ١١ ص ٣٨ ، ٣٩ حوادث سنة ٥٢٠ هـ
(٢) المرجع السابق : حوادث سنة ٥٢١ هـ ، ابن القلانسي : الذيل ص ٢٥٨
(٣) William of Tyre : op. cit. Vol. 2 - p. 82, 83 .
(٤) ابن القلانسي : الذيل ص ٢٦٩ — ٢٧١
(٥) سعيد عاشور : الحركة الصليبية : جـ ٢ ص ٥٩٩ ، ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٧٢ ، ٢٧٣
(٦) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٨٤ ، ابو الفدا : المختصر جـ ٣ ص ١٨

صلح بينه وبين معين الدين أنر في دمشق في مارس سنة ١١٤٧ م - كما تزوج من ابنة أنر (١) .

وعلى الرغم من الصلح بين نور الدين والدماشقة فقد ظل معين الدين أنر محافظا على حسن العلاقة مع الصليبيين كما ابقى على التحالف بين دمشق ، ومملكة بيت المقدس لان هذا التحالف في نظره كان بمثابة حجر الزاوية في ضبط ميزان القوى في بلاد الشام أمام ازدياد نفوذ الدولة الزنكية في حلب (٢) .

مسألة حوران :

كان نتيجة لجهل بارونات مملكة بيت المقدس أن قاموا بمساعدة التونتاش حاكم بصرى وصرخد الذى اراد أن يستقل عن دمشق ، لذلك لجأ الى الصليبيين وعرض عليهم استيلائهم على بصرى وصرخد مقابل معونتهم له في الاستقلال بحوران . وفعلا قبل بلدوين الثالث ملك بيت المقدس هذا العرض وحاول معين الدين أنر أن يذكر الصليبيين بالحلف الذى بينه وبينهم ، ويحذرهم من محالفة نور الدين مما يوقعهم في خطر جسيم ولكن الصليبيين لم يفهموا ذلك التحذير وعقد مؤتمر صليبى حضره امير انطاكيه وطرابلس ، وارسلوا الى انر يخبروه بانتهاء الهدنة ، وزحف الصليبيون على رأسهم بلدوين الثالث من طبرية الى حوران في مايو سنة ١١٤٧ م . وازاء ذلك الموقف استنجد معين الدين أنر بنور الدين الذى اسرع من حلب لنجدته في الوقت الذى خرج فيه على رأس جيش كبير من سلاجقة دمشق لسد طريق بصرى وصرخد ، واجتمع نور الدين ومعين الدين أنر عند صرخد ، واستطاعا الاستيلاء على بصرى وصرخد (٣) .

وهكذا فشلت حملة الصليبيين وانسحبوا من بصرى تحت تهديد جيوش نور الدين ومعين الدين أنر ، وفي ذلك الوقت كان من الممكن أن تعود المياه الى مجاريها بين دمشق والصليبيين لولا وصول

---

(١) حسن حبشى : نور الدين والصليبيون ص ٤٢

(٢) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ٦١٦

(٣) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٨٩

الحملة الصليبية الثانية التي انتهت بالفشل . وكانت وفاة معين الدين أنر سنة ١١٤٩ م ايذانا باضمحلال البيت البوري في دمشق وذلك لضعف مجير الدين ابق ، وسوء الحالة الاقتصادية في دمشق ، ووجد نور الدين محمود هذه الظروف فرصة لتحقيق الجبهة الاسلامية المتحدة " وعلم أنه ان رام ملكه بالقوة والحصار تعذر عليه ، لأن صاحبه كان متى رأى شيئا من ذلك راسل الفرنج واستمالهم واستعان بهم " (١) لذلك استخدم اساليب السياسة الى ان ملك دمشق بالأمان في ٢٥ ابريل سنة ١١٥٤ م (عاشر صفر سنة ٥٤٩ هـ) (٢) .

* * *

(١) ابن الاثير : التاريخ الباهر ص ١٠٧

(٢) ابن الاثير : التاريخ الباهر ص ١٠٦ ، ١٠٧ ، الكامل جـ ١١ ص ١٩٧ حوادث سنة ٥٤٩ هـ .

الفصل الرابع

علاقة امارة طرابلس بالدول والامارات الصليبية

علاقة امارة طرابلس بالدولة البيزنطية

علاقات سياسية وحربية - علاقات كنسية - علاقات اقتصادية - علاقات ثقافية .

علاقة امارة طرابلس بمملكة بيت المقدس

علاقات سياسية وحربية - علاقات كنسية - علاقات اقتصادية - علاقات ثقافية .

علاقة امارة طرابلس بامارة انطاكيه

علاقات سياسية وحربية - علاقات كنسية - علاقات اقتصادية

علاقة امارة طرابلس بامارة الرها

علاقات سياسية وحربية - علاقات كنسية - علاقات اقتصادية

علاقة امارة طرابلس
بالدولة البيزنطية

كان هدف الامبراطورية البيزنطية عندما استنجدت بالغرب الاوربي ضد السلاجقة هو مساعدتها في استرداد كافة الممتلكات البيزنطية القديمة من السلاجقة وهي الممتلكات الممتدة من نيقيه حتى انطاكيه والتي تشمل الاراضي التي خضعت للامبراطورية قبل أن غزوها الاتراك السلاجقة (١) واذا كان الصليبيون لم يحققوا للامبراطورية البيزنطية غرضها ولم يفوا لها بوعدهم في رد اراضيها اليها ، وخاصة مدينة انطاكيه التي أقام فيها الصليبيون امارة لهم في شمال الشام ، فان الموقف اختلف بالنسبة لطرابلس التي لم تكن في يوم ما من ممتلكات الدولة البيزنطية ، بل ان الامبراطور نقفور فوقاس (٩٦٧ - ٩٦٩ م) اخفق امام اسوار طرابلس ، وكذلك فشل كل من حنا الأول زمسكيس (٩٦٩ - ٩٧٦م) الذي استعصت عليه اسوار طرابلس وباسيل الثاني (٩٧٦ - ١٠٢٥م) الذي لم يتمكن من انتزاع تلك المدينة . وهكذا لم يكن للامبراطور البيزنطي الكسيوس أي مطمع خاص في طرابلس .

وعند وصول ريموند الى القسطنطينية في ابريل سنة ١٠٩٧م سمع بأخبار المحادثات التي جرت بين بوهيمند وبين الامبراطور فأدرك انها تحمل معنى سيادة بوهيمند على بقية رجال الحملة الصليبية ، كما انتشرت الشائعات بأن بوهيمند سيصبح القائد الامبراطوري ، ومعنى هذا أنه سيجد نفسه تحت قيادة بوهيمند ، وهذا ما لا يمكن ان يقبله ريموند . لذلك كله رفض ريموند بشدة تلبية رغبة الامبراطور في أن يقسم له يمين الولاء ، ولكنه قال : انه اذا اصبح الامبراطور قائد الجيوش الصليبية في قتالهم ضد المسلمين فانه سوف يخدم تحت تصرفه (٢) . واجتمع مجلس الاقطاب مؤلفا من ريموند الصنجيل وبوهيمند النرماندي وجودفرى دي بويون والامبراطور الكسيوس ، وكان النقاش بين الأول والاخير وأخذت الامور تتعقد بعد أن أثار الصنجيل ما أثار من مشكلة

---

(١) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ١ ص ١٦١

(٢) Setton : op. cit. Vol. I - p. 287 .

مصاحبة الامبراطور للحملة ثم تطور الامر الى ما انذر بوقوع صدام بين الطرفين حتى اندفع بوهيمند وأعلن أنه سوف يكون الى جانب الامبراطور اذا لجأ (ريموند الصنجيل الى القوة العسكرية (١) . وبعد ذلك بدأت محاولات التقريب بين وجهتي نظر المتنازعين حيث وافق ريموند على أن يقسم يمينا يتعهد فيه بالمحافظة على حياة الامبراطور وشرفه وألا يقوم هو أو أحد من اتباعه بعمل شيء يضر بالامبراطور (٢) . وأعطى رحيل بوهيمند فرصة لريموند في تصفية الجو بينه وبين الكسيوس ، وكذلك كان للمندوب البابوي ادهيمار دور بارز في تحسين العلاقات بين ريموند والكسيوس . ولم يلبث أن اصبح ريموند صديقا شخصيا للامبراطور الذي احبه واحترمه (٣) وخاصة بعد أن صرح الامبراطور انه لا يمكن ان يقلد بوهيمند قيادة القوات الامبراطورية . وهكذا تغيرت سياسة ريموند تجاه الامبراطورية البيزنطية تغيرا تاما ، وأدرك الكسيوس انه صار حليفا لشخص تكون يستطيع ان يستخدمه في مناوءة بوهيمند (٤) .

وبفضل قيام الامبراطور بمساعدة الصليبيين استطاع الصليبيون فتح انطاكيه في ٣ يونيو سنة ١٠٩٨ م ، وان كانت الروايات تختلف في اسباب انسحاب القائد البيزنطي تاتكيوس من امام اسوار انطاكيه قبل ان يتم فتحها ، وقد ترتب على انسحاب القائد البيزنطي ان تنكر الامراء الصليبيون لوعودهم للامبراطور البيزنطي على اساس أن البيزنطيين انفسهم هم الذين بدأوا بنقض اتفاقية القسطنطينية ، وتخلوا عن مساعدة الصليبيين وامدادهم بما يحتاجون اليه من معونة ، فضلا عن ان مندوب الامبراطور لم يثابر مع الصليبيين امام انطاكيه (٥) وانما تركهم ولاذ بالفرار .

وهكذا وضع بوهيمند يده على انطاكيه وتخلص من الحامية التي وضعها ريموند في انطاكيه بقيادة وليم ارمنجير (٦) . ورفع علمه الخاص ، في حين احتفظ ريموند بالسيطرة على الجسر (جسر الحديد) وقصر باغي سيان (٧) ، كذلك لجأ

(١) سعيد عاشور : الحركة الصليبية جـ ١ ص ١٥٨ ، حسن حبشي : الحروب الصليبية الاولى ص ٧٩ ،
Setton:op.cit.Vol.I-p.287 .

(٢) Cam.Med.Hist. Vol. 5 -p.283,Setton:Vol. p.287 .

(٣) سعيد عاشور : الحركة الصليبية جـ ١ ص ١٥٨ ، حسن حبشي : الحروب الصليبية الاولى ص ٧٩

(٤) Runciman: op. cit.Vol. 1 -p.p.163, 164 .

(٥) سعيد عاشور : الحركة الصليبية جـ ١ ص ١٩٦

(٦) Runciman: op. cit. Vol. 1 -p.p. 260, 261 .

(٧) Setton: op. cit. Vol. I - p. 326 .

بوهيمند الى خلع بطرك انطاكيه الأرثوذكسي وأحل محله بطرقا كاثوليكيا • وكان المفروض من الناحية النظرية ان يرد الصليبيون انطاكية الى الامبراطورية البيزنطية بناء على ما اتفق عليه معظم زعمائهم مع الكسيوس سنة ١٠٩٧ م ولا سيما وأن انطاكيه كانت من ممتلكاته حتى سنة ١٠٨٥ م حين استولى عليها السلاجقة • ولكن بوهيمند رأى أن انطاكيه يجب ان تكون ملكا خاصا له ، بوصفه هو الذي دبر سرا أمر دخول الصليبيين اليها ، ولا معنى لتسليمها للامبراطور الذي لم يكلف نفسه ابدا عبء المشاركة في اهوال القتال الى جانب الصليبيين في قتالهم المسلمين ، بل ان قائده تخلى عنهم قبل أن تسقط المدينة في ايديهم (١) • وعندما ادرك بوهيمند أنه لن ينال انطاكيه برضاء الامبراطور البيزنطي صمم على أن يمتلكها رغم ارادة الامبراطور ، فتحولت سياسته من مهادنة الامبراطورية واحترام حقوقها الى معاداتها وسلب حقوقها ، وعندئذ انقلبت سياسة ريموند هو الآخر فأصبح من المنادين بالتمسك بحقوق الامبراطورية البيزنطية • وهكذا انقلب الموقف رأسا على عقب فصار بوهيمند وهو اول من عقد اتفاقية مع الامبراطور البيزنطي تعهد له فيها بالولاء ينادي بالخروج عن ذلك الاتفاق ، في حين امسى ريموند وهو الامير الوحيد من امراء الحملة الذي لم يتقيد بالاتفاقية السابقة ، ولم يقسم يمين الولاء للامبراطور هو المدافع عن حقوق الامبراطور والمنادي باحترام الاتفاقية التي عقدها الصليبيون مع الكسيوس كومنين (٢) •

وقد أخذت سياسة ريموند تجاه الامبراطور تظهر في وضوح عندما استولى على اللاذقية في صيف سنة ١٠٩٨ م ، اذ سلمها للبيزنطيين بعد قليل مما قوى الرابطة بينه وبين الامبراطور البيزنطي الكسيوس كومنين (٣) • كما أن ريموند لم يسلمه فقط اللاذقية بل سلمه ايضا بانياس ومرقيه قبل أن يرحل ريموند مع الصليبيين الى بيت المقدس (٤) •

وفي صيف سنة ١٠٩٩ م قدم اسطول ليبزا مكون من ١٢٠ سفينة ليشارك الصليبيين ضد المسلمين فاستغله بوهيمند في حصار اللاذقية واشترك دابمورث أسقف بيزا مع بوهيمند في هذا الحصار • ولولا رجوع ريموند لسقطت اللاذقية في يد بوهيمند ، لأن الاخير لم يلبث أن انسحب ، وكذلك الاسطول البيزي عند اقتراب

---

(١) حسن حبشي : الحرب الصليبية الاولى ص ١٤٦ ، ١٤٧
(٢) سعيد عاشور : الحركة الصليبية جـ ١ ص ٢٢٢
(٣) سعيد عاشور : " " " ٣٤٤
(٤) Setton: op. cit. Vol. I - p. 373 .

ريموند حتى لا يقع صدام بين القوات الصليبية بالشام بعضها وبعض .

واذا كان بوهيمند قد فشل في الاستيلاء على اللاذقية فان ابن اخته تانكرد الذي تولى امرانطاكية اثناء وقوع خاله في اسر الملك غازي كمشتكين استغل الظروف السيئة التي كانت فيها الامبراطورية البيزنطيه عقب الكارثة التي حلت بالحملة الصليبية سنة ١١٠١ م فاستحوذ بالجنوية ووعدهم بنصف دخل ميناء اللاذقية . وكانت اللاذقية قوية التحصين ، اذ وجدت فيها بعض قطاع الاسطول البيزنطي فضلا عن فرقة من جيش ريموند الصنجيل داخلها للدفاع عنها . ولكن ريموند بعد أن انتهى من امر الحملة اللمباردية الفاشلة في شمال شرق الاناضول عاد الى الشام ومر باللاذقية فأمر رجاله بالانسحاب عن المدينة والالتحاق به فبقيت الحامية البيزنطية باللاذقية دون مساندة من البروفنسالبين مما مكن تانكرد من الاستيلاء عليها بعد حصار دام سنة (١) .

ولا أدل على التقارب بين ريموند الصنجيل والامبراطورية البيزنطية في ذلك الدور من انه عندما لجأ ريموند الى بناء قلعة على الجبال المقابلة لطرابلس لاحكام الحصار عليها وقطعها عن العالم الخارجي (٢) . أن أمده الامبراطور البيزنطي (٣) بمواد البناء والبنائين المهرة من قبرص . وكانت هذه القلعة اولى القلاع العديدة التي بناها الصليبيون على التلال المحاذية للشاطئ (٤) .

على أنه يتضح لنا أن ريموند الصنجيل لم يكسب كثيرا من وراء محالفته للامبراطور البيزنطي . بل انها جعلت زملاءه الصليبيين ينظرون الى هذه العلاقة على انها نوع من الخيانة . كما اتهم الامبراطور الكسيوس في ريموند أنه صديق ضعيف (٥) .

وهكذا ظل ريموند يظهر دائما بمظهر التابع المخلص للامبراطور حتى وفاته في ٢٨ فبراير سنة ١١٠٥ م ، وعندئذ خلفه ابن عمه وليم جوردان كونت سردانى (السرداني) فاتبع نفس سياسة سلفه في المحافظة على التحالف مع بيزنطه . وبناء

---

(١) Runciman: op. cit. Vol. 2 p. 34, Setton: op. cit. V.I p.396

(٢) ابن الاثير : الكامل ج ١٠ ص ٤١٢ حوادث سنة ٤٩٩ ، سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ١ ص ٣٦٠

(٣) Runciman: op. cit. V.2 p. 60 ; Setton: Vol.I p.396.

(٤) Hitti: op. cit. p.p. 287 , 288

(٥) Runciman: op. cit. Vol. 2. p. 62 .

على طلب الامبراطور البيزنطي الكسيوس انفذ اليه حاكم جزيرة قبرص رسولا يتلقى منه الولاء وفي مقابل ذلك يبذل له الهدايا القيمة . وترتب على موافقة وليم جوردان أن انتظم ارسال المؤن من قبرص الى الفرنج امام طرابلس (١) ، واسهمت القوات البيزنطيه من حين لاخر في الحصار المفروض على المدينة . وكان ملك الروم يأمر اصحابه بالذقية ليحملوا الميرة الى هؤلاء الفرنج الذين على طرابلس (٢) .

وبينما كان برتراند ايضا في طريقه صوب الشرق ذهب الى زيارة القسطنطينيه كيما يضمن تأييد الامبراطور صديق والده ، ومساندته له . فأظهر الكسيوس الانحياز له والميل الى مساعدته واستقبله على أنه من ابنائه ، وتلقى برتراند هدايا ثمينة كثيرة ، وظفر من الامبراطور بوعد بما سوف يخصه به مستقبلا من مساعدات (٣) ، ثم اقسم مقابل ذلك يمين التبعية للامبراطور مجددا بذلك الحلف يمين امراء بروفانس والامبراطورية البيزنطيه (٤) .

وقد اختلف المؤرخون في تحديد التاريخ الذى اقسم فيه برتراند يمين الولاء للامبراطور البيزنطي ، فمنهم من قال انه حلف وهو في القسطنطينية ولكن هناك رأى آخر يقول ويحدد تاريخ قسم يمين الولاء في عام ١١١٢ م عندما قدم رسل بيزنطه يطلبون مساعدة برتراند ضد تانكرد (٥) .

ومهما يكن من أمر فانه يبدو أن برتراند عندما اقسم يمين التبعية للامبراطور سواء في القسطنطينية ام مؤخرا في طرابلس فانه كان يتصرف تصرفا يعبر عن ولائه واخلاصه الشخصي للامبراطور . من ذلك أنه رفض مساعدة تانكرد في الحملة التي اوشك على القيام بها للاستيلاء على المصيصة والمدن البيزنطيه في قليقيه . وقد غضب تانكرد لذلك الرفض ، وطلب من برتراند مغادرة امارته فورا ومنى رعاياه من أن يبيعوا له المئون والاقوات (٦) . كما طالبه بألا تطأ قدمه بعد ذلك ارض امارة انطاكيه (٧) .

---

(١) Runciman: op. cit. Vol.2 p. 62 .

(٢) ابن الاثير : الكامل جـ ١٠ ص ٤١٢ حوادث سنة ٤٩٩ هـ ، العيني : عقد الجمان حوادث سنة ٤٩٩ هـ

(٣) سعيد عاشور : الحركة الصليبية جـ ١ ص ٣٦٨

(٤) سعيد عاشور : الحركة الصليبية جـ ١ ص ٣٦٨ ، Runciman: op. cit. Vol.2 p. 65,66 ; Grousset: Vol. I p.p. 383-384 .

(٥) J. Richard: op. Cit. p. 28

(٦) Runciman: op. cit. Vol. 2 - p. 66 .

(٧) سعيد عاشور : الحركة الصليبية جـ ١ ص ٣٦٨

ونريد أن نقول هنا أن علاقة طرابلس بالامبراطورية البيزنطيه كانت تتأثر بعلاقة طرابلس بانطاكيه . ذلك أنه حدث بعد موت بوهيموند في ايطاليا سنة ١١١١ م ان طالب الامبراطور الكسيوس مرة اخرى بأنطاكيه من تانكرد وذلك طبقا للاتفاقية المعقودة بين الكسيوس وبوهيموند سنة ١١٠٨ م . ولكن تانكرد لم يستجب لمطالب الكسيوس ورفضها وعندئذ ارسل الكسيوس رسولا وهو بوطوميتس Butumites ليستميل برترام والملك بلدوين في تحالف ضد تانكرد . وتمهل برترام أمام هذه الفكرة ، الا أن رفض الملك بلدوين كان حاسما وفاصلا بين الاثنين (برترام - الكسيوس) . ومثل هذه الخطة كانت غير مناسبة ولا تتلاءم مع سياسة بلدوين تجاه وحدة الفرنجة وتعاونهم في حين ان هذه الخطة بالنسبة لبرترام كانت تعني انهاء الشجار (الخلاف) التاريخي منذ ايام والده (ريموند) مع النورمان في انطاكيه ، كما انها وضعت حدا للمكائد والدسائس مع الكسيوس (١) .

وواصل روجر سياسة تانكرد في انطاكيه ، اذ رفض تسليمها للامبراطور البيزنطي . ولما توفي برتراند في فبراير سنة ١١١٢ م (٢ شعبان سنة ٥٠٥ هـ) أقام ابنه بونز في الامر من بعده وهو طفل صغير " كفله اصحابه ودبروا امره مع تانكرد صاحب انطاكيه " (٢) وهذا الابن لم يشارك اباه في الميل الى البيزنطيين ، ولم يحاول تانكرد الذي عاش في بسلاطه زمنا والذي نصبه فارسا والذي تزوج من ارملته سيسليا الفرنسية . وبذلك حدث تقارب بين بلاطي انطاكيه وطرابلس وباعد ما بين طرابلس وبيزنطه .

وكان الكسيوس يأمل في ان يصير كونتات طرابلس عملاء له بالشام (٣) . ولذا اودع في طرابلس مبالغ كبيرة من المال للانفاق على حملات تشترك فيها مع طرابلس وبيزنطه ، ولكن نتيجة لعدم ارتباط بونز بيمين ولاء او تبعية للامبراطور البيزنطي ونتيجة للتقارب الذي حدث بين بلاطي انطاكيه وطرابلس نجد بوطوميتس سفير بيزنطه لدى الصليبيين يطلب اعادة ما بذله الكسيوس من اموال

ولم تسلم طرابلس الاموال له الا بعد ان هدد السفير بقطع ما يرد الى طرابلس من قبرص من المؤن ، ثم رأى انه من الحكمة ان يعيد الى بونز ما سبق ان وعد به

---

(١) Setton : op. cit. Vol. I -p.400 .

(٢) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٨١

(٣) Runciman: op. cit. Vol. 2 p.p. 137 , 138 .

برتراند شخصيا من الذهب والمنسوجات النفيسة ، وفي مقابل ذلك حلف بونز يمين الولاء للامبراطور . والراجح انها اليمين التي سبق أن اتخذها جده ريموند والتي لا تنتقص من قدر صاحبها (١) .

واستمرت طرابلس واليا للامبراطورية البيزنطية في عهد ريموند الثاني الذي اقسم يمين الولاء للامبراطور يوحنا كومنين في سنة ١١٣٧ م (٢) . وعندما ماتت الامبراطورة ايرين في نهاية سنة ١١٥٩ م وصلت ١١٦٠ م الى بيت المقدس سفارة برئاسة يوحنا كونتو ستيفانوس بصحبة كبير المترجمين بالبلاط البيزنطي ، ثيوفيلاكت الايطالي فطلبت الى الملك بلدوين ان يرشح اميره بالشرق الفرنجي تليق بأن تكون عروسا للامبراطور الأرمل . والواقع أنه لم يكن جديرا بالترشيح سوى اميرتين ، الاولى ماريا ابنة كونستانس اميرة انطاكيه والثانية ميليسند ابنة ريموند الثاني كونت طرابلس ، وكلتاهما كانتا ابنتي خالتي الملك بلدوين ، واشتهرتا بالجمال الفائق - واقترح بلدوين ترشيح ميليسند - فترجمه السفراء الى طرابلس لاخطار الاميرة . وانفق ريموند اموالا طائلة في تجهيز اخته وتدفقت عليها الهدايا من أمها هودرنا وخالتها الملكة ميليسند . ولكن لم يرد من القسطنطينية ما يشير الى موافقة الامبراطور . وارسل السفراء الى مانويل تقارير حافلة بالعاطفة والمودة عن شخصية ميليسند ، غير انهم اثبتوا ايضا في تقاريرهم شائعة عن ميلادها ، استندت الى ما كان معروفا من شجار وقع بين امها وابيها .

والواقع أنه لم يكن هناك ثمة شك حول شرعية مولدها غير أن شائعات الناس حملت الامبراطور على التردد (٣) . واذا اشتد القلق بريموند في اوائل صيف سنة ١١٦١ م انفذ الى القسطنطينية احد فرسانه اتوريزيز ليستوضح الامر ، وحوالي شهر اغسطس سنة ١١٦١ م عاد اوتو يحمل نبأ بأن الامبراطور عدل عن الخطبة . فاشتد غضب أخيها ريموند وطلب في غيظ وحنق تعويضا عن الاموال التي انفقها في تجهيز اخته . ولما لم يجب الى طلبه امر باعداد الاسطول المؤلف من اثنتي عشرة سفينة والذي كان قد جهزه لمرافقتها الى القسطنطينية فقاده للاغارة على سواحل جزيرة قبرص (٤) .

---

(١) J.Richard:op.cit. p. 29;Runciman: op.cit.Vol.2p.138

(٢) Runciman:op.cit. Vol.2 p. 307 .

(٣) Ibid : p. 381 .

(٤) William of Tyre:op. cit.Vol.2 p.292; Runciman:op.cit. Vol.2-p. 381 ;J.Richard: op. cit. p. 30

وبالرغم من هذا الموقف من جانب ريموند الثالث ، فان الامبراطور البيزنطي لم يتخل عن التعاون معه ، فاشترك البيزنطيون بقيادة قنسطنطين كولمان — حاكم قيليقيه البيزنطي — في انزال الهزيمة بجيش نور الدين محمود عند حصن الاكراد ، وهي الوقعة المعروفة بالبقيعة ، عندما عزم نور الدين على قصد طرابلس ومحاصرتها (١) . وكان اشدهم على المسلمين القائد البيزنطي (الدوقس الرومي) . وكذلك اشترك حاكم قيليقية وهو مقدم كبير من الروم مع بوهيمند الثالث امير انطاكيه وريموند الثالث امير طرابلس وجوسلين الثالث دي كورتناي ، في مقاتلة جيش نور الدين في حارم سنة ١١٦٤ م وهي الوقعة التي انهزم فيها الفرنج واسر كثير من مقدميهم وفيهم بوهيمند الثالث امير انطاكيه وريموند الثالث امير طرابلس وعامل بيزنطه على أرمينيه (٢) .

وقد حدث بعد هذه المعركة ان تحسنت العلاقة بين الدولة البيزنطيه وامارة انطاكيه اذ ان بوهيمند نفسه كان ينسب تحريره من الاسر الى نفوذ الامبراطور اكثر من نسبته الى أي عامل آخر ، فما كاد يطلق صراحه حتى زار في سنة ١١٦٥ م القسطنطينية شاكرا للامبراطور يده عليه ، مؤملا أن يمده بقية الدية التي تعهد بدفعها لنور الدين . بعد أن أمضى في الأسر نحو عام (٣)

وفي نفس هذا الوقت أي مع تحسن العلاقة بين بيزنطه وامارة انطاكيه ، أصبح البيزنطيون لا يهتمون بطرابلس وأصبح مظاهر ولاء طرابلس شيئا ليس كبير القيمة .

ولم تكن العلاقة بين الامبراطورية البيزنطيه وامارة طرابلس تقتصر فقط على هذه العلاقات السياسية والحربية بل كانت هناك ايضا علاقات دينية واقتصادية وفكرية .

أما عن العلاقات الدينية بين طرابلس وبيزنطه فاننا نجد الصليبيين في طرابلس لم يتعرضوا لاتباع المذهب الارثوذكسي وانما تركوا حرية العقيدة

---

(١) ابن الاثير : الكامل ج ١١ ص ٢٩٤ حوادث سنة ٥٥٨ هـ ، سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ج ٨ ص ١٥٠ ، ابو شامه : الروضتين ج ١ ص ١٢٧ ، ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ص ١٣٥

(٢) حسن حبشي : نور الدين والصليبيون ص ٨٩ ، ٩٠ ، ابو الفدا : البداية والنهاية ج ١٢ ص ٢٤٨ ، ابن قاضي شهبه : الكواكب الدرية في السيرة النورية ص ١٢٦ ، ١٢٧ ، ابن هاشم الدباغ : اعلام النبلاء ج ٢ ص ٤٥ ، احمد ابن علي الحريري : الاعلام والتبيين ورقة ١١ ، العيني : عقد الجمان حوادث سنة ٥٥٩ هـ

(٣) حسن حبشي : نور الدين والصليبيون ص ٩١ ،

Runciman: op. cit. Vol.2 p. 370 .

لجميع المسجعيين بما في ذلك السريان والارمن ، وسمحوا لهم باصلاح كنائسهم وزخرفتها بالفسيفساء والايقونات والصور وغيرها ، في حين بقي رجال الدين الارثوذكس في مناصبهم ، وكل ما هنالك هو أنه تم تعيين بعض رجال الدين من الكاثوليك في الاسقفيات الشاغرة (١) .

وعندما احتل ريموند الصنجيل مدينة البارة فانه حول جامعها الى كاتدرائية - فكانت الاولى في الشرق - واختار لها أحد رؤساء اساقفته وهو بطرس النورموني الذي ذهب الى انطاكيه ليرسم بواسطة البطريرك الاغريقي الارثوذكسي حنا الرابع (٢) .

ولكن هذه السياسة الودية تجاه الامبراطورية البيزنطيه وكنيستها تغيرت عندما اكتشف الصليبيون اتصالات الكسيوس مع الفاطميين ، اذ لجأ الصليبيون احيانا الى اضطهاد الارثوذكس الذين ينتمون الى الكنيسة الاغريقية البيزنطيه (٣) .

وكان من اوضح امثلة هذا الاضطهاد هذه الحادثة التي ذكرها المؤرخ وليم الصوري . فعندما رفض الامبراطور البيزنطي الزواج من اخت ريموند الثالث (ميلسند) كما اوضحنا فيما سبق امر الكونت سفنسه بمهاجمة املاك الامبراطور الساحلية - وقد قام رجال الكونت بتنفيذ اوامره على اوسع نطاق فهاجموا الكنائس التابعة لكنيسة بيزنطيه (٤) .

أما عن العلاقات الاقتصادية بين طرابلس وبيزنطه :

فمن ناحية العملة كان للعملة البيزنطيه احترام كبير وكان لها قيمتها في السوق الدولية وقد قام الصليبيون في طرابلس باستخدام الدينار البيزنطي في كثير من معاملاتهم التجارية الخارجية (٥) .

وقد اقام التجار اللاتين في فنادق طرابلس . وكانت الموازين البيزنطيه تستخدم في بلاد الغرب طول القرن الحادي عشر وأوائل القرن الثاني عشر وكثير

---

(١) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ١ ص ٢١٧

(٢) Setton: op. cit. Vol. I p. 325

(٣) Runciman: op.cit.Vol. 3 p. 473

(٤) William of Tyre : op. cit. Vol. 2 p. 292 .

(٥) Baynes (N) Moss:Byzantium and Introduction to East Roman civilization .p. 68

من المصطلحات العربية التجارية التي استخدمها الصليبيون انما انتقلت أولا من العرب الى القسطنطينية ثم اخذها الصليبيون واستعملوها عن ريق بيزنطه ومن هذه المصطلحات التجارية Bazar, Diner وفي الشئون البحرية (١) Admiral .

وكانت اسواق بيزنطه عظيمة الاهمية للشرق ومنتجاته عموما حتى قبل قدوم الصليبيين ، فالرحالة العرب كثيرا ما زاروا بيزنطه وأبدوا اعجابهم بثرائها واسواقها (٢) .

وكان الصليبيون في طرابلس يصدرون الحرير اذ توافرت تربية دودة القز في طرابلس حتى بلغ عدد الانوال اليدوية الخاصة بصناعة الحرير في مدينة طرابلس حوالي اربعة آلاف نول (٣) . وكذلك كانوا يصدرون اليها البسط الحريرية ، وكثير من المتاجر الشرقية التي كانت ترد الى بيزنطه انما كانت تمر على طرابلس بالذات بحكم قربها من ناحية ، وبحكم العداء بين انطاكية والامبراطورية البيزنطية من ناحية أخرى ، وحدث في بعض الحالات عندما كانت تسوء العلاقة بين طرابلس وبيزنطه ان تعرضت التجارة واموال التجار للنهب ومن ذلك ما حدث عندما ساءت العلاقة بين مانويل وريموند الثالث . اذ هاجم رجال ريموند التجار البيزنطيين وسلبوا اموالهم وبضائعهم (٤) .

ولم تكن تلك العلاقات السياسية والدينية والاقتصادية وحدها هي التي اوجدت ارابطة بين طرابلس وبيزنطه بل كان هناك أيضا علاقات في مجال الادب والصناعة والفن ، اذ من المعروف انه حين بدأت الحروب الصليبية كان المركزان الاساسيان للحضارة في الشرق هما القاهرة والقسطنطينية وكان الغرب في المرتبة الثالثة كما يشير جيبون (٥) .

وقد أخذ اللاتين بوجه عام وفي امارة طرابلس بوجه خاص بعض فنون بناء القلاع من البيزنطيين ، فالقلعة التي بناها ريموند الصنجيل قرب طرابلس استعان

---

(١) زكي محمد حسن : الفنون الاسلامية ص ١١٢

(٢) الهروي : الاشارات الى معرفة الزيارات ورقة ١٩٧

(٣) نظير حسان سعداوي : الحرب والسلام زمن العدوان الصليبي ص ٢٠٢ ، ٢٠٣

(٤) Heyd : op. cit. Vol. I -p.p. 178- 179 .

(٥) William of Tyre : op. cit. Vol. 2 p. 292 .
Gibbon (E) : Decline and Fall of the Roman empire Vol. Vl, p. 484 .

في بنائها بمواد البناء والبنائين المهرة الذين امده بهم الامبراطور البيزنطي من قبرص (١) . وبالطبع فان هذه القلعة أخذت سمات الفن البيزنطي . كما أن الصليبيين جهزوا جيشهم على النظام البيزنطي فاستعملوا العارات (الرنوك) وألقاب التشاجن واستعمال الدروع واستخدام المنجنيق وأكياس البارود وانواع الوقود (٢) ، صحيح انهم أخذوا بعضها عن العرب الا أن اصلها في الواقع بيزنطي .

علاقة امارة طرابلس بمملكة بيت المقدس :

كانت سيادة مملكة بيت المقدس على طرابلس اقرب من سيادة بيزنطه وقد ظهر اثر هذه السياسة بوضوح في سير الاحداث ، اذ النفوذ البيزنطي متمثل لاطماع ريموند الصنجيل التي تتركز حول حكم الشام بوصفه نائبا عن امبراطور بيزنطه . أما السيادة الثانية فمصدرها احتياج امارة طرابلس الى سند تستند اليه في صراعها ضد الامارات المجاورة (٣) .

والمعروف أن ملوك بيت المقدس ادعوا لانفسهم السيادة على سائر امارات الصليبيين بالشرق بمعنى أنهم رأوا أن من حقهم أن يطلبوا من امرائها أن يرسلوا العساكر لمساعدتهم في حملاتهم . والواقع أن سيادة بيت المقدس لم تظهر الا حينما كان لدى بيت المقدس من القوة ما يكفي لفرضها .

أما من حيث البدء في هذه العلاقة فان روح المنافسة وروح العناد كانت سائدة بين الزعيمين الكبيرين منذ البداية وقبل أن توضع نواه كل من الامارتين ، بيت المقدس ، وطرابلس .

فبعد انتهاء الصليبيين من الاستيلاء على انطاكيه في ٣ يونيه سنة ١٠٩٨ م آخر جماد ى الاولى سنة ٤٩١ هـ احدى وتسعين وأربعمائة (٤) . وبعد الاستيلاء على انطاكيه ، ظل الصليبيون في شمال الشام قرابة خمسة عشر شهرا قرروا بعدها التوجه جنوبا الى بيت المقدس . وطوال الطريق الى بيت المقدس كان جودفرى

---

(١) Setton: op. cit. Vol. I-p. 396 .

(٢) وكي محمد حسن : تراث الاسلام ص ١١٥

(٣) J.Richard: op. cit. p. 30 .

(٤) ابن الاثير : الكامل جـ ١٠ ص ٢٧٥ حوادث سنة ٤٩١ ، ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٢٥

يقف دائما موقف الند أو موقفا مخالفا لريموند الصنجيل .

فعقب استيلاء الصليبيين على معرة النعمان طلب ريموند من بقية الامراء الاجتماع به فى قلعة الروج لتنظيم الرحلة الى بيت المقدس ، وهناك حاول رشوتهم ليقبلوا قيادته . فأعطى عشرة آلاف صولد Solidi الى جودفرى وروبرت النرمندى وستة آلاف الى روبرت فلاندرز ، وخمسة آلاف الى تانكرد ولكن هذه الرشاوى رفضت . ومعنى ذلك رفض جودفرى وروبرت قيادة ريموند لهم

(٢) وحينما كان الصليبيون بزعامة ريموند على حصار عرقة فى فبراير سنة ١٠٩٩ م لم يكن جودفرى حريصا على معاونة ريموند الصنجيل لذلك أصر على وجوب النهوض حالا الى اورشليم وقال أن الوقت الذى اضاعه الصليبيون فى تلك العملية الحربية لا يعادل بأى حال من الاحوال الفائدة المرجوة من وراء الاستيلاء على تلك المدينة الصغيرة (٣) .

ونشب الخلاف فى الرأى بين الزعيمين كل يدافع عن وجهة نظره ويؤيدها بما يتفق - فى زعمه - والصالح العام . وقد ندم ريموند لاستعانته بجودفرى وروبرت واستصغارهما من جبله لمعاونته فحتى ذلك الوقت - ومنذ أن زحف الصليبيون - من انطاكيه - كان ريموند هو زعيم الصليبيين الزاحفين على بيت المقدس ، حتى أن تانكرد نفسه اعترف له بتلك الزعامة لمدة شهرين وذلك مقابل مبلغ خمسة آلاف صولد Solidi (٤) ولكن تانكرد انحاز الى جانب جودفرى قائلا ان ريموند لم يدفع له جيدا (٥) ، وكان لقدوم جودفرى أثره فى أن يطفى نفوذه على ريموند .

وزاد الموقف توترا قدوم بعثة من الامبراطور اليكسيوس كومنين تحمل رسالة يذكر فيها الصليبيون باتفاقية ١٠٩٧ م ويعبر عن استيائه من استئثار بوهمند بأنطاكيه ، وأخيرا عرض عليهم أن ينتظروه حتى أواخر يونيه ليحضر اليهم بنفسه ويشترك معهم فى الزحف على بيت المقدس ويتحمل عنهم كل اعباء الحرب ونفقاتها (٦) . وقد رحب ريموند بهذا العرض لما كان يربطه

(١) Setton: op. cit.Vol. I-p.p.326-327.

(٢) حسن حبشى : الحرب الصليبية الاولى ص ١٦٥

(٣) سعيد عاشور : الحركة الصليبية جـ ١ ص ٢٣١

(٤) Setton: op. cit. Vol. I -p.329

(٥) Runciman: op. cit. Vol. I - p. 272 .

(٦) سعيد عاشور : الحركة الصليبية جـ ١ ص ٢٣٢

من صداقة مع الامبراطور من ناحية ، كما أنه وجد أن قدوم الكسيوس فرصة طيبة للاستعانة به في توطيد زعامته على الصليبيين من ناحية أخرى (١) .

ولم يعف ذلك على جودفرى الذى مانع فى الانتظار متهما الامبراطور بخلف الوعد وعدم رعاية مصالح الصليبيين (٢) . وبذلك تكرر موقف بوهيمند السابق من ريموند مرة أخرى ولكن بين ريموند وجودفرى . وشاء سوء حظ ريموند أن أخذ الصليبيون يحسون فى ذلك الوقت بما كان هناك من اتصالات بين الامبراطور البيزنطى والفاطميين . وأخيرا استطاع جودفرى أن يجبر ريموند على رفع الحصار عن عرقة ، فاضطر فى ١٢ مايو سنة ١٠٩٩ م (٣) أن يأمر جيشه وقد اغرورقت عيناه بالدموع بالتحرك صوب بيت المقدس .

وهكذا ضاعت آمال ريموند (٤) واضطره موقف جودفرى الى التخلى مؤقتا عن امارة كانت قلوفها دانية له . ثم اتجه الفرنج بعد ذلك الى بيت المقدس (٥) ففتحوه فى الثانى والعشرين من شعبان سنة اثنين وتسعين وأربعمائة نهار يوم الجمعة الموافق ١٥ يوليو سنة ١٠٩٩ م (٦) ، ثم اجتمع زعماء الحملة الصليبية فى ١٧ يوليو لتنظيم فتحهم الجديد . وترتب على عودة روبرت النورمانى وروبرت دى فلاندرز الى غرب أوربا أن اصبح الامر محصورا بين اثنين هما ريموند وجودفرى . وكان ريموند أوفر ثروة وأكثر قوة من منافسه . هذا فضلا عن قوة شخصيته ومرونته السياسية . مما جعل الناس يخافون أن يرتطموا بخصية ريموند القوية . لذلك اختير جودفرى حاكما لبيت المقدس فى ٢٢ يوليو سنة ١٠٩٩ م ، لما لمسه الفرسان الصليبيون فى اخلاقه من استعدادات تمكنهم من تحقيق مآربهم دون أن يخشوا خطرا من جانبه (٧) .

ووقف جودفرى بعد ذلك بالمرصاد لريموند ، فأجبره على التخلى عن برج داود الذى كان ريموند قد تسلمه من افتخار الدولة كما اجبره ايضا على التخلى

---

(١) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ١ ص ٢٢٢
(٢) حسن حبشى : الحرب الصليبية الاولى ص ١٦٨
(٣) حسن حبشى : " " " ص ١٦٩ ،
Runciman: op. Cit.Vol.I -p. 273 .
(٤) المرجع السابق ص ١٧٠
(٥) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٢٧
(٦) ابن الاثير : الكامل ج ١٠ ص ٢٨٢ حوادث سنة ٤٩٢هـ ، سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ١ ص ٢٤٢
(٧) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ١ ص ٢٥١

عن عسقلان وبلغ من غضب جودفرى أنه فكر فى مهاجمة الصنجيل (ريموند الصنجيل) (١) ولكنه اقتنع بالعدول عن ذلك تحت تأثير روبرت الفلاندرز (٢) وبشير ابن القلانسى الى ذلك فيقول " فاتفق حدوث الخلف بين المقدمين " لذلك فضل ريموند الصنجيل ان تبقى عسقلان فى ايدى المسلمين عن أن يستولى عليها جودفرى وهكذا انسحب ريموند بعد أن اوعز الى اهل عسقلان بالثبات والمقاومة . ولما وجد جودفرى نفسه وحيدا امام عسقلان اضطر الى الانسحاب ، ثم اتجه ريموند بعد ذلك صوب ارسوف محاولا الاستيلاء عليها ، ولكن جودفرى ظل واقفا له بالمرصاد فلحق به وأصر على أن ارسوف هى الاخرى تتبع بيت المقدس فانسحب ريموند للمرة الثانية نحو الشمال بعد أن عرض اهل ارسوف على المقاومة وعدم الاستسلام لجودفرى (٣) .

وهكذا يظهر لنا نوع العلاقة بين ريموند الصنجيل وجودفرى ، فريموند كان لقوته وموجه وحنكته السياسية اكثر من ند للملك جودفرى بحيث أنه لم يقبل قط ان يكون تحت سيطرة جودفرى فى حين أن خلفاءه لم يكن لديهم جند كاف (٤) .

وأخيرا جاءت اللحظة التى سنحت / لملك بيت المقدس الفرصة للتدخل فى شئون الامارة وممارسة نوع من السيطرة عليها وذلك اثناء الصراع الذى نشب بين برتراند ووليم جوردان . وكان ذلك عندما ارتاع وليم جوردان من ضخامة اسطول برتراند فأرسل الى تانكرد بانطاكيه يلتمس منه التدخل لصالحه ووعد مقابل ذلك ان يصبح من اتباع تانكرد . وهذا الاجراء من جانب وليم جوردان اجبر برتراند على ان يتخذ اجراءا مماثلا اذ أنفذ رسولا الى بيت المقدس يعرض امره على الملك بلدوين الذى استنجد به ، باعتباره الحكم الاكبر بين الفرنج فى الشرق والذى اعترف به تبعا لذلك سيدا له (٥) . واذ اقتضت مهارة بلدوين السياسية ضرورة اجتماع الفرنج فى الشرق على العمل معا وصور له طموحه أنه زعيمهم (٦) .

ووجد الملك بلدوين فى ذلك الصراع فرصة للتدخل وللسيطرة على امارة طرابلس

---

(١) Setton:op. cit.Vol. I - p. 376 .

(٢) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٢٧

(٣) سعيد عاشور : الحركة الصليبية جـ ١ ص ٢٥٨

(٤) J.Richard:op.cit. p. 30

(٥) William of Tyre : op.cit.Vol.I -p.p. 475-476 .

(٦) النويرى : نهاية الارب جـ ٢٦ ورقه ٧٨ ، ٧٩ ،
Runciman: op. cit. Vol. 2 p. 67 .

بل انه ذهب ابعد من ذلك فكان يريد من وراء التوسط بين الفريقين المتخاصمين أن يمكن نفوذه على كل من امارتي انطاكيه وطرابلس في آن واحد ، بل وامارة الرها كذلك . وهو ما كان يسعى دائما الى تحقيقه . وهناك رأي يقول أن بلدوين قبل ان يساعد برتراند لانه وجد في ذلك فرصة أو امل في محالفة الاسطول الجنوي عند قيامه بأي هجوم في المستقبل على المدن الساحلية (١) .

وفي مارس سنة ١١٠٩ م امر بلدوين الاميرين وليم جوردان وتانكرد امير انطاكيه أن يمثلا امامه عند مدينة طرابلس . هذا الاجراء ينطوي على شيء من الصغامرة لأن بلدوين لم يكن له سلطان يخوله ذلك " حسب قواعد القانون الاقطاعي " (٢) .

ولما كان تانكرد لا يشعر بأنه مدين بالتبعية للملك بلدوين لذلك فان بلدوين استدعاه بالاسم الاعلى لكنيسة بيت المقدس (٣) .

هذا الاجراء دعم اولوية السيادة الملكية فان امير انطاكيه وأمير طرابلس قد اطاعوا امره . وتمكن الملك بفضل نفوذه الشخصي من تسوية المسائل المتعلقة بطرابلس والرها (٤) .

وفي يونيه سنة ١١٠٩ م اجتمع خارج اسوار طرابلس في قلعة صنجيل (٥) امراء الافرنج الفرنجي وظهرت عدة حلول موفقة بعد أن أتم الملك بلدوين النصر الشخصي العظيم بجلوسه في مركز الحكم وسماعه لدعاوى بلدوين دي بورج ضد تانكرد وبرترام ضد وليم جوردان ، وتقرر تقسيم الامارة بين المتنازعين ، فأخذ وليم جوردان عرقه وانطرطوس ، مما جعل الجزء الشمالي من امارة طرابلس تحت تأثير تانكرد . وأخذ برتراند قلعة صنجيل وجبيل ، علاوة على طرابلس عندما يتم فتحها (٦) . ويبدو أن برتراند تلقى التقليد بذلك من ملك القدس وأقسم يمين الولاء رسميا على ذلك . وبذلك يكون الكونت برتراند

---

(١) Setton: op. cit. Vol. i - p. 397 .
(٢) J. Richard: op. cit. p. 30 .
(٣) Setton : op. cit. Vol. I - p. 397 .
(٤) J. Richard : op. cit. p. 30 .
(٥) Runciman: op. cit. Vol. 2 - p. 68 .
(٦) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ١ ص ٣٧٠ .

قد قيّد بدين نفسه بقيد الولاء لملك بيت المقدس وجعل نفسه رجلا تابعا للملك مما يترتب عليه ان يكون خلفاؤه ايضا ملزمين ان يتصرفوا على هذا الاساس بالنسبة لملك القدس (١) . ولكن كيف كان موقف الكونتيه بعد موت وليم جوردان وما أمر انطرطوس وعرقه .. ؟ هل تبقى تابعة لانطاكيه أم تنقل تبعيتها الى مملكة بيت المقدس . وكانت الصداوة التي احتدمت واوقفت تانكرد في مواجهة برتراند امرا يجعل تقبل الحل الاول وهو التبعية لانطاكيه امرا صعبا . ولذلك عمد تانكرد الى الاستيلاء العاجل على شمال الامارة . ومن جهة أخرى فان برتراند لم يضيع وقته بل وجه من تسلم عرقه من اصحابه (٢) . وهناك نصوص متأخرة تقول صراحة بأن الملك كان له حق السيادة على عرقه وجبله (٣) . وعند ذلك سارع برتراند الى نقل السيادة على عرقه الى بلدوين .

وهكذا اصبحت الكونتيه بحسب حدودها بين ١١٠٩ — ١١١٢ م تابعة تبعية اسمية لمملكة بيت المقدس ، باستثناء رابطة الولاء النظرى للامبراطورية البيزنطيه فيما يتعلق بعرقه وأنطرطوس — وهما المدينتان اللتان دانتا بالسيادة والولاء لتانكرد صاحب انطاكيه (٤) . ويبدو لنا أن نشأة هذه التبعية لبيت المقدس لا يرجع الى المساعدة التي قدمها الملك في سقوط طرابلس بقدر ما يرجع الى الصراع بين برتراند وتانكرد — فان برتراند أخضع كونتيته للملك لكي يحصل على مساعدته في هذا الصراع في حين كان امبراطور القسطنطينية بعيدا عاجزا عن التدخل فيه تدخلا نافعا مفيدا (٥) . وفي الاحداث الجارية بعد ذلك نجد برتراند يشترك مع ملك بيت المقدس بوصفه أحد أمرائه التابعين له ، فبعد ذلك في اوائل سنة ١١١٠ م ارسل برتراند من قبله رجالا لمساعدة بلدوين في حصاره على بيروت التي سقطت في ايدي الفرنج عنوة في ١٢ مايو سنة ١١١٠ م (٦) .

---

(١) J.Richard:op. cit. p. 30 .

(٢) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٦٣

(٣) J.Richard : op. cit. p. 31 .

(٤) Setton: op. cit. Vol. I p. 31 .

(٥) J.Richard:op.cit.p. 31

(٦) Runciman: op. cit. Vol. 2 p. 92 .

ويرى ابن القلانسي أن برتراند لم يرسل رجالا لمعاونة بلدوين فقط بل كان هو بنفسه على رأس هذه القوات : ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٦٧ ، ١٦٨

وتتبعنا للاحداث الجارية في بلاد الشام نجد امير طرابلس يشترك مع ملك بيت المقدس في كثير من الحملات فنجده يشترك مع قوات الملك وقوات انطاكيه في الحملة الصليبية التي سيرها ملك بيت المقدس لانقاذ الرها من حصار التركمان والسنجقية في ١٢ ه وال سنة ٥٠٢ هـ (١١١٠م) بعد أن اشرفت بها على الهلاك (١) . وفي العام التالي (سنة ٥٠٤ هـ) يذكر ابن القلانسي أن الملك بلدوين نقض الهدنة القائمة بين اتابك وبينه ، وكتب الى ابن صنجيل (برتراند) صاحب طرابلس يلتمس منه الوصول اليه في عسكره ليجتمع معه في صيدا (٢) . وفي نفس العام ايضا نجد الفرنج يجتمعوا جميعهم وينزلون افاميه حيث اجتمع شمل بلدوين وتانكرد وبرتراند بعد التباين والمنافرة (٣) .

ومن المرجح السابق يتبين لنا أن تبعية امارة طرابلس لمملكة بيت المقدس ظلت قائمة طوال حياة برتراند . وربما ساعد على ذلك استمرار عداوة بين طرابلس وانطاكيه وحاجة طرابلس الى السند الذي يعضدها ويقويها ضد تانكرد . على أنه اذا كان هذا الوضع قد استمر في اوائل حياة برتراند فانه سرعان ما تغير عندما توفي بوهيمند في ايطاليا سنة ١١١١ م أن طالب الامبراطور الكسيوس مرة أخرى باسترداد انطاكيه من تانكرد وذلك طبقا لاتفاقية المعقودة بين الكسيوس وبوهيمند سنة ١١٠٨ م ولم يستجب تانكرد لطالب الكسيوس ورفضها وعندئذ ارسل الكسيوس رسولا ليستميل برتراند والملك بلدوين في تحالف ضد تانكرد ، وكان نتيجة لرفض برتراند ان اصبح بلاطا انطاكيه وطرابلس اعداء ، بل ذهب الامر الى ابعد من ذلك ، فان بونز خليفة برتراند كفله اصابه ودبروا امره مع تانكرد صاحب انطاكيه (٤) . وبعد موت تانكرد حوالي ١٢ ديسمبر سنة ١١١٢ م تزوج بونز من ارملته سيسليا الفرنسيه (٥) وبذلك ارتبط بيتا انطاكيه وطرابلس برابطة الود مما جعل طرابلس في غير حاجة الى التأييد الملكي (٦) . ثم أن الغارات الكثيرة المتتابعة التي كان الكونت بونز مضطرا لمساعدة مملكة بيت المقدس فيها جعلت من المتعذر عليه الوفاء

---

(١) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٦٩
(٢) المرجع السابق ص ١٧٤
(٣) المرجع السابق ص ١٧٧
(٤) المرجع السابق ص ١٨١
(٥)
(٦) Runciman: op. cit. Vol. 2 p.p. I24-I25 .
J. Richard: op. cit. p. 31.

بواجبات التبعية . فرافق سنة ٥٠٩ هـ (١١١٥ م) ملك بيت المقدس لدى الاتابك برسق عندما هدد الامير امارة انطاكيه . وحدث في اوائل سنة ١١٢٢ م ان رفض بونز كونت طرابلس فجأة بذل الولاء لملك بيت المقدس . ولم يعرف سبب تمرده وعصيانه . وغضب بلدوين لما حدث فبادر الى دعوة اتباعه للقدوم عليه لانزال العقوبة بالمتمرد . وتقدم جيش الملك من عكا قاصدا طرابلس ، ولم يكد يقترب منها حتى أعلن بونز خضوعه فعفا عنه الملك . ثم حدث في سنة ١١٣١ م أن عقب مقتل بوهيمند الثاني امير انطاكيه الذي قتل في قبرص سنة ١١٣٠ م ان حاولت الاميرة اليس أن تستأثر بالحكم لنفسها دون ابنتها والوريثة الوحيدة كونستانس خصوصا بعد وفاة ابيها بلدوين الثاني ، واستطاعت ان تكسب بمهارتها ودهائها وهداياها ثلاثة من امراء الصليبيين ، هم وليم صاحب حصن صهيون على بعد عدة كيلو مترات من اللاذقية وجوسلين الثاني امير الرها وبونز امير طرابلس وأدرك بونز أن تمرد انطاكيه من سيادة بيت المقدس سوف يجعل طرابلس تنتهج طريقها ، لذلك صمم على حماية الاميرة اليس أرملة بوهيمند التي كانت تحكم انطاكيا باسم ابنتها كونستانس من فولك ملك بيت المقدس ، على أن فرسان انطاكيه احسوا بالمؤامرة وأدركوا أنه اذا نجحت اليس في تحقيق اهدافها فان ذلك يعني القضاء المبرم على الامارة ، ولذا كتبوا الى فولك يستقدمونه فأسرع فولك بالسير اليهم على رأس جيش كبير . فلما بلغ اطراف طرابلس رفض بونز السماح له باجتياز بلاده . وكانت الأميرة سيسليا زوجة بونز اختا غير شقيقة لزوجة فولك ، غير أن ما لجأ اليه فولك من التوسل بصلات القرابة لم يجد نفعا . فكان لزاما على جيش بيت المقدس أن يتخذ طريق البحر من بيروت الى السويدية . وآثر فولك أن يرجيء انتقامه من بونز الى وقت آخر . وفي انطاكيه رحب باروناتها وفرسانها بالملك فولك ونادوا به وصيا على الاميرة الصغيرة كونستانس بدلا من سلفه بلدوين الثاني ولم تعجب هذه التطورات بونز فتدخل بوقفه حاميا لاميرة اليس ، وساعده

---

(١) سعيد عاشور : الحركة الصليبية جـ ١ ص ٢٧٧

(٢) Runciman: op. cit. Vol. 2 - p.p. 160-161 .

(٣) سعيد عاشور : الحركة الصليبية جـ ١ ص ٥٢٧

(٤) Runciman: op. cit. Vol. 2 p. 190 .

(٥) Ibid : p. 195 .

(٦) سعيد عاشور : الحركة الصليبية جـ ١ ص ٥٢٧ ،
William of Tyre : op. cit. Vol. 2 p.p. 54-55 .

بعض الامراء الصليبيين في القلاع المجاورة حتى اتخذت الحركة شكل ثورة عامة ضد الملك فولك في شمال الشام (١) . ولكن فولك لم يتردد امام تهديدات بونز وحلفائه واشتبك مع بونز في معركة بالقرب من قلعة الروج (٢) وكان بونز يتصرف عندئذ بوصفه احد امراء انطاكيه . اذ أن سيسليا زوجة بونز حصلت من تانكرد زوجها السابق على اقطاع انطرطوس وصافيثا ومرقيه وحصن الاكراد (٣) . وبذا أضحى بونز من كبار بارونات امارة انطاكيه ، بينما كان فولك يتصرف بوصفه وصيا على امارة انطاكيه . وانتهى الامر بهزيمة بونز فارغم على عقد الصلح ، ولكنه لم يوقع عليه أية عقوبة بل اكتفى بأن اعتذر بونز لفولك وتم الوفاق بينهما (٤) . بعد أن اضطر بونز الى الفرار تاركا عددا كبيرا من فرسانه اسرى في قبضة فولك (٥) .

وتشير المراجع العربية الى ذلك الخلاف متعجبة منه ، فيقولون في حوادث سنة ٥٢٧ هـ (١١٣٢ م) في المحرم منها (٥٢٧ هـ) وردت الاخبار من ناحية الافرنج بوقوع الخلف بينهم من غير عادة جارية لهم بذلك ونشبت المحاربة بينهم وقتل منهم جماعة (٦) .

على أن ما اورده المؤرخون بعد ذلك يشير الى عودة العلاقات الطيبة بين الصليبيين . ذلك أنه حدث سنة ١١٣٢ م عندما اتجه التركمان صوب امارة طرابلس حيث اعتدوا على الاهالي واستولوا على كثير من ممتلكاتهم ، أن خرج بونز امير طرابلس للدفاع عن امارته فاستدرجه التركمان حتى اوقعوا به الهزيمة واحدثوا مذبحة كبيرة بين الصليبيين . وكان ان انهزم بونز في نفر قليل فالتجأ الى حصن بحرين وتحصنوا به ونزل عسكر الاتراك عليه وأقاموا محاصرين له اياما كثيرة حتى نفد ما فيه من القوت والماء (٧) .

---

(١) سعيد عاشور : الحركة الصليبية جـ ١ ص ٥٢٧

(٢) ذكر العيني هذه الحادثة فقال في حوادث سنة ٥٢٦ هـ ، " ومنها أن عسكر انطاكيه اوقعوا بعسكر طرابلس "

(٣) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٨١

(٤) J.Richard: op. cit. P. 32; Runciman:Vol.2p. I95 .

(٥) سعيد عاشور : الحركة الصليبية جـ ١ ص ٥٣٨

(٦) ابن الاثير : الكامل جـ ١١ ص ٨ حوادث سنة ٥٢٧ هـ ، ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٣٦

(٧) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٤٠ ، ابو الفدا : المختصر جـ ٣ ص ٨

وفي تلك الأثناء كان الصليبيون في انطاكيه قد استنجدوا بالملك فولك الذي زحف على الفور صوب الشمال في الوقت الذي استطاع بونز الفرار من قلعة بعرين (١) . وبينما كان فولك يسير بجيشه صوب الشمال التقت به عند صيدا اميرة طرابلس فأنهت اليه أن زوجها بونز وقع في كمين نصبه له جماعة من التركمان ، وعندئذ توجه فولك على الفور الى بعرين . ولما اقترب من القلعة انسحب التركمان . وأعاد هذا الحادث الصداقات الودية بين فولك وبونز . اذ ان ريموند ابن بونز ووريثه لم يلبث أن تزوج من هودبرنا اخت ملكة بيت المقدس ، بينما تزوجت ابنته اجنيس من ابن كند سطبل فولك في انطاكيه وسوريناله مازوار صاحب المرقب (٢) .

واذا تتبعنا العلاقة بين امارة طرابلس ومملكة بيت المقدس في ظل الاسرة التولوزيه وجدنا أن تيجبة الاولى للثانية كانت تيجبة اسميه ، فالكونت كان قرينا للملك وندا له بالرغم من تصرفه في كثير من الاحيان تصرف التابع للسيد . وكان الملك يقوم في كثير من الاحيان بدور الوصي على الكونتيه في حالة وفاة احد كونتاتها او وقوعه في الاسر ولدينا على ذلك عدة امثلة ، فعندما قتل ريموند الثاني في سنة ١١٥٢ م عند عودته من تودبع زوجته هودبرنا وأختها الملكة مليزاند بينما كان يجتاز المدخل الجنوبي لعاصمته على يد جماعة من الاسماعيلية الباطنية الحشيشية (٣) . وكان الملك بلدوين الثالث في ذلك الوقت يلعب النرد في قلعة طرابلس (٤) . وتولت هودبرنا الوصاية على الامارة باسم ابنها ريموند الثالث الذي ناهز الثانية عشرة من عمره . وكانت العادة ماسة لرجل قوي يتولى الاشراف على حكومتها . فكان لزاما على بلدوين ان يتولى الوصاية باعتباره ادنى الاقارب الذكور .

ومرة أخرى قام ملك بيت المقدس عموري الاول بالوصاية على امارة طرابلس باسم الكونت ريموند الثالث في الفترة الممتدة من سنة ١١٦٤ - ١١٧٢ م وذلك عقب وقوع ريموند الثالث في اسر نور الدين في موقعة حارم (٥) .

---

(١) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ١ ص ٥٢٩ ، كرد علي : خطط الشام ج ٢ ص ٧

(٢)

(٣) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ٦٤٧ ،
Runciman: op.cit. Vol.2 - p. 195

(٤) William of Tyre:op.cit. Vol.2 -p.214 .

(٥) العيني : عقد الجمان حوادث سنة ٥٥٩ هـ .
Runciman :op. cit. Vol. 2 - p. 377 .

وبالعكس فقد تولى أيضا ريموند الثالث الوصاية على ملك بيت المقدس بلدوين الرابع (المجذوم) الذى خلف أباه عمورى الاول فى الحكم والذى كان فى الثالثة عشرة من عمره عندما تولى العرش .

وعند وفاة برتراند وتولى ابنه الصغير بونز مكانه لم يقم بلدوين بالوصاية عليه وانما " تكفله اصحابه ودبروا امره مع ملكسرى صاحب انطاكيه " (١)

والواضح أن قيام بلدوين الثالث بالوصاية على ريموند الثالث عقب والده ريموند الثانى لم يكن بناء على أى عرف اقطاعى وانما كان بدافع القرابة لأن عمورى زوجة ريموند الثانى ووالدة ريموند الثالث كانت اختا لملكة بيت المقدس ميليسند وكانت هناك اختا ثالثة (اليس) تزوجها الامير بوهيمند الثانى صاحب انطاكيه .

واذا كان عمورى الاول قد تصرف بوصفه كافلا للكونتيه فى اثناء وقوع ريموند الثالث اسيرا فى ايدى المسلمين ، فان ذلك ايضا لم يكن بدعوى حقوق اقطاعية بقدر ما كان يرجع الى الروابط الأسرية التى جعلت ملك بيت المقدس اقرب الناس الى امير طرابلس ونفس هذا الداعى هو الذى دعا ريموند الثالث القيام بالوصاية على مملكة بيت المقدس بعض الوقت فى فترة بلدوين الرابع (٢) وبلدوين الخامس .

وصفوة القول أننا نستطيع أن نقول ان تبعية امارة طرابلس لمملكة بيت المقدس كانت فعلية . فعلى سبيل المثال كانت زوجة ريموند الثالث لها امارة الجليل مما جعل ريموند الثالث من اتباع ملك بيت المقدس لان الجليل كانت تابعة له . (٣)

هذا فضلا عن صلات القرابة بين الاسرتين الحاكمتين فى بيت المقدس وطرابلس . وتدل مواقف التبعية هذه على وحدة الصليبيين وتضامنهم ازاء ما كان يعترضهم من مشاكل .

وهكذا يمكن القول ان امارة طرابلس كانت امارة شبه مستقلة وأن ما كان يقابلها من مواقف يقوم فيها امراؤها بعض مظاهر التبعية انما كان شيئا شكليا يضمن لها وللصليبيين جميعا الوحدة امام المسلمين .

---

(١) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٨١

(٢) J.Richard:op.cit. p. 33 .

(٣) Runciman : op. cit. Vol. 2 p. 320 .

ولم تكن العلاقات السياسية والحربية وحدها هي التي تربط بيت المقدس بطرابلس بل كانت هناك ايضا علاقات كنسية واقتصادية .

اما عن العلاقات الكنسية : فقد كان في بلاد الشام مركزان بطرانيان وهما بيت المقدس وانطاكيه . وكانت اسقفيات طرابلس وفقا للتنظيم الكنسي القديم تخضع لأسقفية صور الرئيسية التابعة بدورها لبطريركية انطاكيه الى أن اصدر البابا اربان الثاني قراره في سنة ١٠٩٥ م ، الذي يقضي بأن يتبع بطريرك بيت المقدس له اسقفية صور الرئيسية والاسقفيات الاخرى التابعة لها . ولكن اسقفيات طرابلس وجبيل وانطرطوس ورفنيه لم تخضع لبطريركية بيت المقدس على الرغم من ميل البابوية لذلك ، وانما خضعت لبطريركية انطاكيه (١) .

ومعنى هذا أن كنيسة طرابلس لم تكن تخضع اداريا لبطرانية بيت المقدس وانما كانت تخضع لبطرانية انطاكيه .

وقد تميزت الاديرة والكنائس التي اقامها الصليبيون بالشام بوفرة ثروتها واتساع املاكها التي لم تقتصر على بلاد الشام ، بل امتدت الى القارة الاوربية نفسها . فكان لاديرة بيت المقدس ممتلكات في طرابلس وكانت هذه الممتلكات معفاة من الضرائب . كما كان رجالها معفيين من الخدمة العسكرية (٢) وقام في بلاد الشام عدد من الهيئات الدينية اهمها هيئات الفرسان وبخاصة الاسبتارية والداوية ، وقد رأينا فيما سبق كيف قامت هذه الهيئات بدور فعال في الدفاع عن امارة طرابلس الصليبية امام الدفع السريع لحركة الاسترداد الاسلامي وعجز كونتيات طرابلس عن القيام بواجبات الدفاع فصاروا يتخلون لهم عن قلاع كونتيتهم حتى كونوا لانفسهم ما يشبه الولاية المستقلة وأصبحت الكونتيه قاصرة على قسمها الجنوبي . فكان للفرسان الاسبتاريه قرية جلبات الواقعة شمال طرابلس وحصون عرقة ، وعكار ، والاكراد ، ورفنيه ، وبعرين ، وحصنا فلبسيوم ولاكوم وحصن وادي الأحمر وحصن الطوفان والمرقب (٣) .

(١) السيد عبد العزيز سالم : طرابلس الشام ص ٢١٠

(٢) سعيد عاشور : الحركة الصليبية جـ ١ ص ٤٨٤ ، ٤٨٥

(٣) عن الظروف التي تخلى فيها كونتات طرابلس للاسبتاريه عن هذه الحصون انظر ما جاء في هذه الرسالة الفصل الخامس (ثانيا : النظام الحربي في امارة طرابلس) اما عن حصون الداويه فان ضياع سجلات الداوية يحوقنا عن متابعة تطور مناطق نفوذهم : السيد عبد العزيز سالم : طرابلس الشام ص ٢١٢ ، ٢٢٢

وكان لفرسان المعبد (الداوية) الحريمة وأنطرطوس وصافيتا[١] ولم تكن هذه العلاقة وحدها هي التي تربط مملكة بيت المقدس بطرابلس بل كان هناك ايضا علاقات اقتصادية ، فكانت المتاجر الشرقية تمر بمملكة بيت المقدس مثل التوابل ، القرفة والعبهار والقرنفل وجوز الطيب والزنجبيل والنيلة والسكر[٢] وهي في طريقها الى شمال بلاد الشام وطرابلس .

وكان بيت المقدس يصدر الى طرابلس مقادير من الاعشاب الطبية والتوابل ويعتبر البلسان اكثرها اهمية - لانه يستخدم في طقوس الكنيسة ونبتة بكميات كبيرة قرب بيت المقدس في القرن ١٢ الثاني عشر[٣] ، وكانت طرابلس تصدر الى بيت المقدس منتجاتها التي اشتهرت بها مثل القطن ، ذلك النبات الذي حاربته الكنيسة في العصور الوسطى لانه قماش اسلامي ولكن الصليبيين زرعوا شجرته بوفرة في امارتي انطاكيه وطرابلس[٤] ، وكذلك صدرت طرابلس قصب السكر والحرير والمنتجات الحريرية والاخشاب التي اشتهرت بها جبال لبنان .

وفي الواقع أن حياة الامارات اللاتينية من الناحية الاقتصادية كانت تعتمد اعتمادا كبيرا على التعامل والاتجار مع بلاد المسلمين .

اما عن العلاقات الثقافية : فان الامارات اللاتينية لم تهتم بالنشاط الثقافي قدر اهتمامها بالنشاط الحربي فاقتصر التعليم في الامارات اللاتينية على مدارس ملحقة بالكاتدرائيات الرئيسية او ببلاط الملوك والامراء على النمط الموجود في اوروبا وقتذاك[٥] .

* * *

علاقة امارة طرابلس بامارة انطاكيه :

تتطلب دراسة العلاقة بين امارة طرابلس وامارة انطاكيه التحدث في شيء من الايجاز عن تطور العلاقة بين مؤسسي هاتين الامارتين منذ البداية . ففي نفس الوقت الذي وصلت حملة النورمان فيه بقيادة بوهيمند النورماني مؤسس امارة

(١) السيد عبد العزيز سالم : طرابلس الشام ص ٢١٢ - ١٢٣
(٢) Heyed: op.cit.Vol.2 -p. 563
(٣) Ibid : p.p. 577 -578 .
(٤) نظير حسان سعداوي : العرب والسلم زمن العدوان الصليبي ص ١٧٢
(٥) المرجع السابق ص ١٨٨

انطاكيه الى القسطنطينيه ، وصل اليها ايضا ريموند كونت تولوز واضع نواه تأسيس امارة طرابلس (١) .

وكان ريموند يرى في بوهيمند منذ البداية انه غريمه ومنافسه الاول ، حتى أن علاقة ريموند بالامبراطور البيزنطي صارت تحدد هي علاقة بوهيمند بالامبراطور البيزنطي (٢) ، فضلا عن علاقة بيت سان جيل ببوهيمند ثم مع تانكرد . بعد ذلك فعندما علم ريموند أن عدوه بوهيمند صار على اتفاق تام مع الامبراطور ، بالاضافة الى الاشاعة التي ترددت بأن بوهيموند سوف يصبح القائد العام للجيوش الامبراطورية كان هذا دافعا لريموند على ان يرفض بشدة أن يقسم يمين الولاء للامبراطور خوفا (٣) من أن يضطر الى العمل تحت زعامة غريمه بوهيمند . وعندما اجتمع بالامبراطور الكسيوس في القسطنطينية زعماء الحملة الصليبية الاولى لمناقشة موضوع قسم ريموند للامبراطور اشار ريموند بطريقة مباشرة الى الامبراطور المحملة فأدرك بوهيمند ما يهدف اليه ريموند من العمل على اضعاف موقفه الخاص وتفويت الفرصة عليه في الحصول على تلك المكانة الجديدة التي اوشك ان يحققها لنفسه . وكان بوهيمند بطبيعة الحال حريصا كل الحرص على ألا تفلت من يده تلك الفرصة المرتقبة في (٤) أن يكون قائدا عاما للقوات المسيحية . ومرة أخرى احتدم الامر بين ريموند الصنجيلي والامبراطور البيزنطي حتى كاد أن يؤدي إلى وقوع صدام مسلح بين الطرفين وعندئذ اعلن بوهيمند صراحة انه سوف يكون الى جانب الامبراطور اذا لجأ ريموند (٥) الى القوة العسكرية .

والواقع اننا نستطيع أن نقرر هنا أن ريموند كان على استعداد لخدمة (٦) الكسيوس لولا ما يكنه من الحقد لبوهيمند وأنه — ريموند — عندما علم اثناء اجتماع منفرد له مع الكسيوس بتخوف الكسيوس من بوهيمند والنورمان وأن الكسيوس لا يمكن ان يقلد بوهيموند زعامة القوات الامبراطورية في آسيا ، عندئذ اطمأن ريموند وبدأ يدرك انه من الممكن أن يجد في الامبراطور حليفا قويا ضد بوهيموند وأطماعه ، أي أن سياسة ريموند مع الامبراطورية البيزنطية كانت تتأثر بعلاقة

---

(١) Setton:op. cit. Vol.I p. 287 .

(٢) J.Richard: op. cit. p. 28 .

(٣) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ١ ص ١٥٨

(٤) حسن حبشي : الحرب الصليبية الاولى ص ٧٨

(٥) William of Tyre :op. cit.Vol.I-p. I43 ; Setton:op. cit.Vol.I-p. 287.

(٦) Runciman:op. cit.Vol. I - p. I64 .

الامبراطورية من بوهيمند والنورمان (١) .

وعلى هذا فانه يتضح أن بوهيمند وريموند وقفا من بعضهما البعض طرفي نقيض ، وزاد هذا الموقف سوءا منذ أن عبر بوهيمند عن مطامعه في انطاكيه وقد سبق ان اشرنا الى ان حصار الصليبيين لانطاكيه ، استمر سبعة اشهر من ٢١ اكتوبر سنة ١٠٩٧ م حتى ٣ يونيه سنة ١٠٩٨ م وبعد أن انقسم المهاجمون الى فريقين امام اسوار انطاكيه احدهما برئاسة كونت صنجيل والاخر على رأسه بوهيمند (٢) ، ولم يكن أحد هذين الزعيمين يطمئن الى الآخر .

كان من رأى كونت صنجيل أن يبادر الصليبيون الى دك اسوار المدينة ، ومع ما لهذا الرأى من وجاهة الا أن بوهيمند عارض هذا الرأى ولم تكن معارضة بوهيمند لرأى ريموند صادرة عن اخلاص للصالح الصليبى بقدر حرصه على الاحتفاظ بانطاكيه سليمة حتى يستفيد منها عندما تصبح لقمة سائغة له . وكان أن قام بوهيمند بخدعة بارعة ليجبر الصليبيين على تسليمه انطاكيه فاختار اصعب اوقات الحصار ليعلن انه ازمع الانسحاب والعودة الى ايطاليا . ولما كانت قوات بوهيمند تمثل العمود الفقرى للصليبيين امام انطاكية لذلك اسرع جميع الزعماء الصليبيين — فيما عدا ريموند (٣) الذى كره بوهيمند وارتاب فيه ، باعتباره اكبر منافس له على القيادة العربية للحملة الصليبية — الى التوسل لبوهيمند للبقاء ، ووعد الامراء بوهيمند بتسليمه انطاكيه بعد الاستيلاء عليها ، ما عدا ريموند (٤) الذى رأى المحافظة على حقوق الامبراطور البيزنطى نظرا لما ارتبط به اثناء وجوده بالقسطنطينيه من صداقة مع الامبراطور البيزنطى من ناحية ولما يكنه من الكراهية والحقد لبوهيمند (٥) . وحينما سقطت انطاكيه فى ايدى الصليبيين فى جمادى الاولى سنة ٤٩١ هـ الموافق ٣ يونيو سنة ١٠٩٨م قام كربوغا بمحاصرة الصليبيين فى انطاكيه (٦) . ويذكر بعض المؤرخين أن ريموند (٧)

---

(١) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ١ ص ١٥٩

(٢) حسن حبشى : العرب الصليبية الاولى ص ١١٢

(٣) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ١ ص ١٩٥

(٤) Setton: op. cit.Vol.1 -p. 316 .

(٥) Runciman:op.cit.Vol.I -p.p. 232-233.

(٦) Setton :op.cit.Vol.I - p. 316 .

(٧) Runciman: op. cit. Vol. I -p. 249.

William of Tyre:op. cit.Vol.I-p. 260 .

ابن الاثير : الكامل ج ١٠ ص ٢٧٥ حوادث سنة ٤٩١ هـ

كان القائد الاعلى للقوات الصليبية . فلما مرض حل محله بوهيمند في حوالي ٢٠ يونيه (١) .

وبعد استيلاء الصليبيين على انطاكيه وقلعتها طالب بوهيمند بقيه الزعماء الصليبيين بتسليمه ما بأيديهم من ابواب المدينة وابراجها وتحصيناتها ، فقبلوا جميعا باستثناء ريموند الصنجيل الذي اخذ يناوئ بوهيمند انطاكيه ورفض أن يتخلى عن المراقع التي احتلها رجاله في المدينة (٢) . وهكذا صارت انطاكيه قسمة بين بوهيمند و ريمند فاحتل ريموند الاجزاء الشمالية والشرقية والوسطى من المدينة بما فيها القلعة في حين احتل ريموند القطاع الجنوبي الغربي من المدينة .

وهكذا انقلب الموقف فصار بوهيمند — وهو اول من عقد اتفاقا مع الامبراطور البيزنطي تعهد له فيه بالولاء — يناوئ بالخروج عن ذلك الاتفاق في حين أمسى ريموند — وهو الامير الوحيد من امراء الحملة الذي لم يتقيد بالاتفاقية السابقة ولم يقسم يمين الولاء للامبراطور — هو المدافع عن حقوق الامبراطورية والمناد باحترام الاتفاقية التي عقدها الصليبيون مع التركمان .

ورأينا فيما سبق موقف بوهيمند من ريموند في معرة النعمان وكيف استولى بوهيمند على الجانب الاكبر من الغنيمة على الرغم من ان جيش ريموند هو الذي استولى على معرة النعمان (٣) .

وحين سلم ريموند الاذقية الى البيزنطيين بعد ان استولى عليها ، هذا التصرف من جانب ريموند كان يشكل تهديدا خطيرا لامارة انطاكيه التي حرمت من الاذقية التي تعتبر من اهم واكبر موانيها ، وانتهز بوهيمند فرصة بعد ريموند ليهاجم الاذقية ويحاول الاستيلاء عليها .

ثم حدث ان توسط دايمبرت في الصلح بين ريموند وبوهيمند فاجتمع الاميران قرب الاذقية ، وسويا ما بينهما من خلاف ولكن هذه التسوية كانت ظاهرية فقط اذ استمرت روح التنافس والكراهية تسود العلاقات بين ريموند وبوهيمند — ويتضح ذلك من رفض ريموند تزويد بوهيمند بالزاد اثناء عودته من بيت المقدس (٤) ، هذا بالاضافة الى الدور الذي قام به ريموند لمنع بوهيمند من الاستيلاء

---

(١) سعيد عاشور : الحركة الصليبية جـ ١ ص ٢٠٩ ، Michaud,S Hist.V.Ip304

(٢) المرجع السابق ص ٢١٣ ، ٢١٤ (٣) Runciman:V.Ip260.

(٤) المرجع السابق ص ٢٤٥ ; J.Richard: op. cit.p.p. 38-39 ; Setton: op.cit. Vol. I - p. 375 .

على عرش بيت المقدس عقب وفاة جودفرى بوايسون • فقد منحت قوات ريموند فـــى الوثيقة الرسالة التى ارسلها دايمبرت مع سكرتيره ماريلبوس Marcllus الى بوهيموند مستدعيا اياه ليتولى الحكم فى المدينة المقدسة •

وعندما تصدر ريموند لقيادة الحملة سنة ١١٠١ م انما كان هدفه هو القضاء على منافسه بوهيموند • ولكن بعد فشل الحملة قاد ريموند بعض قادتها الى الشام فوصلوا الى ميناء السويدية حيث قبض تانكرد (١) على ريموند ولم يطلق سراحه الا بعد أن اقسم على التخلى عن جميع مطالبه فى انطاكيه كما سبق أن وضحنا

ورأينا فيما سبق موقف تانكرد من برتراند بن ريموند الصنجيل حين قدم الى الشام وطلب منه ان يسلمه ما كان بحوزة والده من اجزاء من انطاكيه (٢) • اذ أن تانكرد امر برتراند أن يغادر انطاكيه ومنع رعاياه من أن يبيعوا له المؤن والاقوات وذلك بسبب رفض برتراند مساعدته فى الحملة التى اوشك على توجيهها للاستيلاء على الصيعة والمدن البيزنطيه فى قليقيه • وكان ذلك شيئا طبيعيا لأن برتراند سبق ان اقسم يمين التبعية لتيمبراسور الكسيوس وكان يعتمد على المساعدات البيزنطيه •

على أن العداء القائم بينهما لم يمنع تانكرد من الاشتراك مع الملك بلدوين الاول وبرتراند فى رفع حصار مودود عن الرها • وفى سنة ٥٠٤ هـ (١١١١م) عندما اتفق مودود وطغتكين اتابك دمشق على مهاجمة الصليبيين فى طرابلس اجتمع تانكرد امير انطاكيه وبلدوين د ى بورج ، وبلدوين ملك بيت المقدس وبرتراند امير طرابلس (٣) • واجتمعوا قرب فامیه فى حين كان طغتكين ومودود عند شيزر ودارت مناوشات بسيطة بين الفريقين ثم تفرقوا لحلول فصل الشتاء (٤)

وهكذا قضى هذا التعاون المشترك والتضامن والوحدة بين الصليبيين على اسباب الخلافات القائمة بينهم • ومن العوامل التى ازالت اسباب الخلاف بين انطاكيه وطرابلس ، رفض برتراند التحالف مع الكسيوس ضد تانكرد كما سبق

(١) سعيد عاشور : الحركة الصليبية جـ ١ ص ٢٥٢ ،
Runciman: op. cit. Vol. 2 - p. 34.
(٢) سعيد عاشور : الحركة الصليبية جـ ١ ص ٢٦٨
Setton: op. cit. Vol. I - p. 397 .
(٣) Grousset: op. cit. Vol. I - p. 496 .
(٤) حسن حبشى : نور الدين والصليبيين ص ١٧

أن وضحنا . وكان من ذلك بالنسبة لبرتراند انهاء الصغار (الخلاف) التاريخي منذ ايام والده ريموند مع النورمان في انطاكيه . ونتيجة لذلك فان بلدي انطاكيه وطرابلس اصبحا اصدقاء (١) حتى أن برتراند ارسل ابنه وخليفته بونز الى بلاط تانكرد ليتلقى تعاليم الفروسية وآدابها . ويعبر ابن القلانسي عن هذا الخلاف فيقول " انه عندما توفي برتراند في ٢ فبراير سنة ١١١٢ م الموافق الثاني من شعبان سنة ٥٠٥ هـ بعلة لحقته وأقام ابنه في الامر من بعده وهو طفل صغير كفله اصحابه ودبروا امره مع طنكرد (تانكرد) صاحب انطاكية وجعلوه من خيله واقطعه انطرطوس وصافيثا ومرقيه وعدة من الاكراد (٢) . "

وعندما مات تانكرد في ١٢ ديسمبر سنة ١١١٢م وعمره ٣٦ سنة طلب الى بونز أن يتزوج من ارملته سيسليا الفرنسية (٤) ، وقدمت سيسيل بائنة زواجها الى بونز متمثلة في حصن ابن الاحمر (قلعة الروج) وجبله وكذلك ظل حصن الاكراد اقطاعا يتولاه امراء طرابلس حتى اعطاه ريموند الثاني امير طرابلس للفرسان الاسبتاريه (٥) بموافقة كونستانس .

وهكذا بعد ذلك نجد العلاقات بين امراء طرابلس وامراء انطاكيه تسير في ذلك الدور في ود وتفاهم تام . فقد اتبع خليفة تانكرد في انطاكيه وهو روجر دي سالرنو نفس سياسة الصداقة مع طرابلس (٦) .

وفي سنة ١١٢١ م بعد عقب وفاة بونيموند الثاني عندما حاولت الاميرة البس ان تستأثر بالحكم لنفسها دون ابنتها كونستانس . وأرادت ان تتحرر من سيادة بيت المقدس أن لجأ بونز الى مساندة الاميرة البس في ذلك . والمعروف أن بونز كان من كبار بارونات امارة انطاكيه .

وهكذا ظلت العلاقات الودية تسود بين امراء طرابلس وانطاكيه في ذلك الدور الجديد وكان من مظاهر هذا التحالف والتماسك ما حدث في سنة ١١٦٤م

---

(١) Setton:op.cit.Vol. I -p. 400 .

(٢) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ١ ص ٢٧٧

(٣) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٨١

(٤) Runciman: op. cit. Vol. I-p.124.

(٥) King: op. cit. p. 36 .

(٦) Setton : op. cit. Vol. I - p. 401 .

(٥٥٩ هـ) في حارم . عندما انتهز نور الدين فرصة تغيب عموري الأول في مصر فأراد أن يهاجم الصليبيين في غياب الملك لينتقم من الهزيمة التي حلّت به في البقيعة تحت حصن الاكراد عندما كان عازما على حصار طرابلس (١) فاختار نور الدين أن يهاجم انطاكيه أو حصن حارم (٢) . فاجتمع من بقي في الساحل من الفرنج لمواجهة نور الدين بوهيمند الثالث امير انطاكية وريموند الثالث امير طرابلس وحاكم فيلبقيه البيزنطي ، وثوروس الثاني الامير الأرمني (٣) وقصدوا نور الدين فرحل عن حارم الى ارتاح طمعا أن يتبعوه فيتمكن منهم . وفي هذه الواقعة كانت مصيبة الصليبيين فادحة فانتصر نور الدين وقتل وأسر من الفرنج عالما كثيرا وكان من جملة الأسرى البرنس صاحب انطاكيه والقمص صاحب طرابلس والدوك مقدم الروم وابن جوسلين (٤) .

وفي تتبعنا للحوادث بعد ذلك نجد بوهيمند الثالث يقف بجوار ريموند الثالث في سياسته في مملكة بيت المقدس عندما اختير وصيا لبلدوين (٥) لمدة عشر سنوات

ولا أدل على قوة الروابط بين امارة انطاكيه وامارة طرابلس مما حدث بعد فرار ريموند الثالث من حطين كما سبق أن بينا — فقد توفي ريموند الثالث بعد قليل من أثر الصدمة ، بعد أن اوصى بأن يخلفه في حكم طرابلس ريموند — الابن الاكبر لبوهيمند الثالث امير انطاكيه — ولكن امير انطاكيه كان محتاجا لابنه الاكبر الى جانبه للدفاع عن امارته . فاكتفى بارسال ابن آخر له هو — بوهيموند الرابع — للدفاع عن طرابلس وحكمها . وبذلك انتهت الأسرة البروفنسالية في طرابلس وانتقل حكم تلك الامارة في اواخر سنة ١١٨٧ م الى البيت النورماني الذي كان يحكم انطاكيه (٦) .

---

(١) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان جـ ٨ ص ١٥٠ ، ابن الاثير : الكامل جـ ١١ ص ٢٩٤ حوادث سنة ٥٥٨ هـ

(٢) سعيد عاشور : الحركة الصليبية جـ ٢ ص ٦٨٥ ، ابن العديم : زبدة الحلب ص ٣١٨ ، ابن هاشم الدباغ : معالم النبلاء جـ ٢ ص ٤٥ ، اليافعي : مرآة الجنان جـ ٣ ص ٢٤١ .

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب جـ ١ ص ١٤٤ ، ابن الاثير : الكامل جـ ١١ ص ٣٠٢ حوادث سنة ٥٥٩ هـ

(٤) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان جـ ٨ ص ١٥٢ ، ابن قاضي شهبه : الكواكب الدرية ص ١٢٦ ، ١٢٧

(٥) J.Richard:op.cit. -p. 48 .

(٦) سعيد عاشور : الحركة الصليبية جـ ٢ ص ٨٢٨ ، العيني : عقد الجمان : حوادث سنة ٥٨٤ هـ .

وهكذا تم اتحاد امارتي طرابلس وانطاكيه في ظل بوهيموند الرابع ولم تقف العلاقات بين انطاكيه وطرابلس عند حدود المظاهر السياسية والحربية وحدها بل كانت هناك ايضا علاقات كنسية واقتصادية بين الطرفين .

اما عن العلاقات الكنيسية : فقد كانت اسقفيات وكنائس طرابلس وجبيل وانطرطوس ورفنيه خاضعة لبطريركية انطاكيه . وكان لبطاركة انطاكيه دور في تخفيف حدة الخلاف بين ريموند الصنجيل وتانكرد في سنة ١١٠٢ م وبين برترانده وتانكرد في سنة ١١٠٩ م (١)

وقد تطلع ريموند كونت تولوز الى ان تكون له كنيسة مستقلة في كونتيته المقبلة (طرابلس) لذلك عين الاسقف البير دي سان ارارد وكان يرغب في تنصيبه مطرانا . وفعلا رحل الاسقف البير الى روما وحضر جلسات مجمع مانسدا وتبنى البابا رفض ان يجعل طرابلس مركزا مطرانيا مكتفيا بأنطاكيه وبيت المقدس . (٢) على أن مسألة خضوع اسقفيات طرابلس لانطاكيه ظلت معلقة حتى النصف الاول من القرن الثالث عشر عندما اتحدت كونتية طرابلس سياسيا مع امارة انطاكيه . (٣)

والواقع أن امراء ريموند الصنجيل اعترفوا بسيادة كنيسة انطاكية فلم تكن هذه السيادة موضع الوطأة عليهم ، لانهم عينوا اساقفتهم دون ان يتعرضوا لشيء من التدخل . (٤)

أما عن العلاقات الاقتصادية : فقد اشتهرت طرابلس بعدة صناعات مثل صناعة الملابس والأقمشة الحريرية والمنسوجات السميكة المشهورة باسم المخمل وكلها كانت تصدر الى انطاكيه . وكذلك كانت منتجات انطاكيه ومزروعاتها من الحنطة والشعير والزيتون تصدر الى طرابلس .

وفي الواقع أن الحياة الاقتصادية في الامارات الصليبية كما اوضحنا كانت تعتمد اعتمادا كبيرا على التبادل والاتجار مع بلاد المسلمين (٥) وكانت هناك رسوم جمركية

---

(١) السيد عبد العزيز سالم : طرابلس الشام ص ٢١٠

(٢) J.Richard: op. cit. p. 59

(٣) السيد عبد العزيز سالم : طرابلس الشام ص ٢٠٩ ، ٢١٠

(٤) Runciman: op. cit. Vol. 2- p. 311 .

(٥) نظير حسان سعداوي : الحرب والسلم زمن الحدود الصليبي ص ١٧٢

تتحصل على التجارة على الحدود بين امارة طرابلس وامارة انطاكية (١) .

* * *

علاقة امارة طرابلس بامارة الرها :

استغل بلدوين البولوني أن يصبح سيد الرها وحاكمها وصاحب السلطان فيها نتيجة لثورة مارس سنة ١٠٩٨ م التي انتهت بقتل ثوروس الارمني وانتقال مقاليد الامور في الرها الى يد بلدوين البولوني الذي تلقى الدعوة من سكان المدينة (٢) ليتقلد حكومتها .

وكانت الرها أولى الامارات التي اقامها الصليبيون في الشرق (٣) . وهي التي اصبحت الدرع الواقي للصليبيين بالشام ضد الاخطار التي هددتهم من جانب سلاجقة فارس والعراق .

على أن امارة الرها ظلت تعاني دائما من نقطتي ضعف واضحتين . أولاهما عدم وجود حدود طبيعية تحميها وتذود عنها وتكسبها وقاية ومناعة . والثانية : عدم تجانس سكانها .

بدأت الصلات الاولى بين امارة الرها وامارة طرابلس نتيجة لسياسة بلدوين الاول ملك بيت المقدس عندما أتى برتراند الى الشرق وتحالف ضده وليم جوردان وتانكرد . أرسل الملك بلدوين الى تانكرد ليقابله امام اسوار طرابلس كما ارسل ايضا الى بلدوين كونت الرها (٥) .

وفي يونيه سنة ١١٠٩ م اجتمع خارج اسوار طرابلس كل امراء الشرق الفرنجي وكان هناك فريقان يواجه كل منهما الآخر خارج طرابلس . ففي الجانب الاول وقف : الملك بلدوين الاول وبرتراند وبلدوين دي بورج وجوسلين . وفي الجانب الآخر وقف تانكرد ووليم جوردان بقليل من الاتباع .

وكان أن استطاعوا أن يصلوا الى عدد من الحلول الموفقة والمرضية بينهم منها

---

(١) السيد عبد العزيز سالم : طرابلس الشام ص ٢٣٢ ، ٢٣٣

(٢) سعيد عاشور : الحركة الصليبية جـ ١ ص ٤١٨ ، Runciman: V.I-p.206

(٣) حسن حبشي : الحرب الصليبية الاولى ص ٩٧ — ١٠٩

(٤) سعيد عاشور : الحركة الصليبية جـ ١ ص ٤٣٧

(٥) Setton: op. cit. Vol. I -p. 396 ; Grousset: op. cit. Vol. I - p. 356 .

أن يقف تانكرد عن اعتداءاته في الرها ويعترف برد ما لبلدوين د ي بورج قريب الملك بلدوين . وكان بلدوين د ي بورج اسيرا في قبضة بكرمش في سجن الموصل بينما كان جوسلين اسيرا في قبضة سقمان بن ارتق في حصن كيفا ، وذلك عقب هزيمتهما في موقعة حران (البليخ) . في ذلك الدور كان تانكرد وصيا على الرها . فلما اطلق سراح بلدوين سنة ١١٠٨ م بعد أن دفع له جوسلين مقدم الفدية توجه الى تانكرد الذي ظل يحكم الرها اربع سنوات يدافع عنها ويدبر امورها ، فعز عليه ان يتنازل عن ذلك السلطان الى أن تدخل بينهما بطرك انطاكيه فاصلح بينهما واتفقا عادا واقتبلا من بعضهما قربى بعد أن ضم كل واحد منهم اليه بعض الحلفاء المسلمين . فضم بلدوين اليه جاولي بينما ضم تانكرد رضوان (١) .

وهكذا كان لتأزم بطنة بين العلي فرصة لأن يتم الوفاق شكلا بين تانكرد وبلدوين كونت الرها وجوسلين . وعوض بلدوين تانكرد عن ذلك بمنحه اقطاعات في طبرية والناصرة وعينا وقبة الصخرة (٢) . فاتفق بذلك الفرنج كلهم وازالوا ما كان بينهم من الضغناء وتصافوا بعد النفار (٣) واذا انعقد الصلح بين القادة ، انهمر جيش الفرنج للاستيلاء على طرابلس ولم يكن يومئذ طرابلس تلك المدينة التي تستعصي على الحصار ست سنوات متواصلة أن تقاوم فرسان بيت المقدس وروفسانس وأنطاكيه والرها مجتمعين (٤) .

وهكذا كان لامارة الرها دور في المساهمة في انتزاع طرابلس من المسلمين وفي ذلك الوقت كانت الدولة السلجوقية قد انقسمت للسلطان محمد بن ملكشاه بعد وفاة أخيه بركياروق فانفرد بحكم (٥) . وهنا تهيأت الفرصة لتوجيه قواته لقتال الفرنج (٦) فاجتمعت العساكر التي امرد السلطان بالمسير الى قتال الفرنج . فأعد مودود امير الموصل حملة كبيرة لمحاربة الصليبيين واشترك معه في تلك الحملة سكمان القطبي امير خلاط وميافارقين ، ونجم الدين ايلغازي بن ارتق امير ماردين في ديار بكر وفي صحبته عدد كبير من التركمان (٧) للاستيلاء على الرها .

---

(١) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ١ ص ٤٤٩ ، ٤٥٢ .
(٢) Setton: op. cit. Vol. I-p. 398 .
(٣) ابن العديم : زبدة الحلب ص ١٥٤ ، ابن هاشم البغدادي : اعلام النبلاء ج ١ ص ٤٠٨ .
(٤) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ١ ص ٢٧٠ ، ٢٧١ .
(٥) العماد الاصفهاني : تاريخ دولة آل سلجوق ص ٨٢ ، ٨٣ .
(٦) ابن الاثير : الكامل ج ١٠ ص ٤٨٥ حوادث سنة ٥٠٥ هـ .
(٧) ابن العديم : زبدة الحلب ص ١٥٩ .

وكان السبب في ذلك استغاثة القاضي ابن عمار امير طرابلس بالخليفة العباسي المستظهر بالله لدرء الخطر الصليبي عنه ، وخرج مودود فزحف أولا على امراء الرها - وهي اقرب الامارات اليه - حتى لا يطعن من الخلف اذا تقدم صوب طرابلس (١) ، وعندئذ اسرع بلدوين الثاني دي بورج الى ارسال جوسلين دي كورتناي الى فلسطين للاستنجاد بالملك بلدوين الاول .

وكان الملك بلدوين وبرتراند قد نزلا على ثغر بيروت برا وبحرا فسار جوسلين صاحب تل باشر الى ثغر بيروت لمعاونة النازلين عليه من الافرنج ويستنجد بهم على عسكر الامير مودود النازلين على الرها (٢) .

ولم يستطع بلدوين الاول ملك بيت المقدس الحضور على عجل لانه كان يحاصر بيروت (٣) وأوشكت المدينة ان تسقط في يده عندما بلغه استغاثة بلدوين دي بورج وبعد الانتهاء من حصار بيروت في ١٢ مايو سنة ١١١٠ م سار بلدوين الى الشمال صوب الرها ومعه برتراند امير طرابلس وامير بن أرمنين وهما كوغ باسيل حاكم كيسون وأبو الغريب حاكم البيرة (٤) .

ولم يكن من السهل على مودود فتح الرها لما اجتمع عنده من العسكر الكثيف والرغبة في الجهاد - هذا الى جانب الجفوة التي استحكمت حلقاتها بين بلدوين دي بورج وبين تانكرد . غير أن آماله تبددت عندما نجح الملك بلدوين في ازالة الجفوة بين الاميرين الصليبيين وجمع كثيرا من الأرمن تحت رايته (٥) وسار بهم شطر الرها مما حمل مودود على رفع الحصار والرجوع عن محاولته .

ولا أدل أيضا على اتحاد الصليبيين وتماسكهم ازاء الاخطار التي واجهتهم من جانب المسلمين ما حدث سنة ١١١٢ م عندما تمرد طغتكين اتابك دمشق (٦) من حين لآخر وغارات من جانب بلدوين ملك بيت المقدس . فكتب طغتكين الى مودود يلح اليه القدوم الى الشام مرة أخرى (٧) . وكان بلدوين دي بورج امير الرها بحكم قربه من الموصل - أول من أحس بحركة مودود وحلفائه فأسرع الى تحذير

---

(١) حسن حبشي : نور الدين والصليبيون ص ١٣
(٢) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٦٧ ، كرد علي : خطط الشام ج ١ ص ٢٩٤
(٣) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ١ ص ٤٥٦ ، ٤٥٧
(٤) Setton: op. Cit. -Vol. I - p. 399 .
(٥) حسن حبشي : نور الدين والصليبيون ص ١٣ ، ١٤
(٦) Runciman : op. cit. Vol.2 -p. 126 .
(٧) حسن حبشي : نور الدين والصليبيون ص ١٧

الملك بلدوين الاول ملك بيت المقدس . وعندما احس الملك بلدوين بخطورة الموقف استنجد بأصدقائه الاقربين مثل روجر الانطاكي وبونز امير طرابلس . أما بلدوين دي بورج امير الرها . فكان من الواضح أنه يتعرض لخطر شبه دائم من جانب الاتراك . لذلك لم يطلب اليه بلدوين الحضور (١) .

وفي ١٤ ابريل سنة ١١١٨ م أصبح بلدوين دي بورج امير الرها ملكا على بيت المقدس باسم بلدوين الثاني ، وأتت أول عقبة واجهته من جهة بونز امير طرابلس الذي رفض فجأة بذل الولاء لملك بيت المقدس دون سبب واضح في التاريخ (٢) .

وفي سنة ١١٢١ م واجهت الرها خطرا جديدا في شخص بلك بن أرتق صاحب قلعة جعبر ، الذي أراد جوسلين الاول أن يقف في وجهه الا أن نور الدولة بلك بن أرتق نهض في عسكره وقصد الافرنج بالرها وأوقع بهم وكسرهم وأسر مقدمهم جوسلين عند سروج (٣) .

وعندما أراد بلدوين الثاني الذي صار وصيا على امارة انطاكيه بعد مقتل روجر على الرها بعد أسر جوسلين أن يقوم بعمل حاسم ليفهم المسلمون أن القوة الصليبية لا زالت قوية باطشة ، وأنها تستطيع الدفاع عما بيدها ضد أية محاولة اسلامية يراد بها اضعاف هيبة الصليبيين في أية امارة من اماراتهم لذا أخذ بلدوين الثاني في الاستعداد لمهاجمة حلب غير أن بلك فاجأ بلدوين في بعض الدروب وأسره ووضعه مع جوسلين . وترتب على ذلك خلو ثلاث من الامارات الصليبية الاربع وهي انطاكيه والرها وبيت المقدس من حماتها الذابين عن كيانها على أنه بقيت هناك طرابلس ولم يكن في بونز اميرها ما يؤهله لجمع كلمة الصليبيين ولتزعم حركتهم وليس لديه من القوة ما يمكنه من تخليص الاميرين الصليبيين (٤) .

وعندما قام الامير الاسفهسلار " أر سنقر البرسقي " الذي استطاع أن يجمع بين ملكي الموصل وحلب ليهاجم امارة انطاكيه فانه استولى على كفرطاب وسار الى قلعة عزاز وهي من أعمال حلب وصاحبها جوسلين . ولكن (٥)

---

(١) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ١ ص ٤٦٨

(٢) Runciman: op. cit. Vol.2 p.p. 160-161 .

(٣) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٠٨

(٤) حسن حبشي : نور الدين والصليبيون ص ٢٠

(٥) ابن الاثير : الكامل ج ١٠ ص ٦٢٨ حوادث سنة ٥١٩ هـ

الفرنج احتصروا بلدوين الثاني ملك بيت المقدس وبونز امير طرابلس وجوسلين دي كورتناي امير الرها ، وقد عزز دارت المعركة بين الصليبيين بقيادة بلدوين الثاني والمسلمين بقيادة البرسقي (أواخر مايو واوائل يونيه سنة ١١٢٥) وفيها انتصر الصليبيون وقتلوا من المسلمين اكثر من ألف .

وفي سنة ١١٢٠ م عندما حاولت الاميرة الهس أن تستأثر بالحكم في انطاكيه دون ابنتها كونستانس وذلك عقب مقتل بوهيمند الثاني ، نجد أن ثلاثة من امراء الصليبيين قاموا بتأييدها وهم وليم صاحب حصن صهيون وجوسلين الثاني امير الرها وبونز امير طرابلس (١) .

وأخيرا نستطيع أن نقول ان علاقة امارة طرابلس بامارة الرها كان يربطهما طابع واحد هو الولاء لسلطة بيت المقدس . ونقول ايضا ان تاريخ الامارات الصليبية الاربع كان يسير في طريق واحد ، فاذا ما تعرضت احدى هذه الامارات لخطر المسلمين هب البقية لنجدتها ، اللهم الا اذا كانت احداهن تتعرض لبعض الاخطار الخارجية التي تحول بينها وبين تقديم المساعدة .

ولم تكن هذه العلاقات السياسية والحربية وحدها هي طابع العلاقة بين امارة طرابلس وامارة الرها . فقد كانت هناك علاقات كنسية بين الامارتين وهي أن كنائس كل من الامارتين كانت تخضع لبطريركية انطاكيه . وكان بالرها كنيسة عظيمة وأكثر من ثلاثمائة دير للنصارى (٢) . أما عن العلاقات الاقتصادية : فكان نظرا لوجود الرها بالداخل بعيدا عن القوافل ، فان تجارة حوض البحر المتوسط كانت تصل اليها عن طريق موانئ البحر المتوسط ومنها امارة طرابلس ثم تحملها القوافل الى الرها .

وكانت الرها مدينة عامرة بالخيرات وليم ادل على ذلك من قول المؤرخ المعاصر وليم الصوري حين سقطت الرها " وهكذا ضاعت المدينة التي تمدنا بالخير الكثير " (٣) ويبدو أن الصليبيين كانوا يعتمدون عليها في امدادهم بالمواد الغذائية اللازمة لهم

وكانت طرابلس تصدر اليها ما تحتاجه من منتجاتها ومزروعاتها — من حرير وسكر وغير ذلك من الصناعات التي اشتهرت بها طرابلس .

---

(١) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ١ ص ٥١٢

(٢) ابو الفدا : تقويم البلدان

(٣) William of Tyre:op.cit. Vol. 2 -p. 144 .

الفصل الخامس

النظم الادارية والأوضاع الحضارية في امارة طرابلس الصليبية

أولا ـ نظم الحكم والادارة

ثانيا ـ النظام العرفي في امارة طرابلس الصليبية

ثالثا ـ نظم امارة طرابلس القضائية

رابعا ـ النظام الكنسي في امارة طرابلس الصليبية

خامسا ـ الحياة الاجتماعية في امارة طرابلس

سادسا ـ النظم المالية في امارة طرابلس

سابعا ـ الحياة الثقافية والعلمية في امارة طرابلس

أولا — نظم الحكم والادارة :

طبق الصليبيون بالشام كثيرا من النظم الاقطاعية التي خبروها ، وعاشوا في ظلها في الغرب الأوربي قبل حضورهم الى الشرق ، ويمكننا القول بأن الامارات الصليبية شابهت مملكة بيت المقدس في نظمها القضائية والادارية ، مع بعض الاختلافات المحلية البسيطة التي نتجت عن الظروف التي احاطت بكل امارة من ناحية ، والعناصر البشرية التي تألفت منها الامارة من ناحية أخرى (١) .

ففي امارة طرابلس الصليبية ، كان على قمتها الادارية :—

(١) الكونت : كانت شرعية حكم الكونت ، وسلطته ترجع الى القهر ، وكانت شرعية حكمه ترجع الى تغلبه على الاراضي التي كانت تتبع فيما مضى دوقية انطاكيه البيزنطيه أو المسلمين بعد ذلك . وفي البداية كان ريموند الصنجيلي موالياً لبيزنطيه أي أن كونتيته طرابلس في بدايتها لم تكن وحدة مستقلة من الوجهة القانونية . وكان هذا القهر قانونيا انما تبعا لموافقة الكنيسة وان لم يكن مترتبا على موافقتها أن تكون طرابلس تابعة لها (٢) .

وعلى هذا الأساس نستطيع أن نقول أن ريموند كان سيدا على الأراضي التي فتحها عن طريق شرعية الفتح (قانون القهر) . ولم يستمر القانون الذي اعترف به البابا أوربان الثاني في مؤتمر كليرمونت ، واحتل مكانه الحق الوراثي (٣) ، فان وليم جوردان ورث ريموند الصنجيلي على كونتية طرابلس فلما طالبه برتراند بارث ابيه رفض وليم جوردان التخلي عن حقه في ولايتها مستندا على حق الفتح ، لانه الذي افتتح عرقه وهو الذي حمى فتوحات ريموند من مطامع تنكرد ، ودافع عنها ضد غارات المسلمين كما بينا فيما سبق .

وترتب على نجاح برتراند في الاستحواذ على امارة طرابلس ، أن أصبح من حق اعقابه من بعده أن يخلفوه على امارة طرابلس بحق الوراثة . لذلك نجد الفونس جوردان بن ريموند الصنجيلي يحاول الاستفادة من مبدأ الوراثة لصالح ابنه برتراند الثاني لأن الفونس هو الابن الشرعي لريموند الصنجيلي .

---

(١) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ١ ص ٤٧٩ ، ٤٨٣

(٢) J.Richard: op.cit. -p.44 .

(٣) Ibid : p. 45 .

ويبدو أنه كان يميل الى تأكيد حقوقه ، فقي طريقه من انطاكيه الى بيت المقدس توقف في قيساريه ، فصرعه الموت فجأة (١) . وحاول برتراند الثاني الذي رفض أن يغادر الشرق بعد انتهاء الحملة الصليبية الثانية ان يستولي على امارة طرابلس ، ولكن كما رأينا ريموند يستنجد بنور الدين وأنر فد برتراند الثاني (٢) ، الذي انتهى امره بأن وقع في أسر نور الدين هو ، وأمه .

وكان نظام الوراثة في العرف الاقطاعي الغربي يقضي بأن الابن الاكبر وحده هو الذي له الحق في الاستئثار بوراثة الاقطاع كاملا . حقيقة أن الارض يسهل تقسيمها ، ولكن الاقطاع كان وظيفة والوظيفة لا تقسم لذلك حرص القانون الاقطاعي (٣) على انتقال الاقطاع كاملا في حالة وفاة صاحبه الى اكبر ابنائه . أما الفتيات فلم يكن لهن نصيب في تولية الامارة وهذا تماما ما طبق في امارة طرابلس بعد وفاة بونز . فقد كان لبونز ثلاثة ابناء ، الأول : ريموند الثاني ، الذي تزوج هودبرنا ، وأنجب منها ريموند الثالث وابنته ميلزاند ، والثاني : فيليب ، والثالث : ابنته اليس التي تزوجها رينو الثاني ، صاحب المرقب .

وبناء على هذا فانه لم يتول من ابناء بونز سوى ابنه الاكبر ريموند الثاني وظل امراء طرابلس يتوارثون منصب الامارة وفقا للقانون الاقطاعي المعروف في الغرب في حين — على العكس من ذلك — ظلت الملكية في بيت المقدس تتأرجح (٤) بين مبدأ الوراثة حينا ومبدأ الانتخاب احيانا . وكان ريموند الصنجيل وخليفته وليم جوردان يتلقبون بلقب (قائد الجيش المسيحي في بلاد الشام) أي أنهم رفضوا أن يتلقبوا بأي لقب يضفيه عليهم املاكهم بالشرق ، وربما كان ذلك لأن العاصمة طرابلس لم تسقط (٥) . اما خلفاؤهم بونز وريموند الثاني ، وريموند الثالث فقد اتخذوا لقب (كونت طرابلس بمشيئة الله) (١) . هذا في حالة اذا كان الكونت قد وصل سن الرشد (ودخل فارسا) .

أما اذا كانت الامارة تحت الوصاية فان الوصي على الكونته كان يقوم مقام الكونت في جميع شئون الكونتيه طالما كان الكونت قاصرا .

---

(١) Runciman:V.2p.208 . (٢) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٠٠ ، ويرى رانسمان أنها كانت اخته Runciman:V.2-p. 208 .

(٣) سعيد عاشور : اوربا العصور الوسطى جـ ٢ ص ٤٩

(٤) سعيد عاشور : الحركة الصليبية جـ ١ ص ٤٨١

(٥) Runciman:op.cit.V.2 -p.6I;J.Richard:op.cit.p. 47 .

(١) J.Richard : op. cit. -p. 47 .

أما اذا وقع الكونت في الأسر — مثلما حدث عند اسر ريموند الثالث فقد تولى امر الكونتيه ملك بيت المقدس بوصفه اقرب اقرباء الكونت.

وقد حدث في حالة بونز عندما مات ابوه برتراند في ٣ فبراير سنة ١١١٢م (١) الثاني من شعبان سنة ٥٠٥ هـ ، أن قام بالوصاية عليه مجلس للوصاية ويعبر ابن القلانسي عن هذا المعنى (وفي الثاني من شعبان ورد الخبر بهلاك بدران بن صنجيل (برتراند) صاحب طرابلس بعلة لحقته ، وأقام ابنه في الامر من بعده ، وهو طفل صغير كفله اصحابه ، ودبروا امره مع طنكري (٢) صاحب انطاكيه ، وجعلوه من خيله ، ليتدرب على الفروسية (٣) .

وفي حالة ريموند الثاني ، الذي تولى صغيرا ، قام رجل من مقدمي عسكر طرابلس يعرف باسم ، البرت Albertus (٤) بالوصاية عليه .

وبالاضافة الى أن الكونت يحتل قمة الهرم في الجهاز المحلي في كونتيته فانه كان يتولى رئاسة المحكمة العليا ، ويعتبر القائد الاعلى لقوات الكونتيه وهو المسئول عن الادارة المركزية فيها ، فيقوم بتعيين موظفيها ، ولما له من السيادة على الاتباع ، جاز له أن يمنعهم (٥) من التصرف في اراضيهم ، وأن يختار الأزواج المناسبين للاناث الذين يرثون اقطاعات آبائهم .

ومهما تعددت سلطات الكونت فانه كان مقيدا في كثير من المسائل برأي امرائه فضلا عن رأي المحكمة العليا (٦) ، وكان الكونت يستخدم من جانبه أحد مواطنيه ليكون ، مرشدا له ، كما استخدم كاتبا ملما باللغة العربية يتولى أمر سجلاته (٧) .

النظام الاداري :

كان النظام الاقطاعي في الشرق يتميز بوجود عدد من الشخصيات الهامة يساعدون الامير في شئون الادارة ، وهم من كبار موظفي البلاط الذين يختارهم

---

(١) Setton: op. cit. Vol. I -p. 401 .

(٢) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٨١

(٣) Setton: op. cit. Vol. I - p. 401 .

(٤) J. Richard: op. cit. p. 48 .

(٥) Runciman : op. cit. Vol. 2-p. 300 .

(٦) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ١ ص ٤٨١

(٧) Runciman: op. cit. Vol. 2 p. 296 .

الكونت من بين كبار المقطعين بالكونتيه . ويهمنا هنا أن نشير قبل أن نمضي في تحديد الوظائف في امارة طرابلس الى أن النظم الادارية التي كانت في امارة طرابلس كانت شبيهة بالنظم الموجودة في مملكة بيت المقدس . فللكونت محكمته العليا التي التزم بقواعدها ، واتخذ كبار موظفي بلاطه من الالقاب والوظائف ما اتخذه امثالهم في بيت المقدس لانها في حقيقة الامر سواء في بيت المقدس أو طرابلس مستمدة من الانظمة الاقطاعية السائدة في الغرب ، ولكن مع بعض الاختلافات المحلية البسيطة التي نتجت عن الظروف التي احاطت بكل امارة من ناحيته ، والعناصر البشرية التي تألفت منها الامارة من ناحية أخرى (١)

وكان على رأس هؤلاء الموظفين الاداريين : —

القهرمان Le Seneschal ، وكان يشرف على الاحتفالات الكبرى ويتقدم المواكب ويعتبر رئيس الادارة المدنية ، أي أنه كان يقوم بدور رئيس الوزراء في الوقت الحاضر (٢) . وكان القهرمان في طرابلس كما في انطاكيه أو بيت المقدس يذكر بصفة عامة في نهاية قائمة الشهود . على حين كان هناك ضابط آخر (مدني) Le Champrier يتولى في معظم الاحيان امر الخزانة . ولا نعرف سوى ثلاثة اسماء من الذين تولوا هذه المهمة في طرابلس وهم جوتييه دي مارجو Goutier De Margat (١١٢٧ م) ورينو Renaud (١١٣٩م) والبيرت . Albert (٣) (١١٤٢م)

وكان أهم الموظفين في الجهاز الاداري ضابطين كبيرين هما الكنداسطبل Constable ، والمارشال (٤) .

اما الكنداسطبل ، فهو قائد الجيش تحت رئاسة الكونت العليا (٥) أي أن الكونت هو قائد الجيش ، اما الكنداسطبل فهو قائد الجيش اثناء غياب الكونت ، ويعتبر

---

(١) سعيد عاشور : الحركة الصليبية جـ ١ ص ٤٨٣ ، — Runciman:op.cit.V.2 p. 306 ;Cam.Med.Hist.Vol.5 -p. 304 .

(٢) سعيد عاشور : الحركة الصليبية جـ ١ ص ٤٨٢

(٣) J.Richard : p. 48 ;Runciman:op.cit. Vol.2 -p.308 .

(٤) J.Richard : op. cit. p. 48 .

(٥) سعيد عاشور : الحركة الصليبية جـ ١ ص ٤٨٢

(٥) المرجع السابق ، الجزء والصفحة

مسئولا عن كل ما يتعلق بنظامه ، وادارته ، وفي حفلة تولية الكونت كان يحمل لواء الكونت ، ويمسك بلجام الحصان . وكان هذا من الاعمال الاضافية التي يتقاضى عنها أجرا . وكان له قضاء خاص يخضع له كل العساكر المرتزقة الذين يستأجرهم الكونت .

واذا لم يحضر الكونت الحملة صار للكند اسطبل السلطة التامة على الحملة (١) ويستدل على ذلك مما أورده ابن القلانسي فيقول " مقدمهم بدران بن صنجيل والمقدم كند اصطبل (٢) " . وفي موضع آخر انه أثناء حصار ريموند الصنجيل لطرابلس رحل عنهم الى مدينة اندرلوس ، وهي من أعمال طرابلس ، فحصرها وفتحها ، وقتل من بها من المسلمين ، ورحل الى حصن العلويان وهو بقارب رفنيه ، ومقدمه يقال له ابن العريض ، فقاتلهم ، فنصر عليه اهل الحصن وأسر ابن العريض منه فارسا من اكابر فرسانه ، فبذل صنجيل في فدائه عشرة آلاف دينار ، وألف اسير ، فلم يجبه ابن العريض الى ذلك (٣) .

ويقول ريشارد أن هذا الشخص المأسور كان رئيسهم ، وكان يدعى الكند اسطبل (٤) ويقول انه كان يتولى قيادة الجيش في غياب ريموند الصنجيل .

وكانت مهمة قيادة الجيش لا يتولاها المرء مدى الحياة ، فمثلا (هيج سنزافر Huguos Son Zaver) الذي لمع اسمه بين عامي ١١٤٥م الى عام ١١٨٤ م لم يمارس القيادة الا في الفترة من ١١٦١ م الى ١١٦٣ م .

أما ريموند دي جبلبه Raymond De Gibelet الذي اشتهر في الفترة من ١١٧٤ — ١١٩٨ م فقد تولى القيادة من عام ١١٨١ — ١١٨٣م ، وأرنودي كرست Arnoudde Crest كان قائدا أعلى (كند اسطبل) من عام ١١٥١ — ١١٥٦ م ، وفي عام ١١٦١م ظهر في صحبة قائدا اعلى جديد (كند اسطبل) (٥) جيلهيم بيسير ، جيلهم ريموند .

---

(١) Runciman: op.cit.Vol.2-p.304 .

(٢) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٩٧

(٣) ابن الاثير : الكامل ج ١٠ ص ٢٤٤ حوادث سنة ٤٩٥هـ ، كرد علي : خطط الشام ج ١ ص ٢٨٥ ، النويري : نهاية الارب ج ٢٦ ص ٢٧

(٤) J.Richard: op. cit. p. 48 .

(٥) Ibid : p. 49 .

أما المارشال Le Marechal فينوب عن الكندا سليل في كل الامور
وأما الحاجب Chamberlian ، فكان مسئولا عن حاشية الكونت الشخصية (١)
وأمواله ، وفي اوقات المواكب يؤدي دور الامين الخاص . وتعتبر وظيفته
من الوظائف التي تعود على صاحبها بربح وفير ، نظرا لما يبذله الاتباع (٢)
له من الهدايا عندما يحلفون يمين الولاء .

الساقي : ولم تكن اختصاصات الساقي معروفة ، والراجح أن واجباته ارتبطت بالاحتفالات فحسب .

كبير كتاب الانشاء Chancellar فكان دائما من رجال الكنيسة على الرغم من أنه لم يكن كاهن الكونت . وباعتباره رئيس ديوان الانشاء كان من اختصاصه أن يحرر كل الوثائق ، وكان يتولى حمل خاتم الكونت وكتابة القوانين (٣) التشريعية .

ولا نعرف من الوظائف الخاصة بالحريم غير وظيفة " القيمة على غرفة اميرة طرابلس " وهي وظيفة تقابل القهرمانة في قصور الخلفاء والسلاطين وهناك أيضا وظيفة قيم الكونتيسة .

الفيكونت : يعتبر الفيكونت أهم موظفي الادارة المحلية ، فهو يمثل الكونت في كل المدن التي تقع في اقطاعات الكونت ، ويتولى جباية الضرائب المحلية ثم يرسلها الى بيت المال ، بعد استقطاع ما احتاج اليه منها لنفقات الحكومة المحلية ، وكان الفيكونت مسئولا ايضا عن المحاكم المحلية ، وعن حفظ الأمن بوجه عام في مدينته ، وكان يختار من اسرة نبيلة . ولكن وظيفته ليست وراثية .

المحتسب : الذي ظل محتفظا بالاسم العربي (Mathessep) وكان يسمى ايضا كبير السرجنداريه ، وهو المسئول الرسمي عن لوائح الاسواق (٤) .

هذا عن كبار الموظفين في امارة طرابلس الصليبية ، أما الدواوين فكان أهمها :

ديوان الرسائل : الذي ظل ديوانا للمحفوظات الخاصة بالكونت وعلى الرغم

---

(١) سعيد عاشور : الحركة الصليبية جـ ١ ص ٤٨٢
(٢) Runciman:op.cit. Vol.2 p. 304 .
(٣) Runciman: op. cit. Vol.2 - p. 305 ; J.Richard:p.48 .
(٤) Runciman: op. cit.Vol.2 p. 306 .

من الاهتمام بالمحافظة على سجلات هذا الديوان فانه لم يبق منها الا القليل ، وكانت اللاتينية هي لغة ديوان الرسائل في القرن الثاني عشر (١) .

النظام الحربي في امارة طرابلس الصليبية :

قبل الخوض في الكلام عن النظم الحربية في امارة طرابلس الصليبية يجب أن نشير الى أن ارقام القوات في طرابلس افتراضية ، وأنه كان بكونتية طرابلس فيما يبدو نحو مائة اسرة من النبلاء ، والفرسان (٢) . ويذكر اسامة ابن منقذ أن عدد جيش طرابلس كان ثلثمائة فارس ومائتي تركبولي (٣) .

وكان يتولى قيادة هذا الجيش كما اوضحنا الكونت او المقدم كداسطبل او مساعده المارشال (القسطلان) (٤) .

وكان الجيش يتكون : أولا من الفرسان : وهم صفوة الجيش ، وأهم عناصره الضاربة ، وهم يمثلون الارستقراطية ، وكانوا قلة .

ثم يأتي بعد ذلك المشاه ، ويتألفون من رماة السهام ، والأقواس ، وحملة الفئوس والسيوف القصار التي يشد وسطها الى زنار حول اوساطهم ويصفهم لنا أحد الكتاب المسلمين فيقول أن رجاله الصليبيين كانوا قسمين ، قسم يسير امام الخيالة ، وقسم مستريح ، يمشي ولا قتال عليه ، فاذا تعب المقاتلة أو أثخنتهم الجراح قام مكانهم المستريح . أما الخيالة فلا يخرجون عن الرجالة الا في وقت المعركة (٥) .

وهذه الفئة هم فئة السرجندية الرجالة (٦) وهم عامة الصليبيين الذين لم ينتموا الى الفرسان والنبلاء ، والذين شاركوا في الحركة الصليبية (٧) . وكانوا ينزلون في اقطاعات سادتهم ، وفقراء لأنهم لم يكن لديهم من شرف المولد ما يعتزون به ، تزوجوا من السيدات الوطنيات (٨) . ولكن جيش امارة طرابلس

---

(١) Runciman: op.cit.Vol.2 -P.306 .

(٢) Ibid: Vol.2 - p. 291 .

(٣) اسامه بن منقذ : الاعتبار ص ٥١

(٤) ابن ايبك الدوادار : كنز الدرر وجامع الغرر ج ٨ حوادث سنة ٦٦٦ هـ

(٥) حسن حبشي : نور الدين والصليبيون ص ١٥٤ ، ابن شداد : النوادر السلطانية ص ٢٥١

(٦) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٩٨

(٧) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ١ ص ٤٩٢

(٨) Runciman: op. cit. Vol. 2 p. - 292 .

لم يكن يتألف من هذين العنصرين فقط ، فكما يقول ابن القلانسي أن في جيش " الافرنج الخيالة ، والمرجلة الرجاله ، والتجار الخيالة والرجالة " وهم نصارى لبنان المرتزقة ، وهم من الموارنة ، أو عناصر مسيحية أخرى كالبعاقبة والنساطرة وغيرهم ممن كان الكونت يجمعهم من أعمال طرابلس .

واتصف الموارنة بقوة العزيمة ، وبأنهم محاربون شجعان ، فاتصلوا بالصليبيين في البترون ، التي كانت تابعة لامارة طرابلس ، وأمدوهم بأدلاء كانوا في أمس الحاجة اليهم ، وهم في طريقهم الى بيت المقدس . أما التركبولية Turcopole ، وهم الذين يجري تجنيدهم محليا ، فكانوا يحتذون بالخيالة البيزنطية الخفيفة فيما اتخذوه من سلاح ونالوه من تدريب وكان هؤلاء التركبوليه آباؤهم اتراك أو (عرب) وأمهاتهم من الروم وكانوا يلقبون بأنهم رماة الافرنج .

ونريد أن نشير هنا الى أن عدد الجيش في امارة طرابلس كان يتعرض للزيادة أحيانا نتيجة لوصول بعض الجنود مع أحد الامراء . ومثال ذلك ما حدث عندما وصل برتراند الى الشرق ، فقد اصطحب معه قوات كبيرة ، وكذلك حينما اتى الكونت جوردان ، وابنه برتراند الثاني . ولكن هذه القوات لم تكن تأتي بانتظام ولكنها في الغالب كانت نادرة ، ولذلك لم يكن يعتمد عليها .

كما كان يوجد بجانب هذا الجيش المقاتل حاميات موزعة في الحصون والقلاع ولم يكن المواطن القادر يعتبر عاديا للجندية .

ويهمنا أن نقول هنا أن جيش امارة طرابلس لم يكن كافيا للدفاع عنها ، ضد غارات المسلمين . وأن الطبقة العسكرية الصليبية في الشرق بوجه عام ، وامارة طرابلس بوجه خاص كانت في قصور مستمر في اعداد الجند نتيجة المرض والوفاة أو العودة الى الغرب الأوربي .

لذلك نجد كونتات طرابلس يعتمدون في الدفاع عن كونتيتهم على الفرسان

---

(١) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٦٨

(٢) Hitti:Le Banon im history-p.285.

(٣) Runciman: op. cit.Vol.2-p. 292.

(٤) اسامه بن منقذ : الاعتبار ص ٥١

(٥) Runciman : op. cit. Vol.2 -p. 296 .

(٦) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ١ ص ٤٨٦

الاسبتاريه والداوية . فمنذ البداية نجد بونز يمنح الاسبتاريه في سنة ١١١٥م بعض الاراضي بين طرابلس والبترون ، وكذلك في سنة ١١٢٥ ، ١١٢٧م ، منحهم بعض القرى في البقيعة . وكانت الاسبتاريه حتى ذلك الوقت تجمع بين الصفتين الدينية ، والعسكرية ، وكانوا يسهمون بدور كبير في جميع الحروب التي يخوضها الكونتات ضد المسلمين (١) .

ولكن حدث في عهد ريموند الثاني أن اشتد خطر غارات عماد الدين زنكي على اراضي الكونتيه . ففي نفس العام الذي تولى فيه ريموند الثاني امارة طرابلس، نازل عماد الدين زنكي مدينة حمص ، فأقام عليها الى العشرين من شوال ، ورحل عنها من غير بلوغ غرض الى بعرين ، فحصرها (٢) ، وتمكن المسلمون من انتزاع حصني بعرين ، ورفنيه من الكونت ريموند . وكان لهذه الهزيمة أثرها في استنفاد قوى كونتيه طرابلس ، وتعرضها لخطر المد الاسلامي .

ونتيجة لذلك نجد ريموند الثاني يستنجد بفرسان الاسبتاريه للدفاع عن حدود كونتيته ، وتخلى لهم عن كثير من الحصون ، والقلاع ، مثل بعرين ، ورفنيه وحصن الاكراد ، وأعناز ، وأصبح ليس من حق الكونت أن يعقد أي هدنه مع المسلمين بدون استطلاع رأي الاسبتاريه ، كما اصبح من حق الاسبتاريه الحصول على جزء من الغنيمة التي يغتنمونها من المسلمين (٣) .

وازداد عجز جيش الكونتيه في الدفاع عن اراضيها بعد وقوع ريموند الثالث في اسر نور الدين ، وخاصة بعد وقوع الزلازل سنة ١١٧٠ م ، وتخريب حصون عرقة ، وعكار ، والاكراد ، وصافيثا مما جعل الملك عموري الوصي على طرابلس يعطي الاسبتاريه حصني عرقة ، وعكار ليتولوا امر الدفاع عن الكونتيه .

وكذلك حدث في سنة ١١٨٠ م نتيجة للغارات التي شنها صلاح الدين على كونتيه طرابلس ، أن اضطر ريموند الثالث الى التخلي عن بعض حصون كونتيته مثل حصن الطرفان بكل ملحقاته للاسبتاريه لتتولى امر الدفاع عنها (٤) .

من ذلك كله يظهر لنا ضعف جيش كونتيه طرابلس ، وعجزه عن حماية حدودها

---

(١) J.Richard: op. cit. p. 61 .

(٢) ابن الاثير : الكامل ج ١١ ص ٥١ حوادث سنة ٥٢١ هـ

(٣) J.Richard: op. cit. p. 63 .

(٤) Ibid : p. 63 .

واضطرار الكونتات الى منح القلاع والحصون التي خربتها جيوش المسلمين للمنظمات الدينية العسكرية مثل الداوية ، والاسبتار لترميمها ، واتخاذها مراكز دفاعية للكونتيه . وبذلك نستطيع أن نميز فترتين من تاريخ امارة طرابلس الحربي الاولى : وهي فترة القوة التي كان فيها جيش الكونتيه يتولى أمر الدفاع عن الامارة بنفسه . وهي الفترة التي انتهت بوفاة برتراند — ويمكن تعليل قوة الامارة في ذلك الدور بقدوم برتراند حديثا من الغرب وصحبته جيش كبير استطاع تحمل اعباء الدفاع عن الكونتيه ، هذا فضلا عن حالة التفكك التي اصابت المجتمع الاسلامي في ذلك الوقت فلم يكن هناك أي خطر مباشر وقوي على الامارة .

أما الفترة الثانية : فهي التي بدأت فيها بوادر توحيد الجبهة الاسلامية تظهر على يد مودود ، وايلغازي ، وملك بن ارتق ، الذين مات في سنة ٥١٨ هـ ١١٢٤م وقد قام على حصار منبج التابعة لامارة طرابلس(١) . هذا في الوقت الذي كان فيه بونز امير طرابلس ليس لديه الا قوة بسيطة(٢) . مما عرضه للهزيمة على يد التركمان كما وجدنا فيما سبق في سنة ٥٢٧ هـ (١١٣٢م) . وتكررت هذه الغارة من جانب التركمان على طرابلس في رجب سنة ٥٣١ هـ مارس ١١٣٧م حتى انتهى الامر بمقتل بونز ، وقيام ريموند الثاني من بعده ، وفي عهد ريموند الثاني زاد خطر غارات عماد الدين زنكي على اراضي الكونتيه ، وتوالت الهزائم التي حلت بريموند الثاني ، وكذلك عند قيام صلاح الدين فجاءت حالة الكونتيه تسوء اكثر مما ساءت على يد عماد الدين زنكي .

في هذه الفترة لم يستطع جيش الكونتيه ان يواجه هذه الهجمات القوية ولكننا نجد أن امر الدفاع عن معظم الكونتيه يؤول الى المنظمات الدينية العسكرية ، الاسبتاريه والداويه .

ولولا مساعدة هذه الطوائف لما بقيت الامارات الصليبية بوجه عام وطرابلس بوجه خاص هذه الفترة الطويلة(٣) .

هذا ما كان من أمر الجيش البري .

---

(١) حسن حبشي : نور الدين والصليبيون ص ٢١
(٢) المرجع السابق ص ٢٠ .
(٣) Runciman : op. cit. Vol. 2 -p. 319 .

أما عن البحرية ، فاننا نرى أن طرابلس بلد ساحلي ، اعتمد أول الامر على الاساطيل البيزنطيه التي كانت تمد طرابلس بالميرة ، وغيرها من قبرص.

وفي سنة ١١٠٢ م استطاع ريموند أن يستولي على انطرطوس بمساعدة فلول حملة سنة ١١٠١ م وبفضل مساندة اسطول جنوى كان مارا بسواحل الشام .

وفي سنة ١١٠٤ م استطاع ريموند بمساعدة الاسطول الجنوى أن يستولي على ميناء جبيل (١) . وبذلك يتضح لنا أن ريموند الصنجيل لم يكن له اسطول وأنه بفضل الاسطول الجنوى ، استطاع أن يستولي على انطرطوس في الشمال ، وجبيل في الجنوب ، وبذلك استطاع أن يفتح حدود امارته المستقبلة بفضل مساعدة الاسطول الجنوى .

ويذكر ابن الاثير أن الاسطول البيزنطي كان يقوم ايضا بمساعدة الصليبيين في حصارهم لطرابلس ، فيقول " ان ملك الروم امر اصحابه بالاذقية ليحملوا الميرة الى هؤلاء الفرنج الذين على طرابلس ، فحملوها في البحر (٢) "

وفي شعبان سنة ٥٠٢ هـ سنة ١١٠٨ م وصل برتراند في جملة ستين مركبا (٣) في البحر مشحونة بالافرنج والجنويين ، فنزل على طرابلس وبفضل الجنوية سقطت طرابلس ، ومنحهم برتراند ثلث طرابلس مكافأة لهم على خدماتهم ويبدو لنا أن كونتات طرابلس قد عمدوا بمساعدة الاساطيل الجنوية ، ولم يفكروا في بناء اسطول خاص بهم . وترتب على ذلك تعرض ثغور امارة طرابلس لهجمات الاسطول الفاطمي من مصر ، ففي سنة ٥٤٦ هـ (١١٥١ م) قام الاسطول المصري الى ثغور الساحل في غاية من القوة حتى قيل أن عدة مراكبه بلغت سبعين مركبا حربيا مشحونة بالرجال ، بالاضافة على طرابلس (٤) .

وكذلك حدث في سنة ٥٧٦ هـ (١١٨٠ م) أن عاد الاسطول المصري لمهاجمة انطرطوس التابعة لطرابلس (٥) .

ومنذ ذلك الوقت اهتم كونت طرابلس برعاية البحرية ، وانشأ اسطولا صغيرا ،

---

(١) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٤٣ ،
Setton: op. cit. Vol. I - p. 395 .
(٢) ابن الاثير : الكامل جـ ١٠ ص ٤١٢ حوادث سنة ٤٩٩ هـ
(٣) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٦٣
(٤) المرجع السابق ص ٢١٥
(٥) سعيد عاشور : الحركة الصليبية جـ ٢ ص ٧٦٣

كما قامت ايضا الطوائف الدينية العسكرية بانشاء اساطيل صغيرة (١) . ويقول ريتشارد أن بوهيمند الرابع امر بشحن سفنه العشرة ، وتسليحها لانقاذ مدينة صور سنة ٥٨٤ هـ (١١٨٨ م) (٢)

ومما يدل على وجود اسطول خاص بالامارة في ذلك الوقت ، ما أورده وليم الصوري من أن ريموند الثالث عندما طالب الامبراطور البيزنطي بأن يعوضه عما أنفقه في تجهيز ابنته ميلسند ، وامتنع الامبراطور عن اجابته الى طلبه أمر ريموند الثالث باعداد الاسطول المؤلف من اثني عشر سفينة والذي كان قد جهزه لمرافقتها الى القسطنطينية بالاغارة على قبرص (٣) . مما يدل على وجود اسطول خاص بالامارة في ذلك الوقت .

* * *

نظم امارة طرابلس القضائية :

كان دستور امارة طرابلس شبيها بدستور مملكة بيت المقدس (٤) فكان للكونت المحكمة العليا : وهي هيئة قضائية لها وظيفتان اساسيتان :

الاولى : ان تقر التشريع ، أي لا بد من موافقتها على أي قانون أو تشريع جديد (٥) ، والوظيفة الثانية : أن تحاكم من اعضائها من ارتكب احدى الجرائم وأن تنظر في القضايا التي يرفعها اليها احدهم ضد الآخر .

وكانت المحكمة العليا ، تمثل الجانب القانوني داخل الكونتيه ، وهي تتألف من كبار المقطعين بالمملكة ، أي افضال الملك المباشرين — وهم كبار الامراء — فضلا عن انها ضمت ممثلين للكنيسة من كبار رجالها ، باعتبارهم من ذوي الاقطاعات الكبيرة . هذا كله بالاضافة الى اعضاء يمثلون الجاليات الاجنبية ، كالبنادقة ، والجنويين الذين امتلكوا اراضي ، ترسل عنها ممثلين لحضور المحكمة العليا (٦) .

---

(١) Runciman:op.cit.Vol.2p.314 .

(٢) J.Richard: op. cit. p. 54 .

(٣) William of Tyre : op. cit. Vol.2 p.292 ;Runciman:op. cit. Vol.2 - p. 306 .

(٤) Runciman:op.cit.Vol.2 - p. 306 .

(٥) سعيد عاشور : الحركة الصليبية جـ ١ ص ٤٨١ .

(٦) سعيد عاشور : الحركة الصليبية جـ ١ ص ٤٨١ ،

أما هيئات الفرسان كالاسبتاريه والداوية فكانوا ممثلين ايضا في هذه المحكمة . وكان الكونت لا يستطيع أن يتخذ قرارا سياسيا خطيرا دون الرجوع الى رأى جميع الفئات السابقة ودليلنا على ذلك ، أنه حينما حاول الكونت بونز كما أوضحنا سابقا أن يتنكر ولاء لابن بلدوين الثاني في سنة ١١٢٢ م ، أجبرته محكمته العليا على الرضوخ له .

وكانت محاكمة المذنب أمام زملائه واسوائه مظهرا جوهريا لعرف الفرنج ، ومن ان المحكمة فيما يبدو قد باشرت القضايا التي تنظرها بعناية ، وأمانة ، فانها اعتبرت نتيجة المبارزة بين المتخاصمين دليلا لا بد من الاخذ به (١)

المحكمة البورجوازية : ووفقا لمبدأ المحاكمة أمام النظراء والاسواء كان للفرنجة من غير النبلاء محكمتهم الخاصة ، وهي المعروفة باسم المحكمة البورجوازية وتفصل فيما يجري بينهم من معاملات مالية ، ومدنية ، فضلا عما صار لها من نفوذ في القضايا الجنائية (٢) .

وقامت هذه المحاكم البورجوازية في كل المدن الكبرى ، وتولى رئاستها دائما - فيكونت المدينة - وبكل محكمة بورجوازية اثنى عشر محلفا ، يختارهم السيد من رعاياه الاثنيين الذين ولوا احرارا ، ويؤدون أعمال القضاه ، على الرغم من انه يصح لاحد الخصوم أن يتخذ منهم مدافعا عنه وفي هذه الحالة ليس لهذا المحلف ، الذي تولى الدفاع عن الخصم ان يشترك في اصدار الحكم (٣) .

ومن واجبات المحلفين أيضا أن يشهدوا على كل ما يجري بالمحكمة من عقود ووثائق وتختلف المحكمة البورجوازية عن المحكمة العليا في حرصها على اثبات كل الاجراءات في سجلات ، وتنعقد المحكمة البورجوازية بانتظام في ايام الاثنين والاربعاء ، والجمعة من كل اسبوع فيما عدا طبعا أيام المواسم والاعياد (٤) . وأقرت المحكمة البورجوازية المحاكمة عن طريق المبارزة ، أوعن طريق الماء . ويورد لنا اسامه بن منقذ روايتين ، يسخر فيهما من الفرنج ومن فقههم ، ومن عاداتهم البدائية لا سيما من رمي المتهم في الماء للفصل فيما اذا كان مذنبا او بريئا . فيقول " فان كان بريئا

---

(١) Charles Mills: The History of the Crusades-V.1p.321

(٢) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ١ ص ٤٨٢

(٣) Runciman:op. cit. Vol.2- P. 302

(٤) Ibid

غاص في الماء فرفعوه بحبل حتى لا يموت في الماء ، وان كان له الذنب ما يغوص في الماء ، فعرض ذلك لما رموه في الماء أن يغوص فما قدر ، فوجب عليه حكمهم . (١)

كما يسخر ايضا اسامه من عادة المبارزة فيما بينهم للفصل فيمن هو على حق فيقول " وهذا من جملة فقههم ، وحكمهم لعنهم الله " (٢)

المحكمة الوطنية : كان للسكان الوطنيين محاكمهم التي تنظر في القضايا الصغيرة ، ويتولى رئاستها المحليون الذين يعينهم الفيكونت ويجرى بها تطبيق قانون العرف عندهم .

محكمة المدينة : وتنظر هذه المحكمة في القضايا التجارية ، وتعالج كل القضايا حتى الجنائية منها التي تتعلق بالسكان الوطنيين . ويرأسها نائب يعينه السيد المحلي ويساعده ستة محلفون ، اثنان من الفرنج وأربعة من السكان الوطنيين . (٣) وأعجب الزائرون المسلمون بانصاف اجراءات المحكمة وان السكان يحمدون سيرة حكامهم الصليبيين حتى ليتأسف أحد الرحالة ، فيرى أن هذه " من الفجائع الطارئة على المسلمين أن يشتكي الصنف الاسلامي فجور صنفه المالك له ويحمد سيره ضده ، وعدوه من الفرنج ، ويأنس الى عدله " (٤)

وكانت محكمة المدن تتولى ايضا تسجيل عقود البيع ، وتعتبر ايضا ادارة لجباية ضرائب الشراء ويرجع استئناف احكامها الى المحكمة البورجوازية

محكمة المرفأ : قامت في جميع المدن الساحلية للنظر في كل القضايا المتعلقة بشؤون الميناء ، وتعتبر سجلا لما يتحصل من الجمرك ، ورسو السفن من الرسوم ، ويختار محلفوها من بين التجار والبحارة .

المحاكم القنصلية : اتخذت الجاليات التجارية الايطالية والبروفنسالية محاكم لها سميت بالمحاكم القنصلية للنظر في امورها الداخلية .

---

(١) اسامه بن منقذ : الاعتبار ص ١٣٩ ، ١٤٠
(٢) المرجع السابق ص ١٣٩
(٣) Runciman:op.cit. Vol.2 -p.302 .
(٤) ابن جبير : الرحلة ص ٣٠١

محاكم البارونـــات : كان لكبار المقطعين محاكمهم الخاصة التي تنظر فيما ينشب من منازعات بين اتباعهم الفرسان (١) ، وبين مستأجري الاقطاعات. وكان لكل من هذه المحاكم المديدة مجال بالغ التحديد ، اما في حالة ما اذا كان المتقاضون من فئات مختلفة ، فتنظر القضية المحكمة التي ينتمي اليها المدعى المتقاضين مكانه . ونحسب هنا أن نشير الى أن القساوسة ، كانت تسمح لهم أن يبتوا في كل القضايا المتعلقة بالمولد ، والزواج ، والوصايا ، ويضاف الى ذلك معظم الاسئلة المدنية ، كانت من الاجراءات التي تحل بالقانون والقرارات النفسية (٢) .

* * *

النظام الكنسي في امارة طرابلس الصليبية :

كان للكنيسة اهمية كبيرة في مجتمع ادعى انه قام على اساس الدين ، وأنه يسعى لتحقيق اهداف دينية ، وقد فازت الكنيسة الكاثوليكية كثيرا في بلاد الشام ، فعند دخول الصليبيين الى الشام طردوا رجال الدين الارثوذكس ، واستحوذ اخوانهم الكاثوليك على كل شيء ، فأظهروا جشعا كبيرا في امتلاك الاراضي والاموال عدا الهبات ، والهدايا التي انهالت عليهم . وهكذا تميزت الاديرة والكنائس التي اقامها الصليبيون بالشام بوفرة ثروتها ، واتساع املاكها التي لم تقتصر على بلاد الشام ، بل امتدت الى القارة الاوربية نفسها . وكانت هذه الممتلكات معفاة من الضرائب . كما كان رجال الكنيسة معفيين من الخدمة العسكرية (٣) .

وبهمنا هنا أن نشير قبل الكلام عن المراكز الاسقفية التي كانت تضمها امارة طرابلس الى التنظيم الكنسي في بلاد الشام .

فمنذ القرن الرابع الميلادي كان في بلاد الشام كرسيان بطرقيان كبيران ، احدهما في بيت المقدس ، والآخر في انطاكية . وقد استمر ذلك الوضع سائدا في العصر الصليبي . وكان يتبع بطرق بيت المقدس خمسة من رؤساء الاساقفة في صور وقيسارية ، والناصرة ، والكرك ، وبصرى ، ويتبع هؤلاء تسعة اساقفة (٤) .

---

(١) Runciman: op. cit. Vol.2-p.302 .

(٢) Charles Mills: op. cit. vol. I-p.329 .

(٣) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ١ ص ٤٨٣، ٤٨٤، ٤٨٥

(٤) المرجع السابق ص ٤٨٥

أما بطرق انطاكيه ، فكانت تتبعه كنائس انطاكيه ، وطرابلس ، والرها ، بمعنى أنه كانت تتبعه رؤساء اساقفة طرابلس ، وأنطرطوس ، وجبلة ، والبارة ، وطرسوس ، والصيصة فضلا عن الرها (١) .

وكانت اسقفيات طرابلس وفقا للتنظيم الكنسي القديم ، تخضع لاسقفية صور الرئيسية التي كانت تتبع بدورها بطريركية انطاكيه . ولكن حدث في سنة ١٠٩٥ م ان اصدر البابا اوربان الثاني قرارا بأن يتبع بطرق بيت المقدس بدلا من اسقفية صور ، والاسقفيات التابعة لها ، ولكن اسقفيات طرابلس وجبيل ، وانطرطوس ، ورفنيه لم تخضع لبطريركية بيت المقدس على الرغم من اوامر البابوية بذلك . وانما خضعت لبطريركية انطاكيه .

وكان اول بطارقة انطاكيه اللاتين هو برنارد الفالنسي Bernard Of Valence الكاثوليكي ، الذي عينه بوهيمند عندما ثبت مركزه في انطاكيه ، (٢) وخلع البطرق الارثوذكسي الاغريقي حنا الرابع الاوكسيت John The Oxit وقد قام البطرق برنارد بدور كبير في تخفيف حدة الخلاف بين ريموند الصنجيل وتانكرد ، عندما قبض تانكرد على ريموند الصنجيل ، اذ تدخل البطرق ، وطلب من تانكرد اطلاق سراح ريموند (٣) . وبذلك خضعت لسلطة بطريرك انطاكية ، من الناحية الكنسية بلاد انطاكيه ، وطرابلس ، والرها .

وكان ريموند كونت تولوز يأمل في ان تكون له كنيسة مستقلة في كونتية طرابلس لذلك قام بتعيين الاسقف البيرد ي سان أرارد ، ولقبه بلقب اسقف ، قبل افتتاح مدينة طرابلس . ولكن حلفاءه اعترفوا بسيادة كنيسة انطاكيه ، فلم تكن هذه السيادة شديدة الوطأة عليهم ، لانهم عينوا اساقفتهم دون أن يتعرضوا لشيء (٤) من التدخل .

وهناك رأي يقول بأن ريموند الصنجيل ، كان يريد أن يقيم بطريركية ثالثة في طرابلس ، لذلك رحل الى روما لحضور جلسات مجمع ماند ، ولكن البابا رفض اقامة مركزا مسكونيا (بطريركية) ثالثة في طرابلس (٥) .

---

(١) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ص ٤٨٥

(٢) Setton:op.cit.Vol.I-p. 387 .

(٣) Runciman : op. cit. Vol. 2 p. 34 .

(٤) Ibid : p. 311 .

(٥) J.Richard : op. cit. - p. 59 .

ولذلك لم يتم خضوع اسقفيات طرابلس لبطريركية انطاكية تماما ، الا بعد أن اتحدت الكونتية الريمندية سياسيا مع امارة انطاكية .

وكانت مقاطعة طرابلس تضم اربعة مراكز اسقفية ، وهي :

(١) اسقفية انطرطوس : وكان يتبعها مدينة انطرطوس ، وجزيرة ارواد ومدينة مرقية وتعتبر اسقفية انطرطوس اول اسقفية اسست بالكونتية وكان ريموند الصنجيلي ، قد شيد في مدينة انطرطوس كاتدرائية فخمة لا تزال قائمة في المدينة الى يومنا هذا (١) . وكان بناء الكنائس في هذا العصر يتبع الاسلوب الرومانسي ، والقوطي المألوف . اما زخارفها ، فكانت تحتذي النماذج البيزنطية ، والاقواس ذات الرؤوس الحادة (٢) . وأهم ما في البناء الرومانسي انه احل الاحجار محل الاخشاب في عمل الاسقف ، اما عن الفن القوطي فهو الذي استطاع ان يصل الى حل لمشكلة رفع سقف ايوان الكنيسة ، والواقع ان الفن القوطي يمثل مظهرا عظيما من مظاهر النهضة الاوربية في القرن الثاني عشر (٣) .

ومن اقدم اساقفة انطرطوس ، الاسقف ريموند الذي ورد ذكره في سنة ١١٢٧ م وخلفه الاسقف ، وليم سنة ١١٤٢ م ، ثم الاسقف بهيير ١١٦٣ — ١١٦٩ م

(٢) اسقفية طرابلس : وكانت تضم طرابلس ، والبترون ، وعرقة ، وكان في طرابلس كاتدرائية خاصة تعرف بكاتدرائية القديسة مريم ، وقد شيدت هذه الكاتدرائية في اوائل القرن الثاني عشر ، غير انها خربت في الزلازل التي وقعت عام ١١٧٠ م ، ثم اعيد بناؤها في القرن الثالث عشر ، وعندما وقعت طرابلس في ايدي المماليك بعد تحريرها من الصليبيين هدمت الكاتدرائية واقيم مكانها جامع هو الجامع الكبير الموجود الى الآن في طرابلس (٤) .

وكان أول اساقفة طرابلس هو الاسقف البير دي سان أرارد من خاصة ريموند الصنجيلي ، وقد لقب بلقب اسقف قبل افتتاح مدينة طرابلس (٥) .

---

(١) Hitti:op.cit. p. 284 .

(٢) Ibid: p. 312 .

(٣) سعيد عاشور : اوربا العصور الوسطى جـ ٢ ص ٦٤ ، ٢٧٠

(٤) Hitti: op. cit. p. 316 .

(٥) J.Richard: op. cit. p. 59 .

أما في البترون فان الكنيسة التي كانت بها زمن الصليبيين لم يبق منها الآن غير حائط واحد هو الآن ضمن كنيسة مار يعقوب (١).

(٣) اسقفية جبيل : قامت هذه الاسقفية بعد استيلاء الصليبيين على جبيل سنة ١١٠٤ م ويعود زمن بناء الكنيسة الصليبية التي بها الى سنة ١١١٥ م وهذه الكنيسة موضعها اليوم كنيسة مارونية على اسم القديس مار يوحنا (٢).

(٤) اسقفية رفنيه : التي قامت بعد أن افتتحت على يد بونز في سنة ١١٢٧ م وكان التنظيم الداخلي لكنيسة طرابلس يشبه النظم الكنسية الموجودة في الكنائس الغربية . فقد كان لها مجمعها الكنسي الاقليمي الذي يضم ١٢ من رجال الكهنوت النظاميين ابان القرن الثاني عشر ثم اصبح يضم ٢٠ رجلا في القرن الثالث عشر ، كذلك كان لها قساوستها ورئيس القساوسة ومرتلها ، وحامل الاختام ، ومعلمها اللاهوتي ، ومتولي خزانتها ، ومشرعها (٣) ، وكان للكنيسة املاكها الخاصة بها في كل اسقفية .

اما موارد الاساقفة ، والقساوسة ، فكانت تعتمد على ضريبة العشور وهي ضريبة خاصة بهم يدفعها اللاتين عن المزارعين الذين يعملون في اراضيهم . وخضع الرعايا المسلمون لضريبة العشر التي تؤدى للكنيسة ودأب موظفو الكنيسة اللاتينية على ان تمتد ضريبة العشر فيطبقونها على المسيحيين الذين ينتمون الى الكنائس المخالفة (٤) . غير أنهم لم ينجحوا في ذلك . وذلك لأن المونوفيزيت ، والارمن كانوا يتبعون كنائس أخرى شرقية ، وكان يقيم بطرابلس اسقف يعقوبي ، وأسقف ملكاني (٥) .

وكان من موارد الكنيسة ايضا اوقاف ادبرة طرابلس التي تملكها الكونتية كما كانت تعتمد ايضا على بعض ايجارات الابنية .

وقد التزم كبار رجال الكنيسة بأن يقدموا من العساكر ما يتناسب مع اقطاعاتهم من الاراضي (٦) من ما يمتلكون من مساكن . وكان موظفو الكنيسة

(١) Hitti:op. cit.p. 314
(٢) Ibid:p. 314
(٣) J.Richard : op. cit . p. 61 .
(٤) Runciman: op. cit. Vol. 2 p.- 298 .
(٥) J.Richard : op. cit. p. 61 .
(٦) Runciman : op. cit. Vol. 2 - p. 298 .

يلتزمون ببذل خدمات البند الرجالة لا خدمات الفرسان (١) .

وكان للكنيسة محاكمها الخاصة التي تنظر في القضايا المتعلقة بالهرطقة والنظام الديني ، والزواج ، وما انطوى عليه من الطلاق ، والزنا ، والوصايا وجرت المحاكم على اللوائح والاجراءات التي التزمت بها محاكم الكنيسة في الغرب (٢)

ونريد أن نشير هنا الى أن الكونت كان يحتفظ ببعض الحقوق على اراضي الكنيسة لأننا نراه يتدخل في كثير من القرارات الاسقفية ، ويبدو أن سبب ذلك أن الكونتات كانوا يقاسمون الاسقفيات بعض املاكهم .

ويتبع كلمنا عن الكنيسة الاشارة الى الحركة التبشيرية التي كانت تهدف الى استمالة المسلمين ، واجتذابهم بطرق سلمية ودية الى اعتناق المسيحية ففي سنة ١١٥٤ م ، اسس راهب صليبي في الارض المقدسة نظاما للرهبان عرف فيما بعد بالنظام الكرملي نسبة الى جبل الكرمل حيث كان يقيم ، وقد اسست هذه الجماعة مركزا لها في طرابلس (٣) . وتلى ذلك ظهور النظامين المشهورين الفرنسيسكان ، والدومينكان في الغرب ، وقد اسسا لهما في طرابلس اديرة . وكتب احد اساقفة الدومينكان وهو وليم الطرابلسي افضل كتاب كتبه مسيحي غربي عن الاسلام في العصور الوسطى .

(٤)
Tractus de Statu Saracenorum

وعلى الرغم من ان طرابلس لم تكن مهيأة للحياة الديرية بسبب الحروب التي كانت تخوضها الكونتية بدون انقطاع مع القوى الاسلامية المجاورة ، فقد اقيم على هضبة جنوبي شرق طرابلس دير يعرف بدير البلمند بني عام ١١٥٧م ، واستكمل انشاؤه سنة ١١٦٩ م ، ويتبع النظام الديري الذي عرف بالسترشيان وسمي باللاتينية Abbatia Belimontis (٥) أي الدير القائم على جبل جميل

---

(١) Runciman:op. cit.Vol.2-p. 298 .
(٢) Ibid: p. 311 .
(٣) Hitti: op.cit. p.p. 322-323 .
(٤) Ibid
(٥) J.Richard:op.cit. - p. 61 ; Hitti:op.cit.-p.314-315

الحياة الاجتماعية في امارة طرابلس :

تميزا المجتمع الصليبي في بلاد الشام بالخلل الاجتماعي وعدم وجود انسجام بين الطبقات المختلفة ، مما ادى الى فشله في نهاية الامر . فبعد انتهاء كل حملة صليبية يعود غالبية المقاتلين الصليبيين الى ديارهم بالغرب ، بينما يبقى في الشرق اقلية منهم . وحتى هذه الاقلية كانت تنزح الى اوطانها بعد قليل . هذا بالاضافة الى أنه كان من عادة الصليبيين الغربيين الاستقرار في المدن وترك المواطنين العرب اصحاب الديار في القرى يحرثون الارض ويفلحونها وتبعا لذلك نجد أن العرب اصحاب الديار كانوا دائما اغلبية في بلادهم ، بينما الاوربيون الغرباء اقلية ليست هناك أية رابطة تربطهم بالارض التي يحتلونها . وان كانت هذه الاقلية الغربية قد استطاعت أن تحتفظ بنفوذها السياسي في بلاد الشام وتجعل من نفسها ارستقراطية حاكمة فانها لم تستطع مطلقا أن تحتفظ بعاداتها وتقاليدها وأصولها الغربية (١) . وليس أصدق على ذلك من قول أحد مؤرخي الحملة الاولى وهو فوشيه خادم كنيسة بلدوين الاول عندما كتب حوالي سنة ١١٢٥ م يقول :

نحن الذين كنا غربيين ، أصبحنا الآن شرقيين بمعنى الكلمة ، لقد اصبح الايطالي او الفرنسي الذي استوطن في هذه البلاد جليليا أو فلسطينيا ، واستعمال الرجل الذي قدم من ريمز او شارتز الى صور او انطاكي . وسرعان ما نسينا مسقط رؤوسنا وبات معظمنا لا يعرف او يسمع عنها شيئا . وامتلك البعض الديار والرقيق كما لو كانوا قد ورثوها ، بينما اتخذ البعض زوجات لهم لسن من مواطنيهم وانما من السوريات والأرمينيات . وأصبح الذي كان غريبا أجنبيا بالامس مواطنا اليوم ، والذي كان مهاجرا بات الآن مقيما وصاحب ارض . وقد أخذ أقاربنا وأصدقاؤنا في الحضور الينا تباعا ، تاركين عن طيب خاطر كل ما كانوا يملكون في الغرب والذين كانوا فقراء معدمين هناك جعلهم المولى اغنياء مترفين هنا . والذين كانوا لا يملكون درهما واحدا هناك ، اصبحوا يمتلكون قطع الذهب التي لا تقع تحت حصر ، والذي لم يكن يملك مزرعة واحدة هناك ، وهبه الله مدينة بأكملها هنا .

فلماذا اذن نعود الى الغرب ما دام الشرق يفي تماما برغباتنا ومطالبنا ؟ (٢)

وعلى ذلك فان الاقلية الغربية لم تستطع مطلقا أن تحتفظ بعاداتها

---

(١) سعيد عاشور : الحركة الصليبية جـ ١ ص ٤٩١

(٢) جوزيف نسيم : العرب والروم والملتين في الحرب الصليبية الاولى ص ٨٣ ، ٨٤ .

وتقاليدها وأصولها الغربية سليمة نقية ، وانها اضافت الى ثقافة عدد منها وسط محيط شرقي واسع أن تفقد كثيرا من صفاتها الأصلية بسبب الكثير من التعديلات الجديدة (١) .

ويمكن ان نقسم الفئات التي يتكون منها المجتمع الصليبي في بلاد الشام الى الفئات التالية :

(١) الأرستقراطية العاكمة من النبلاء والفرسان :

وهذه الطبقة كانت قليلة اذ لم يزد عددهم على مائة اسرة في امارة طرابلس (٢) . وكانت هذه الطبقة تعاني نقصا كبيرا في العدد بسبب كثرة الضحايا في الحرب وقلة الوارد من الغرب . وذلك بالرغم من وفود العجاج الذين اتوا من الغرب ولكنهم لم يفضلوا الاقامة في الشام بل آثروا العودة الى الغرب . وبذلك أصبح الفرنج من النبلاء والفرسان اقلية ليست هناك أي رابطة تربطهم بالارض التي يحتلونها لانهم استقروا في المدن وتركوا المواطنين العرب اصحاب الديار في القرى يحرثون الارض ويفلحونها .

ولقد عاشت هذه الطبقة حياة اميل للدعة والتراخي . وأصبحت امارة طرابلس بالنسبة لهم موطنهم بعد أن نسوا او تناسوا اوطانهم الاصلية وأصبحوا يملكون الديار ، كما صار لهم زوجات وأبناء وصالح تحتم عليهم العيش في دعة وسلام (٣) . فكانوا يعيشون عيشة فيها شيء من الانصراف عما تقتضيه ظروفهم المحيطة بهم من وجود المسلمين المتحفزين للوثوب عليهم واسترداد ما سلبوه من الولايات والبلدان . ولذلك فان الصليبيين فضلوا سياسة السلام في كثير من الأحيان مع السكان المسلمين ، اذ وجدوا انفسهم طبقة صغيرة منظمة حربيا يسيطرون على شعب مخالف مطيع ، ولكن هذه الدعة وذلك الولاء لم يكن حقيقيا ، لذلك فان روح التعصب التي حركت الصليبيين لم تلبث أن تداعت ومالوا الى المرونة في علاقاتهم مع جيرانهم المسلمين (٤) .

فكانت الارستقراطية تعيش في قصور فخمة تتألف في العادة من طابقين في وسطها من الداخل نافورة تتدفق منها المياه وكانت هذه القصور

(١) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ١ ص ٤٩١
(٢) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ١ ص ٤٩٢ ،
Runciman:op.cit.Vol.2-p.29I .
(٣) حسن حبشي : نور الدين والصليبيون ص ١٥٣
(٤) Richard A-New Hall- The Crusades.p.p.48-49 .

محلاة بالفسيفساء . ومما شبهها من المرمر ولها مشربيات من الداخل صالات فسيحة قد ابدعت يد الصانع العربي نقشها وتفنن في تلوينها بمختلف الأصباغ الزاهية (١) .

ولا أدل على ذلك التسامح بين المسلمين وبين الفرنج خاصة الذين لهم طول عهد بالشرق ، والفرق بين ليونة الصليبي القديم الذي استوطن في الشرق وصرامة زميله الجديد ما أورده اسامة بن منقذ في كتابه (الاعتبار) (٢) من أخبار تبين ذلك .

وما كان ينطبق على الصليبيين عامة كان ينطبق على صليبي طرابلس . فان الصليبيون يتبعون بالطباع الشرقية من تربية الذقون ولبس الثياب الواسعة حتى المحاربين (٣) . وهكذا اصبحت الملابس من الفخامة والأبهة وصار لها من السمات الشرقية ما كان لأثاث دورهم . وكذلك السيدات اتبعن الزي الشرقي التقليدي فبعضا اتخذن من قميص طويل وسترة قصيرة أو رداء يكسين كلها موشاه بخيوط الذهب وأحيانا بالجوهر ، وفي الشتاء يرتدين الفراء فاذا خرجن من الدور اتخذن الحجاب شأن النساء المسلمات ، لا من قبيل الاحتشام ، بل لوقاية البشرة الذي غطى وجوههن (٤) .

وكثيرا ما كان الفرنج يقيمون حفلاتهم خاصة حفلات الزواج ويشاركهم فيها المسلمون . واستخدم الفرنجة في ولائمهم مهرجين وراقصات من المسلمين كما كانوا يستخدمون في جنائزهم (الندابات) على النحو الذي يفعله بعض المسلمين (٥) .

وكان التدهور الخلقي بين الافرنج حديث الجميع ، وكان امرا عاديا أن يضبط احد الفرنج زوجته في وضع مريب مع رجل غريب ويتقبل الامر ببرود كأن لم يحدث شيء كما يقول اسامة بن منقذ أنه " ليس عندهم شيء من النخوة والغيرة " (٦) .

---

(١) حسن حبشي : نور الدين والصليبيون ص ١٥٢
(٢) اسامة بن منقذ : الاعتبار ص ١١٤ ، ١٢٥ ، ١٤٠
(٣) Richard A-New Hall: op. cit. p.p. 100-101 .
(٤) Runciman: op. cit, Vol.2 - p. 317 .
(٥) عمر كمال توفيق : مملكة بيت المقدس الصليبية ص ١٢١
(٦) اسامة بن منقذ : الاعتبار ص ١٢٥ ، جوزيف نسيم : الحرب والسلم والذاتيين ص ٩٢

وأخيرا هذه كانت حياة الفرنج أو الطبقة الارستقراطية في الشرق عامة وفي امارة طرابلس خاصة .

وأريد أن أشير ايضا انه بعد القضاء على الصليبيين فقد ظلت عائلات افرنجية عديدة في البلاد ، فقد اندمجت هذه العائلات بأهل البلاد اندماجا تاما فقدوا معه كل طابع لاتيني ، ومن امثلة هذه العائلات اللبنانية التي انحدرت من الصليبيين (١) ، عائلة الصليبي ، وبردويل ، وفرنجيه ، والدويهي ، ودريان ، وخريطه .

(٢) طبقة عامة المحاربين من الصليبيين (السرجنداريه) :

وهم الطبقة التي لم تنتم الى الفرسان والنبلاء ، والذين شاركوا (٢) في الحركة الصليبية وكانوا يؤلفون فرق المشاه في الجيش الصليبي . وقد اشار (٣) الى ذلك ابن القلانسي فقال : " الافرنج الخيالة والسرجندية الرجالة " ونظرا لانهم لم يكن لديهم من شرف المولد ما يعتزون به ، تزوجوا من المسيحيات (٤) الوطنيات مما أدى الى ظهور طبقة الافراخ البولانية (٥) Pullani ومعناه مهر صغير (فرس صغير) وكانت لفظة بولان تطلق على كل من ولد عن مثل هذه الزيجات غير المتكافئة في الجنس وكانوا في الغالب يتبعون دين امهاتهم لا دين آبائهم ، وكانوا يتكلمون العربية ويحجبون نساءهم ويحجرون عليهم بشدة ويمنعونهن من الذهاب الى الكنائس .

(٣) طبقة المسيحيين الوطنيين :

وقد احتقر الصليبيون الشرقيون هذه الطبقة وأسموا نحوهم بالكراهية نتيجة للاختلاف في المذهب ، وكان الصليبيون يتخوفون منهم ويخشون تآمرهم مع الامبراطورية البيزنطية ضد مصالح الصليبيين ومع ذلك فان الصليبيين لم يطردوهم او يقضوا عليهم كما فعلوا مع اليهود ، وانما استبقوهم لمهارتهم اليدوية وقيامهم بالخدمات والاعمال التي أنف الصليبيون الشرقيون من القيام بها (٦) ، وكانت الغالبية العظمى من السكان تتألف من المسيحيين

---

(١) Hitti: op. cit. P. 319 .

(٢) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ١ ص ٤٠١

(٣) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٧٨

(٤) Runciman: op. cit. Vol.2 -p.p. 212-272 .

(٥) Hitti: op.cit. P. 319 .

(٦) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ١ ص ٤٩٣

الوطنيين . وكان معظمهم يتحدثون العربية ويعرفون تجاوزا بالعرب المسيحيين وكان معظم السكان الاصليين في شمال طرابلس يعتنقون المونوفيزيتية التي تنتمي الى الكنيسة اليعقوبية (١) . وكان لهؤلاء البطاقة اسقفية بطرابلس وكانوا يتركزون في بلدة بونيه ، وكان الصليبيون على علاقة طيبة معهم . وكذلك كانت في الجهات الشمالية بطاليات ارمينية كثيرة العدد تنتمي الى الكنيسة الارمينية .

وكان هؤلاء النصارى منذ البداية على علاقة طيبة مع الصليبيين ففي الطريق الى بيت المقدس بعد أن امر ريموند جيشه بترك حصار عرقه ، قام السريان الذين ينتمون الى الكنيسة اليعقوبية باخبار ريموند عن احسن الطرق التي يجب ان يسلكها الى بيت المقدس (٢) . وبعد ذلك سار ريموند على الطريق الساحلي الى بيت المقدس . وفي البترون حدث اول اتصال بين الصليبيين والموارنة فأمدوهم بأدلاء كانوا في امس الحاجة اليهم (٣) . وكانت بلاد بني عمار أهلة بالمارونيين الذين ينتمون للمذهب المونثليتي (٤) .

ويشير ابن الاثير الى هذه الروابط والمساعدات التي كان يقدمها النصارى الى الصليبيين ، فيشير في حوادث سنة ٤٩٥ هـ عندما استنجد ابن عمار بجناح الدولة صاحب حمص ، والي دقاق صاحب دمشق " أن اهل الجبل اعانوه (ريموند الصنجيلي) على حصارها وكذلك أهل السواد وأكثرهم نصارى (٥) .

وكانت أوثق الروابط التي اقامها الصليبيون مع نصارى طرابلس تلك التي قامت بينهم وبين الموارنة ، تلك الطائفة الوثيقة التماسك الشديدة الوحدة ، وقد بدأت الصلات بينهم وبين الصليبيين في عهد مبكر كما اوضحنا . فهم الذين قدموا للحملة الصليبية الاولى الادلاء ليرشدوهم الى الطريق الى بيت المقدس كما ارسلوا فرقة من انشابة لمساعدة الصليبيين في حصار بيت المقدس وكانوا يحتلون في طرابلس المكانة الاولى بعد الافرنج ، وكانوا في مكانة افضل من أي طائفة مسيحية اخرى كما كانوا يتمتعون بالحقوق والامتيازات التي

---

(١) Runciman: op.cit. Vol.2-p. 295 .
(٢) Ibid: p. 275 .
(٣) Hitti: op.cit. p. 285 .
(٤) Runciman: op. cit. Vol.2 - p. 12 .
(٥) ابن الاثير : الكامل ج ١٠ ص ٣٤٤ حوادث سنة ٤٩٥ هـ ، كرد علي : خطط الشام ج ١ ص ٢٨٥ ، العيني : عقد الجمان حوادث سنة ٤٩٥ هـ

كانت تتمتع بها طبقة الارستقراطية الحاكمة (١) وكان الموارنة يسكنون الجبال المجاورة لمدينة طرابلس مثل : أميون والحدث وبقوفا ، وعكار ، والزاوية ، والضنية ، والبترون ، وجبيل ، والمنيطرة وتنسب هذه الطائفة الى القديس مارمارون الذي عاش في اواخر القرن الرابع الميلادي ، وتوفي فيما يقرب من عام ٤١٠ م . وكانت اولى العلاقات التي اقامها الموارنة مع المقر البابوي في روما على يد البطريرك ارميا الهمشيتي ويعتبر طقس الكنيسة المارونية اقدم الطقوس في الكنائس المسيحية ، ولكنه تحول الى الطقس اللاتيني في اواخر القرن الثاني عشر في عهد البابا انوسنت الثالث (٢) وكان لطائفة الموارنة فضل كبير في مساعدة الصليبيين في طرابلس في حروبهم ضد المسلمين .

وكان من بين طبقات النصارى في كونتية طرابلس طبقة عبيد الاحرار او طبقة الرقيق التي كان يقوم بالاتجار فيها التجار الجنويين والبنادقة . وكذلك كان يوجد نوع آخر من الرقيق هو اسرى الحرب التي تنشب بين المسلمين والمسيحيين (٣) . وكان الصليبيون يتمسكون بوجوب تنصيرهم .

وكانت هناك طبقة تعرف بطبقة الرؤساء (٤) وكانوا من النصارى وهم رؤساء القبائل في الكونتية .

وكان النصارى غالبة يخدمون في جيش الكونتية (٥) يعرفون باسم التركبولية وكانوا يشتهرون بالمهارة في الرمي فكانوا رماة الرنج . وقد اتخذ كونت طرابلس منهم حرسه الخاص في النصف الثاني من القرن الثاني عشر (٦) .

ونتيجة لخبرة النصارى بشئون الكونتية ومعرفتهم بلغة البلاد ولثقة الصليبيين فيهم فقد وضعوهم في المناصب التي تستلزم اتصالا مباشرا مع المسلمين كما تولوا الوظائف الحكومية مثل جباية الضرائب ، وكذلك في الديوان (ديوان التمكيس) الجمرك (٧) .

---

(١) Hitti: op. cit. p.p.320-321

(٢) Ibid : p. 321 .

(٣) حسن حبشي : نور الدين والصليبيون ص ١٤٩

(٤) J.Richard: op.cit. p. 87 .

(٥) اسامة بن منقذ : الاعتبار ص ٥١

(٦) زكي النقاش : العلاقات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية بين العرب والافرنج ص ١٦١

(٧) ابن جبير : الرحلة ص ٣٠٥ ، Runciman:op.cit.Vol.2 - p. 298 .

(٤) اليهـود : كانت امارة بـني عمّـار بها عدد كبير من اليهود قبـل قدوم الصليبيين ، وتدين امارة طرابلس في عهد اسرة بـني عمّـار لهم بالثـراء وكان عدد الاسرات اليهودية في امارة طرابلس الصليبية ما يقرب من مائة وخمسين اسرة يهودية ، ويبدو أن سر هذه الزيادة ، هو أن امارة طرابلس الصليبية الـتي اشتهرت بثرائها اجتذبت اليها عددا كبيرا من يهود جنوب فرنسا (١) . ولكن يبدو في اواخر القرن الثاني عشر أن عدد اليهود قد تناقص في بلاد الشـام بسبب خوفهم من القتل ، وقد حزن الرحالة بنيامين التطيلي لما شاهده من ضآلة عدد اليهود في فلسطين حينما زارها حوالي سنة ١١٧٠ م (٢).

وقبل أن الفرنج لما ملكوا القدس جمعوا اليهود الى كنيستهم وأحرقوها عليهم (٣) وقد اشتهر اليهود بأعمال الصيرفة واحتكروا صناعة الصباغة وصناعة الزجاج والدباغة (٤) .

(٥) التجار الايطاليون :

كان الافرنج الموجودون ببلاد الشام جندا لا ملاحين . وكان لموقع طرابلس الجغرافي ، وصعوبة الاستيلاء عليه ، أثره في ضرورة استعانة الصليبيين بالقوى البحرية الايطالية لمواصلة النشاط الصليبي البحري ، في حين أن تلك القوى كانت تجد في أطماع قديمة في موانئ الشام التي تفتح لهم الطريق الى الشرقين الاقصى والاوسط . مما يؤدي الى انماء ثرواتها وزيادة ارباحها . لذا طلبت هذه القوى الايطالية تسهيلات وحقوقا تجارية ، كأن يكون لها أحياء خاصة في المدن الموانئ الشامية ، والاعفاء التام أو الجزئي من مكوس الديوان (الجمرك) (٥) . اذن لم يكن يعني هذه المدن التجارية الباعث الديني الا بالقدر الذي يحقق مصالحها ويضمن لها الربح المادي .

وأهم هذه الجاليات : جماعة البنادقة ، الذين كان لهم أحياء باسمهم في كل ثغر من ثغور الشام (٦) ، وكان لهم امتيازات خاصة كعقد محاكم خاصة

---

(١) A.Asher : Benjamin of Tudela:Vol.I -p. 60 ;J.Richard p.86

(٢) Ibid:p. 60 ;Runciman:op.cit.Vol.2-p. 295 .

(٣) احمد بن علي الحريري : الاعلام والتبيين في خروج الفرنج الملاعين ورقة ٤

(٤) زكي النقاش : العلاقات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية بين العرب والفرنج ص ١٨٢ ، ١٩٢

(٥) Runciman:op.cit. -Vol.2 - p.p. 314-315 .

(٦) حسن حبشي : نور الدين والصليبيون ص ١٤٦

بهم ، كما اقاموا سجونا تضم المذنبين منهم . وبذلك اصبحوا يؤلفون مجتمعا قائما بذاته له قوانينه الخاصة ، وسجونه ، وكنائسه ، وفنادقه ، يتكلمون الايطالية ولا يختلطون بغيرهم الا في نطاق المعاملات المالية والتجارية (١) .

وكان شعار الجنوية الذي عرفوا به " لنكن أولا بنادقة ، ثم لنكن بعد ذلك مسيحيين (٢) . وكان للجنوية كذلك امتيازات كبيرة في امارة طرابلس فهم اصحاب التفوق في الاستيلاء عليها ، وتقرر بين الافرنج والجنويين على أن يكون للجنويين الثلث من البلد وما نهب منه ، والثلثان لريموند ابن صنجيل (٣) (برترانـد)

ولذلك نجد أنه نتيجة لكثرة عدد الايطاليين أخذت ابنية طرابلس تتشبه بالروح الايطالية (٤) .

وعلى الرغم مما قدمته القوى الايطالية من مساعدات هامة وجوهرية في المحافظة على بقاء الفرنج بالشرق الادنى ، قلل من قيمة تلك المساعدات ما حدث بين الجاليات الايطالية في الشام من صراعات ومؤامرات وفتن ، واستعدادهم لخيانة المصلحة العامة مقابل ربح طارئ .

(٦) المسلمون :

وهم أهل البلاد الاصليين . فبعد استيلاء الصليبيين على طرابلس (٥) نهبوا ما فيها ، وأسروا رجالها وسبوا نساءها ، ونهبوا الاموال بالرغم من الامان الذي أخذوه من الملك بلدوين والامير برترانـد (٦) . ويبدو أن ذلك حدث في الجانب الذي دخل منه الجنوية كما بيّنا فيما سبق .

ومنذ دخول الصليبيين الى ارض الشام وسماع المسلمين بقدومهم هاجر كثير من المسلمين من أرض طرابلس ، لأن الصليبيين كانوا في كل بلد يدخلونه يقتلون أهله ويخربونه ، ويحرقون كتبه ومتاعه وآثاره ، فهام الناس على وجوههم في البراري ومنهم من قصد الى داخلية الشام ومنهم من فرّ الى مصر في حالة رثة (٧) .

(١) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ١ ص ٤٩٤
(٢) Aziz Sourial Atiya:The Crusades in the later Middle ages .P. 114 .
(٣) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٦٣
(٤) محمد كرد علي : خطط الشام ج ٥ ص ٢٩٦
(٥) ابن الاثير : الكامل ج ١٠ ص ٤٧٦ حوادث سنة ٥٠٣ هـ ، ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٦٣
(٦) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ١ ص ٢٧٢
(٧) كرد علي : خطط الشام ج ١ ص ٢٨٣ ، الحريري : الاعلام والتبيين ورقة ٤

ولكن من هؤلاء المسلمين من استهواه حب الوطن فدعاه الى الرجوع والسكنى بينهم بعد أمان كتب له ، بشروط اشترطوها (١) .

ويوضح لنا هذه الشروط ، ويبين حالة المسلمين ، الرحالة ابن جبير فيقول " ان المسلمين مع الافرنج على حالة ترفيه نعوذ بالله من الفتنة ، وذلك انهم يؤدون لهم نصف الغلة عند أوان ضمها ، وجزية على كل رأس دينار وخمسة قراريط ، ولا يعترضونهم في غير ذلك ، ولهم على ثمر الشجر ضريبة خفيفة يؤدونها ايضا ، ومساكنهم بأيديهم ، وجميع احوالهم متروكة لهم ، وكل ما بأيدي الافرنج من المدن بساحل الشام على هذه السبيل رساتيقها كلها للمسلمين ، وهي القرى والضياع ، قد اشربت الفتنة قلوب اكثرهم لما يبصرون عليه اخوانهم من اهل رساتيق المسلمين وعمالهم لانهم على ضد احوالهم من الترفيه والرفق . وهذه من الفجائع الطارئة على المسلمين ، أن يشتكي الصنف الاسلامي جور صنفه المالك له ، ويحمد سيره ضده وعدوه المالك له من الافرنج ويأنس بعدله ، فالى الله المشتكى من هذه الحال " (٢)

ويبدو أن المسلمين كانوا يمثلون غالبية ملاك الارض بطرابلس باستثناء الضياع التي يحوزها القائمون المحليون بها (٣) .

وكان الصليبيون يتركون للمسلمين اراضيهم يزرعونها ويدفعون نصف غلاتها عند أوانها (٤) . ولكن هناك رأي يقول أن النسبة المقررة من المحصول لم تكن موحدة وأرجح أنها في الشطر الاكبر للبلاد ، حيث جرى اهل القرية على الأخذ بالزراعة البسيطة المتقلقلة ، توقع السيد أن ينال من المحصول ما يمكن لاعاشة حاشيته والبولانيه والتركبوليه الذين ينزلون حول قلعته ، نظرا لأن المواطن الفلاح لم يكن صالحا لاعداده (٥) . وكان بعض المسلمين يقومون بمساعدة صليبيي طرابلس حروبهم ضد المسلمين . من ذلك ما قام به مسلمو جبل عامله من مساعدة الصليبيين في بانياس (٦) .

وكان المسلمون يدفعون للصليبيين ضريبة الرأس وهي دينار وخمسة قراريط (٧) ،

(١) ابن جبير : الرحلة ص ٣٠٧
(٢) ابن جبير : الرحلة ص ٣٠١ ، ٣٠٢
(٣) Runciman:op.cit.Vol.2-p. 296 .
(٤) ابن جبير : الرحلة ص ٣٠١
(٥) Runciman:op.cit. Vol. 2 - p. 296 .
(٦) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٣٢٩
(٧) ابن جبير : الرحلة ص ٣٠١

كما خضع المسلمون ايضا لضريبة العشر التي تؤدى للكنيسة . على أن المسلمين برغم ما تقرر عليهم من ضريبة العشر ادركوا أن المستوى العام للضرائب في ظل حكم الفرنج يقل عما هو معروف عند الامراء المسلمين المجاورين (١) .

وكما هو سائد في جميع الامارات الصليبية جرى توظيف المسلمين في طرابلس في كثير من الوظائف الحكومية الصغيرة ، فتقرر استخدامهم مع المسيحيين الوطنيين في جباية الضرائب وفي الديوان (الجمرك) ، كما كانوا يتولون وظيفة الحسبة . وكان الصليبيون يؤثرون ايكال هذه الوظيفة الى رجل مسلم علما منهم بأن ذلك اقرب الى طبيعة الامور في بلد شرقي اسلامي (٢) .

وكان لكل ضيعة او قرية رئيس مسلم . ويبدو أنه كان يسمح للمسلمين باقامة مسجد صغير يؤدون فيه صلاتهم . كما أن التجار المسلمين كان يسمح لهم بأن يجتازوا الاراضي التابعة للصليبيين بعد أن تحصل منهم المكوس وهي دينار وقيراط عن كل رأس (٣) .

ولم يكثر التزاوج بين الافرنج والمسلمين . والتزاوج دليل على الاختلاط والتفاعل الاجتماعي . وقل من المسلمين من كان يتزوج من اوربية ، ولكن علاقات الصداقة بين المسلمين والفرنج كثيرة ؛ وخير من أورد تفصيلات عن هذه العلاقات هو اسامة بن منقذ الذي ذكر في احدى المواضع أن أحد فرسان الفرنج كان ملازما له ، وكان يدعوه (أخي) وكان بينه وبينه المودة والمعاشرة (٤) . وكان المسلمون يؤثرون أن يكونوا في البلد الصليبي في حماية جماعة فرسان الداوية ، فلا تنالهم يد سوء في انفسهم واموالهم ومتاعهم (٥) .

وكان من اكبر البواعث الاسلامية ، البواعث الموجودة في سهل البقاع يضاف الى ذلك قبائل البدو الرحل الذين ظلوا يتنقلون خلف المرعى من مكان الى آخر ، معهم قطعانهم من المواشي ، وينتهزون اية فرصة مناسبة للانقضاض على قوافل الصليبيين ومتلكاتهم (٦) .

---

(١) Runciman: op. cit. Vol. 2 -p. 299 .

(٢) حسن حبشي : نور الدين والصليبيون ص ١٥١

(٣) ابن جبير : الرحلة ص ٢٠٢ - ٢٠٣

(٤) Hitti : op. cit. -p. 318

(٥) اسامة بن منقذ : الاعتبار ص ١٣٢

(٦) حسن حبشي : نور الدين والصليبيون ص ١٥٧

(٧) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ١ ص ٤٩٤

ولعل أغرب شيء يدل على مدى التآخي أن المسلمين والصليبيين كانوا يصلون في بقعة واحدة في عكا حيث كان بها مسجد ابقى محرابه على حاله ووضع الصليبيون في شرقيه محرابا لهم . كما كان المسجد الاقصى ، وقد أصبح بيد الداويه . وقد جعل الصليبيون من أحد اجزائه كنيسة لهم . فكان اسامة ، كما بينا ، اذا وفد على بيت المقدس يدخل هذه الكنيسة وأخلى له الداوية ذلك المسجد الصغير ، ليصلي فيه (١) .

* * *

النظم المالية في امارة طرابلس الصليبية :

أولا — العملة : تنوعت النقود المتداولة في بلاد الشام وتباينت تباينا شديدا ، لا يقل عن تنوع العناصر والاجناس التي اجتمعت في تلك البلاد (٢) . فكان لكل امارة صليبية عملتها الفضية الخاصة للتعامل الداخلي (٣) ولكن في التجارة الدولية جرى التعامل على نقد يونطه المعروف باسم (بيزنت) (٤)

ومنذ عهد برتراند قام كونتات طرابلس بسك عملة فضية كانت تسمى بالقراطيس . وكانت هذه العملة تشبه العملات التي كان يسكها الكونتات في تولوز قبل المجيء الى الشرق مع بعض التغيير البسيط ، فعلى أحد أوجه العملة نقشت صورة صليب (٥) ، وعلى الوجه الآخر نقشت كلمة (مدينة طرابلس) Tripolis Civitas

وكانت هذه القراطيس كثيرة التداول بين المسلمين بالشام ، وكانت تقدر حسب قيمتها من الدينار ، فتارة تزيد قيمتها وتارة تنخفض مما جعل التجار المسلمين يجأرون بالشكوى لنور الدين محمود ويطلبون منه أن يضرب الدينار باسمه ولكنه رفض ابقاء على الوضع على ما هو عليه عند الناس (٦) .

أما ريموند الثاني فقد سك عملة فضية مماثلة ولكنه أضاف عبارة Monata Tripolis على الوجه ، بينما الوجه المنقوش عليه الصليب فقد امتلأ الصليب

---

(١) حسن حبشي : نور الدين والصليبيون ص ١٦٢ ، أسامة بن منقذ : الاعتبار ص ١٢٤ — ١٢٥

(٢) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ١ ص ٤٩٠

(٣) Runciman: op. cit. - Vol. 2 -p.p. 14-15 .

(٤) معنى كلمة قراطيس : القضبان من الفضة Dozy:Supp.Dict.Ar.

(٥) J.Richard: op. cit. p. 55 .

(٦) أبو شامة: الروضتين ، ج ١ ص ١٤ .

بدوائر صغيرة متصلة (١) .

اما العملة الفضية التي سكها ريموند الثالث فكانت تتخذ الطابع التولوزي فتان على احد وجهيهما نقر يمثل الشمس والهلال ، وهذا النقش هو نفسه الذي يظهر في تولوز سنة ١١٤٨ م ، ويعرف بالشعار الريموندي .

هذا عن العملات الفضية التي كانت متداولة للاستعمال الداخلي في كونتية طرابلس . اما الاستعمال الخارجي في التجارة فكانوا يستخدمون عملة ذهبية ، فبالاضافة الى العملات الغربية التي احضرها التجار والحجاج الوافدون منهم من غرب اوربا ، ظلت النقود العربية الاسلامية والنقود البيزنطية متداولة ايضا في بلاد الشام طوال العصر الصليبي (٢) .

وكان البيزنطيون والصليبيون يسكون عملة عليها كتابات ونقوش عربية ربما مقتبسة من القرآن لتكون مقبولة في العالم الاسلامي (٣) . ويورد لنا الاستاذ فيليب حتى صورة لهذه العملة التي يعود تاريخها الى سنة ١٢٥٠ للميلاد ، ويظهر على وجه منها الله واحد ، ايمان واحد ، معمودية واحدة ، وعلى الوجه الآخر الأب والابن والروح القدس ، اله واحد وصورة الصليب (٤) . وكان يضرب في كونتية طرابلس عملة ذهبية تسمى البيزنت الطرابلسي الذي كان تقليدا للدنانير الاسلامية (٥) . هذا الى جانب الدينار الصوري .

وكان كونتات طرابلس يعهدون بادارة دار السكة الى شخص مسئول عنها يعرف بصاحب السكة وتورد لنا وثائق كونتية طرابلس (٦) اسم أحد من تولى هذه الدار

---

(١) J.Richard: op.cit.-p. 55 .

(٢) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ١ ص ٤٩٠

(٣) Richard A-New Hall : op.cit.-p. 49.

(٤) Hitti : op. cit. p. 299 - 301-303 .

(٥) هي الدنانير التي استخدمها اهل الشام والعراق في معاملاتهم منذ أيام الفاطميين ، وكان ضربها بمدينة صور بالشام ، ولذا نسبت اليها ، ثم سقطت تلك المدينة في يد الصليبيين سنة ٥١٨ هـ (١١٢٤م) فلم يبطل ضرب الدنانير الصورية بها الا بعد وفاة الخليفة الآمر الفاطمي على أنها ظلت متداولة بين المسلمين مدة طويلة ونقشت صور ملوكهم على وجوهها وهناك رأي يقول لعلها دنانير صليبية مصورة أي منقوش عليها صور ملوك مملكة بيت المقدس الصليبية .

حسنين محمد ربيع : النظم المالية في مصر زمن الأيوبيين ص ٩٨

(٦) J.Richard: op. cit. -p. 56 .

وهو يوحنا صاحب السكة Johonnes de Moneta . وقد كان فرسان الداوية يمارسون الاعمال المصرفية في ذلك العهد ، وقد توسعوا في هذه الاعمال المصرفية مما دعى العملاء المسلمون الى الاشتراك فيها واتخذوا عمالا موظفين اختصوا بأمور المسلمين .(١)

موارد كونتات طرابلس المالية :

كان من الطبيعي بالنسبة لامراء الصليبيين في بلاد الشام بوجه عام وامارة طرابلس بوجه خاص ، وما كان بينهم وبين المسلمين من حروب شبه مستمرة أن يكون لديهم الاموال اللازمة لتجهيز الحملات الحربية ، وكذلك الانفاق على عساكرهم . وكان النظام الاقطاعي الذي خبره وعاشه الصليبيون في الغرب وطبقوا كثيرا منه في الشرق يفرض على الفصل أن يقدم لسيده الاقطاعي عددا من الفرسان في حالة الحرب .(٢)

هذا ما كان من امر الطبقة الارستقراطية في تأدية نصيبها للحكومة ، أما البورجوازية فأدوا نصيبهم للحكومة بما بذلوه نقدا للحكومة من الضرائب فمن مصادر كونتات طرابلس المالية ، انهم كانوا يأخذون نصيبا من غلة المسلمين عند اوان نضجها ، وكان الفلاحون يؤدون لهم ضريبة الرأس وهي دينار وخمس قراريط عن كل رأس(٣) ، كما كانوا يأخذون ضريبة على الماشية التي ترعى في القرى المجاورة لقلعة الصبيبة ، كما كانوا يفرضون ضرائب ورسوم (جمارك) أيضا على التجارة من مبيعات ومشتريات ، وكانت اهم الاماكن التي تؤخذ منها رسوم جمركية ، عند قلعة صنجيل ، وعلى حدود امارة انطاكية ، كما كانوا يأخذون ايضا في ميناء طرابلس رسوما جمركية ، اذ كانت معظم الثغور الصليبية تحصل فيها ضرائب .(٤)

ودرجت الحكومة على فرض الضرائب على كل ما يرد الى الموانى ، والصادرات والمبيوع والمشتريات ، وعن رسو السفن ، وعن استخدام الاكيال والاوزان . وهناك

---

(١) Runciman: op.cit.-p. 56 ; Hitti:op.cit.p. 311-312 .

(٢) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ١ ص ٤٧٩ ، حسن حبشي : نور الدين والصليبيون ص ١٥١

(٣) ابن جبير : الرحلة ص ٢٠١ ، Runciman:Vol.2-p. 298 .

(٤) حسن حبشي : نور الدين والصليبيون ص ١٥٢ ، J.Richard:op.cit. p.p.55-56 .

أيضا ضريبة تسمى Tirraticum وهى اشبه بالعوائد ، وكانت مقررة على املاك التجار (١) . وكذلك كانت الضرائب تفرض عند تجهيز حملة حربية (٢) حين تستنفد الحرب قدرا كبيرا من الثروة العامة ، أو حين تدعو احدى الضرورات الحربية كاقامة الاسوار أو ترميم الحصون دفعا لاذى المغير (٣) . ومن الموارد الغالبة ايضا ما كان يحصل عليه الكونتات من السلب والنهب عن طريق الاغارة على القرى والضياع الاسلامية المجاورة بهم ، او عقب الانتصارات التى يحرزها كونتات طرابلس على المسلمين المجاورين بهم . ففى سنة ٥٠٢ هـ (١١٠٨ م) عندما كان الفرنج يحاصرون طرابلس استنجد القائم على حصن عرقه ، وهو من أعمال طرابلس بطغتكين اتابك دمشق بعد أن نقصت عنده الاقوات وانقطعت عنه المسيرة وذلك لخروجه على طاعة فخر الملك ابن عمار ولدخول مكث الفرنج فى نواحيه فأرسل اليه طغتكين أحد أتباعه ويدعى اسرائيل ليتسلم منه الحصن ، فلما نزل غلام بن عمار منه رماه اسرائيل بسهم قتله ، وذلك حتى لا يصرف طغتكين ما كان بالقطعة من أموال (٤) . ولكن طغتكين سار اليه لتقويته والاطلاع عليه ، وفى طريقه فتح حصونا للفرنج منها حصن الاكمه ، فلما سمع وليم جوردان (السردانى) وهو على حصار طرابلس بذلك ، توجه فى ثلاثمائة فارس لانجاد من بالاكمة فرحل طغتكين كالمنهزم ، وتتبع العسكر فغنم من الخيل والكراع غنيمة كبيرة ، فغدروا ونووا به (٥) . وكذلك عند سقوط طرابلس وصل فى ايديهم من امتعتها وذخائرها ، ودفاتر دار علمها وما كان فى خزائن اربابها ما لا يحد عدده ولا يحصر فيذكر . فان اهلها كانوا من أكثر اهل البلاد اموالا وتجارة (٦) .

وفى سنة ٥٠٣ هـ سنة ١١٠٩ م شن برتراند هجوما على رفنيه شرقى انطرطوس بقصد افتتاحها ، على أن طغتكين عندما سمع بذلك اسرع من دمشق للدفاع عن تلك القلعة ، واكتفى مؤقتا بأن عسكر على رأس قواته قرب حمص لمراقبة الامور ، فلم يقدر الصليبيون على منازلة رفنيه وتردد الرسل بين برتراند وطغتكين ،

---

(١) Runciman: op.cit. Vol.2-p. 298 .

(٢) Ibid:

(٣) حسن حبشى : نور الدين والصليبيون ص ١٥٢ — ١٥٣

(٤) ابن الاثير : الكامل جـ ١٠ ص ٤٦٨ حوادث سنة ٥٠٢ هـ

(٥) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٦٢ ، ابن الاثير : الكامل جـ ١٠ ص ٤٦٢ حوادث سنة ٥٠٢ هـ

(٦) ابن القلانسى : الذيل ص ١٦٢ ، ابن الاثير : الكامل جـ ١٠ ص ٤٦٢ حوادث سنة ٥٠٢ هـ

وانتهى الامر على أن ينسحب برتراند بتواته نظير حصوله على ثلث دخل البقاع فضلا عن حصن الصيارة وابن عكار ، وفي مقابل ذلك تعهد برتراند أمير طرابلس بعدم الاعتداء على صيدا وحصن الطوفان وحصن الاكراد بشرط أن يقدم أهل هذه الحصون اليه عنها قدرا معينا من المال (١) .

هذه بعض الامثلة للموارد المالية التي اعتمد عليها كونتات طرابلس ، منها ما كانوا يحصلون عليه نتيجة لغزواتهم في اراضي المسلمين ، ومنها ما كانوا يحصلون عليه نتيجة لتعهدهم بعدم الاعتداء على اراضيهم . وكان من مصادر المال ايضا " الاغضاب " فقد عرفت بلاد الشام منذ القديم بوفرة اخشابها وجودة انواعها (٢) . وأهم هذه الاخشاب أخشاب البميز ، ولذا اهتم الصليبيون بزراعتها .

ولم يكتف كونت طرابلس بالاغارة على اراضي المسلمين لسد حاجته من المال فقط ، بل لجأ ريموند الثالث — كونت طرابلس — الى الاغارة على املاك الدولة البيزنطية في قبرص لجمع ما انفقه من اموال طائلة في تجهيز أخته ميليسند التي رفض الامبراطور البيزنطي مانويل أن يتزوجها .

ولا أدل على عظم ثروة كونت طرابلس في ذلك الوقت من ذلك الجهاز الضخم الذي أعده ريموند الثالث لاخته ميليسند .

ولكن يبدو أن ثروة ريموند الثالث تأثرت بالسنوات العشر التي قضاها اسيرا في حلب بسبب غارات نور الدين المتكررة على الكونتيه ، وبسبب الزلازل التي اجتاحت بلاد الشام في النصف الثاني من القرن الثاني عشر والتي تكررت أخبارها في كتب المؤرخين المعاصرين .

ويورد لنا ابن الاثير في حوادث سنة ٥٦٥ هـ (١١٦٩ م) عن تتابع حدوث الزلازل التي لم ير الناس مثلها في بلاد الشام وانها فعلت بهذه البلاد الافرنج من التدمير الكثير مثلما فعلت في بلاد الاسلام (٤) .

---

(١) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٦٥ ، سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ١ ص ٢٧٦

(٢) حسن حبشي : نور الدين والصليبيون ص ١٥٤

(٣) William of Tyre: Op.cit. Vol.2 -p.292 ; Runciman: oP. cit. Vol.2 -p. 36 .

(٤) ابن الاثير : الكامل ج ١١ ص ٣٥٤ ، ٣٥٥ حوادث سنة ٥٦٥ هـ

ويذكر لنا الاستاذ فيليب حتى الرحالة اليهودي الأسباني بنيامين التطيلي ، زار بلاد الشام على أثر هذه الزلازل ، ووصف لنا ما فعلته الزلازل بـ رابلس ، فوجد حصن الاكراد وعرقه خربا تخريبا يكاد يكون تاما ، وفي طرابلس هدمت احياء كثيرة (١) . وقد أثرت هذه الزلازل في اقتصاديات امارة طرابلس (٢) والدليل على ذلك ان صلاح الدين عندما اطلق سراح ريموند الثالث من الاسر اشترط عليه ان يدفع مبلغ مائة الف وخمسين الف دينار وفكاك الف اسير كفدية (٣) . لم يستطع ريموند دفعها كلها ولكن ساعده في دفعها الاسبتارية وعمون . وسهل بوهيمند الرابع الذي خلف ريموند الثالث مدينا للاسبتارية بمبلغ كبير من فدية ريموند الثالث لم يستطع بوهيمند الرابع سداده الا في منتصف عام ١١٩٨ م .

وعلى ذلك نستطيع ان نقول ان كونتات طرابلس الاوائل كانوا على درجة كبيرة من الثراء ، ولكن هذه الثروة اخذت تتضاءل تدريجيا لعوامل عدة منها : الخسائر الفادحة التي منيت بها الكونتية نتيجة لغارات المسلمين . هذا بالاضافة الى الزلازل التي حدثت سنة ٥٥٢ هـ (١١٥٧م) وأثرها في استنزاف الاموال في اعادة بناء ما تهدم من الحصون وهدمت فيها ما كان من هدم ما بقي من المهدوم بالزلازل الأول (٤) .

اما كيفية توزيع الغنائم ، فوفقا للاتفاقية المعقودة مع الاسبتارية سنة ١١٤٢ م فان الغنائم كانت توزع على النحو التالي :

كان للكونت نصيب من هذه الغنائم (نصيب اللواء) ، وتوزع باقي الغنائم على جميع من اشترك من الجيش في القتال . وكان الكونت في بادئ الامر يحسب نصف نصيب اللواء للدام فرسان الاسبتارية عندما يساهمون في حملاته ، ولكن عندما اصبح فرسان الاسبتارية يقومون بالعبء الاكبر في الدفاع عن الكونتية اصبح نصيب اللواء يمنح كله لهم (٥) .

---

(١) Hitti: op. cit. p. 316 .

(٢) ابن جبير : الرحلة ص ٢٠٩ ، ذكر ابو الفدا : البداية والنهاية ج ١٢ ص ٢٨٩ وكذلك ابو شامه الروضتين ج ١ ص ٢٣٩ أن الذي فك اسره نور الدين .

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص ٢٢

(٤) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٤٣

(٥) J. Richard: op. cit. - p. 56 .

الزراعـــــه :

يوجد بكونتيـة طرابلس كثير من الانهار ، أهمها نهر ابى على (قـــادشا) وكان لوجود هذا النهر أثره فى كثرة بساتين طرابلس ومزارعها فى العصور التاريخية المختلفـة ، وهى كثيرة الثمار والغيرات ولها بساتين جليلة (١) . ويزرع بهـا قصب السكر (٢) . ولذلك اشتهرت طرابلس بأنها بلدة متجر وزرع (٣) . وعلى ذلـك نقول ان مدينـة طرابلس اشتهرت بزراعـة كثير من الحاصلات الزراعية اهمهـا البرتقـال ، والحمضيات بوجه عام ، وقصب السكر والفواكه والزيتـــون (٤) . وقـد عرف الصليبيـون قصب السكر لأول صرة على شواطئ طرابلـــس (٥) .

التجـــــارة :

اشتهرت طرابلس بأنهـا مدينـة تجاريـة . وقد قام الصليبيون بتصديـــر بعض الحاصلات الزراعيـة مثل الزيتون والموالح الى الغرب كما صدروا ايضـــا السكر . واستمرت علاقـة امارة طرابلس بالتجار المسلمين حسنـة اذ كانت قوافل المسلميـن على حد قـول ابن جبير " تخرج الى بلاد الافرنج وسبيهم يدخل بلاد المسلمـــين " . ويحدثنا ايضـا ابن جبير عن احترام المسلمين والصليبيين على السـواء لتاجرين من كبار تجـار المسلميـن ، هما نصر بن قـوام وأبـو بكر ياقـوت (وتجارتهما كلهـا بهذا الساحـل الافرنجى ولا ذكر فيه لسواهمـا ولهما الاضـاء من المقارضـين ، فالقوافـل صادرة ووارده ببضائعهمـا ، وشأنهما فى الغـنى كبير وقدرهما عند امراء المسلمين والافرنجيين خطير) (٦) وكذلك صدر الصليبيـون بالشام الاقمشـة والملابس الحريريـة . وكانت المناطـق المجاورة لبيروت وطرابلس تعـنى بتربيـة دودة القـز منذ العهد البيزنطـــى المتأخر (٧) .

ومن الواضح ان الجزء الاكبر من ذلك النشاط التجارى تركـز فى قبضة التجـار الايطاليين مثل الجنويـة الذيـن كان لهـم دور كبير فى الاستيلاء على طرابلـس .

---

(١) ياقـوت : معجم البلـدان " مدينـة طرابلس "

(٢) ابو الفدا : تقويم البلدان ص ٢٥٢ ، ٢٥٣

(٣) القلقشندى : صبح الاعشى ج ٤ ص ١٤٢

(٤) الادريسى : وصف فلسطين والشام " نزهة المشتاق " ص ٣١٧ .

(٥) F.R.Buhl: Tarabulus :Inc.of Isl.
Hitti: op. cit. p. 311 .

(٦) ابن جبير : الرحلة ص ٣٠٨

(٧) Hitti : op. cit. p. 311 .

وكان لهم على طرابلس (١) كما كان لكثير من الجاليات الايطالية مثل البازنطية والبنادقة احياء بأكملها (٢) وأنشأوا فيها فنادق خاصة (خانات) وينقسم الخان في العادة الى قسمين : الطابق الاسفل وينزلون فيه رحالهم . اما الطابق العلوي فلاقامة التجار . وكانت الخانات الدينية والمذهبية وكثرة الحروب لا يقفان عائقا دون استمرار الحركة التجارية والتبادل التجاري وكان التجار المسلمون حينما يدخلون البلد يلبسون حماية جماعة مصنعة (٣) في البلاد حتى لا يمسهم احد بسوء (مثل فرسان الداوية) .

الصناعة :

اشتهرت طرابلس بصناعات كثيرة قامت فيها ، كان اهمها بالطبع صناعة السكر القائمة على زراعة قصب السكر الذي اشتهرت به مزارعها . وكذلك اشتهرت طرابلس بصناعة الاواني الخزفية والزجاجية ، كما كان بها ايضا صناعة الاقمشة الحريرية القائمة على تربية دودة القز الذي اشتهرت بتربيته منذ العهد البيزنطي . كما كانت اشغال التطريز تسير جنبا الى جنب مع صناعة النسيج (٤) .

أما اليهود فاحتكروا في طرابلس صناعة الصباغة التي اعتمدت على نوع من النبات يعرف باسم البرانس (٥) وكان يعطي لونا ارجوانيا .

* * *

الحياة الثقافية والعلمية في امارة طرابلس الصليبية :

اشتهرت مدينة طرابلس في عهد اسرة بني عمار بالازدهار العلمي والأدبي ، فكانوا يهتمون بالعلم ويحنون على العلماء . وقد بنى بنو عمار مدرسة سنة ٤٧٢ هـ سموها دار العلم . وكان من الذين تولوا دار العلم الشيخ العالم ابو عبد الله الطليطلي النحوي الذي كان في النحو سيبويه زمانه (٦) . كما كان بطرابلس قبل اسرة بني عمار مكتبة ضخمة قيل انها كانت تحوي مائة الف مجلد

---

(١) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٦٣

(٢) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ١ ص ٤٨٩

(٣) حسن حبشي : نور الدين والصليبيون ص ١٥٠.

(٤) Hitti : oP cit. - p. 311 .

(٥) Runciman : op. cit., Vol. 2 - p. 295 .

(٦) اسامة بن منقذ : الاعتبار ص ٢٠٨

وكان بنو عمار يستقبلون طلاب العلم الى عاصمتهم طرابلس (١) . وهكذا بلغت طرابلس اثناء حكم بني عمار الذروة في الشهرة العلمية .

ولكن حين استولى الصليبيون على طرابلس تعرضت مكتبة بني عمار للنهب والسلب وغنموا من اهلها الاموال والامتعة وكتب دور العلم (٢) ، وتعرضت ايضا لحريق كبير فأحصى لها كل أثر (٣) . ولذلك نجد الآداب العربية في القرن الثاني عشر تنحط ، وأصبح الشعر والنثر في حالة مخزية ، وصارت الفتوى (٤) والقضاء والمناصب العلمية ملعبة وشعبذة وسخرية والمدارس مأوى الحمير

ومن ناحية أخرى فان النشاط الادبي الذمي في طرابلس ظل في حالة لا بأس بها . فقد نبغ في طرابلس أدباء وكتاب كانت لهم اهمية كبيرة . ومنهم وليم الطرابلسي ، وهو احد اساقفة الدومينكان الذين كتب في طرابلس افضل كتاب الفه مسيحي عن الاسلام في العصور الوسطى .
Tractus de Statu Saracenorum .

ولا يفوتنا هنا أن نشير الى اللغة التي كانت سائدة بين الصليبيين في طرابلس . فقد استخدموا اللهجة الجنوبية من اللغة الفرنسية Langue d'oc. وبالاضافة الى اللغة الفرنسية فكان التجار الايطاليون يتكلمون الايطالية (٥) . وتوجد وثائق تدل على ان بعض الفرنجة اتقنوا العربية . بينما لا نعلم احدا من المسلمين تعلم اللاتينية أو الفرنسية القديمة . فقد كان العربي المسلم الذي يتكلم لغة القرآن يرى حطة على نفسه ان يتعلم لغة الكفار ، وقد وجد امراء الفرنج واقطاعيوهم وتجارهم ورهبانهم أن من الخير لهم ان يتعلموا العربية ، وترى ريموند الثالث كونت طرابلس يتقن العربية اذ تعلمها اثناء وقوعه في الأسر في حلب (٦) . وما كان في بلاد المسلمين من امراض مستعربة عليهم لم يصلح لعلاجها اطباء الصليبيين الذين كان لزاما عليهم أن يبادروا الى الاعتماد على اطباء المسلمين (٧) . وقد تقدم الطب في اواخر القرن الثاني عشر وشهد العالم حركة تأليف علمي في هذه الناحية (٨) .

---

(١) Hitti: op. cit. -p. 289 .
(٢) ابن الاثير : الكامل ج ١٠ ص ٤٧٦ حوادث سنة ٥٠٢ هـ
(٣) محمد حسن الاعظمي : عبقرية الفاطميين ص ٢١٥
(٤) كرد علي : خطط الشام ج ٤ ص ٦٤
(٥) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ١ ص ٤٩٤
(٦) Hitti: op. cit. pp. 319-320 .
(٧) Runciman: op. cit. -Vol.2 -p. 317
(٨) حسن . . . نور الدين والصليبيون ص ١٦٠

وانقسم الطب عند الصليبيين في القرن الثاني عشر الى قسمين — احدهما ضرب بممارسة من لا باع له فيه ، وآخر يقوم على الناحية العلمية الدقيقة . وهو في الحالتين يتوقف على مهارة الطبيب وقدرته وحسن تصريفه لما هو امامه ، والظاهر أن الصليبيين كانوا يدركون تقدم الطب عند المسلمين ولدينا حادثة وقعت في قرية قرب طرابلس في المنيطرة رواها طبيب نصراني اسمه ثابت ، تشهد على تقدم الطب عند العرب وتأخره عند الصليبيين ، قال : " احضروا عندي فارسا قد طلعت في رجله دمّله وامرأة قد لحقها نشاف . فعملت للفارس لبيخة ففتحت الدمّلة وصلحت . وحمية المرأة ورطبت مزاجها " فجاءهم طبيب افرنجي فقال لهم " هذا ما يعرف شيئا بداويهم " وقال للفارس : " أيما أحب اليك تعيش برجل واحدة أو تموت برجلين ؟ قال " اعيش برجل واحدة " قال : احضروا لي فارسا قويا وفأسا قاطعا " فحضر الفارس والفأس وأنا حاضر ، فحط ساقه على قرمه خشب وقال للفارس " اضرب رجله بالفأس ضربة واحدة اقطعها " فضربه ، وأنا أراه ضربة واحدة ما انقطعت ضربه ضربة ثانية فسال مخ الساق . ومات من ساعته . وأبصر المرأة فقال : " هذه امرأة في رأسها شيطان قد عشقها احلقوا شعرها . فحلقوه وعادت تأكل من مأكلهم الثوم والخردل — فزاد بها النشاف فقال : " الشيطان قد دخل في رأسها " فأخذ الموس وشق رأسها صليبا وسلخ وسطه حتى ظهر عظم الرأس وحكه بالملح . فماتت في وقتها . فقال لهم (بقي لكم الي حاجة .. ؟) قالوا : لا — فجئت وقد تعلمت من بعضهم ما لم أكن اعرفه .(١)

كذلك كان الصليبيون يتخذون لهم اطباء خصوصيين من بين العرب .(٢) وكانت هذه الطبقة التي تتألف الاطباء العرب هي طبقة الامراء الافرنج والفئة الارستقراطية منهم . خاصة في الامراض المعدية التي تعتبر غريبة عنهم . ولم يكن يصلح لعلاجها اطباؤهم .(٣)

فيقول وليم الصوري : " ان الامراء الصليبيين الشرقيين بناء على رغبة نسائهم وتحت تأثيرهم لا يعتقدون في الادوية ولا يثقون في وسائل وطرق علاج الاطباء

---

(١) اسامه بن منقذ : الاعتبار ص ١٢٢ ، ١٢٣

(٢) حسن حبشي : نور الدين والصليبيون ص ١٦١

(٣) Runciman: op.cit. Vol. 2 - p. 317 .

الصليبيون (١) . ولكنهم يثقون بالاطباء اليهود والمسلمين . ومن هؤلاء الاطباء طبيب كونت طرابلس ريموند الثالث السورى الذى يسمى البراق Barac (٢) وهو الذى قام بعلاج الملك بولدوين الثالث سنة ١١٦٢ م . عندما دهمه المرض اثناء اجتيازه طرابلس وعمره عندئذ ثلاث وثلاثون سنة .

على أنه وجد من اطباء الصليبيين من اتقن الحرفة بشهادة المسلمين انفسهم من ذلك " كان للملك خازن من فرسانهم يقال له برنارد ، لعنه الله ، من العين الفرنج وأرجسهم فرمحه حصان فى ساقه فعملت عليه رجله وفتحت فى اربعة عشر موضعا . والبرل كلما ختم موضع فتح موضع وأنا ادعو بهلاكه ، فجاءه طبيب افرنجى فأزال عنه تلك المراهم وعمل بغسلها بالخل الحادق فغتمت تلك البرل وبرأ وصار مثل الشيطان (٣) .

ومن الشىء الذى يستحسن الانتباه عدم مطالبة بعض الاطباء بأجور لهم عن معالجة مرضاهم .

كذلك كان الصليبيون يعتقدون فى مقدرة القساوسة على شفاء المرضى من ذلك أن أحد الفرسان كبير القدر مرض وأشرف على الموت . فجاءوا الى قس كبير من قساوستهم وقالوا له " تجىء معنا حتى تبصر الفارس فلانا ؟ " قال : " نعم " ومشى معهم وهم واثقون أنه اذا حط يده عليه عوفى فلما رآه قال : " اعطونى شمعا ، فأحضروا له قليلا من شمع ، فلينه وعمله مثل حقة الاصبع — وعمل كل واحدة فى جانب انفه . فمات الفارس ، فقالوا له : " قد مات " قال " نعم " كان يتعذب سددت انفه حتى يموت ويستريح (٤) .

* * *

وبعد فهذه كانت صورة للحياة العلمية والادبية فى امارة طرابلس الصليبية فى القرن الثانى عشر .

---

(١) William of Tyre: op.cit. Vol.2-p. 395 .

(٢) Runciman: op. cit. Vol.2 - p. 362 ; Hitti : op.cit. p. 319 .

(٣) اسامه بن منقذ : الاعتبار ص ١٢٣ ، ١٢٤

(٤) المصدر السابق ص ١٢٣ ، ١٢٤

قائمة بمصادر ومراجع البحث

أولا - المخطوطات :

١ - ابراهيم الحنبلي : احمد بن ابراهيم
شفاء القلوب في مناقب بني أيوب (جامعة القاهرة ٢٤٠٣)

٢ - احمد بن على العريشي
الاعلام والتبيين في خروج الفرنج الملاعين على بلاد المسلمين
" عن نسخة في باريس " (دار الكتب .. تاريخ تيمور ٢٢٨٦)

٣ - الأزدي " ابن طاهر " ، جمال الدين أبو الحسن على بن كمال الدين
ت ٦٢٣ هـ "
أخبار الدول المنقطعة (دار الكتب ٨٩٠ تاريخ)

٤ - ابن ايبك الدوادار .. ابو بكر بن عبد الله " ت ٧٠٩ هـ "
كنز الدرر وجامع الغرر
الجزء السابع " الدر المطلوب في أخبار دولة بني أيوب " دار الكتب
٢٥٧٨ تاريخ "

٥ - ابن بهادر .. محمد بن محمد بن محمد المؤسني " ت أواخر القرن التاسع "
فتوح النصر في تاريخ ملوك مصر " دار الكتب
٢٢٩٩ تاريخ تيمور

٦ - ابن الجوزي : الحافظ جمال الدين ابو الفرج عبد الرحمن " ت ٥٩٧ هـ "
(أ) شذور العقود في تاريخ العهود (دار الكتب ٤٩٤ تاريخ)
(ب) صفوة الصفوة (دار الكتب ٥١٥ [illegible])

٧ - ابن حبيب : بدر الدين ابي محمد الحسن بن عمر بن حبيب " ت ٧٧٩ هـ "
(أ) تجهينه الاخبار في اسماء الخلفاء وملوك الامصار (دار الكتب
١١٥٤ تاريخ)

(ب) درة الاسلاك في دولة الاتراك (دار الكتب ٦١٧٠ ج)

٨ ـ ابن دقماق : برهان الدين ابراهيم بن محمد بن دقماق " ت ٨٠٩ هـ "
الجوهر الثمين في سير الملوك والسلاطين (دار الكتب ١٥٢٢ تاريخ)

٩ ـ السلامي : شهاب الدين احمد السلامي
مختصر التواريخ (دار الكتب ميكروفيلم رقم ١٦٧٩)

١٠ ـ سبط بن الجوزي : شمس الدين ابو المظفر يوسف بن قزاوغلي " ت ٦٥٤هـ "
مرآة الزمان (دار الكتب رقم ٩٢٧٦ ج)
(والجزء الثامن طبعة شيكاغو)

١١ ـ ابن العديم : كمال الدين بن ابي جرادة " ت ٦٦٠ هـ "
بغية الطلب في تاريخ حلب (دار الكتب رقم ٥١٦ تاريخ)

١٢ ـ ابن عساكر : ابي القاسم علي بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله
" ت ٥٧١ هـ "
تاريخ مدينة دمشق (دار الكتب رقم ٤٩٢ تاريخ)

١٣ ـ العصامي : عبد الملك بن حسين بن عبد الملك " ت ١١١١ هـ "
سمط النجوم العوالي في انباء الاوائل والتوالي (دار الكتب
رقم ٢٦٢ تاريخ)

١٤ ـ العيني : بدر الدين محمود بن احمد " ت ٨٥٥ هـ "
عقد الجمان في تاريخ اهل الزمان (دار الكتب رقم ١٥٨٤ تاريخ)

١٥ ـ ابن الفرات : محمد بن عبد الرحيم احمد بن علي " ت ٨٠٧ هـ "
تاريخ الدول والملوك (دار الكتب ٢١٩٧ تاريخ)

١٦ ـ ابن فضل الله العمري : شهاب الدين " ت ٧٤٢ هـ "
مسالك الابصار في ممالك الامصار ج ٢ ق ٢ (دار الكتب رقم
٢٦٦٨ تاريخ)

١٧ ـ ابن قاضي شهبه : ابي الفضل محمود بن ابي بكر " ت ٨٧٤ هـ "
الكواكب الدرية في السيرة النورية ـ المسمى الدر الثمين في
سيرة نور الدين (دار الكتب رقم ١٢٢٧ تاريخ)

١٨ ـ النويري : شهاب الدين احمد بن عبد الوهاب " ت ٧٣٢ هـ "
نهاية الأرب في فنون الأدب (دار الكتب رقم ٥٤٩ معارف عامه)

١٩ ـ الهروي : الاشارات الى معرفة الزيارات (دار الكتب ٧٤٧٤ جغرافيا)

ثانيا ـ المصادر العربية المطبوعة :

١ ـ ابن الاثير : ابي الحسن علي بن ابي الكرم محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني الجزري " ت ٦٣٠ هـ"
أ ـ الكامل في التاريخ ط بيروت
ب ـ التاريخ الباهر في الدولة الاتابكية بالموصل ـ تحقيق عبد القادر طليمات ١٩٦٣ م

٢ ـ ابن اياس : ابو البركات محمد بن احمد " ت ٩٣٠ هـ "
بدائع الزهور في وقائع الدهور استانبول ١٩٦٠م"

٣ ـ ابن ايبك الدواداري : ابي بكر بن عبد الله " ت ٧٠٩ هـ "
كنز الدرر وجامع الغرر
جـ ٦ ـ الدره المضية في اخبار الدولة الفاطمية ـ تحقيق صلاح الدين المنجد ١٩٦١ م
جـ ٨ ـ الدره الزكية في اخبار الدولة التركية ـ تحقيق أولرخ هارمان ١٩٧١ م

٤ ـ ابن بطوطه : ابو عبد الله محمد بن ابراهيم اللواتي " ت ٧٧٩ هـ"
رحلة ابن بطوطه المسماه تحفة النظار بيروت ١٩٦٠م

٥ ـ البنداري : الفتح بن علي " ت القرن التاسع هـ "
مختصر تاريخ دولة آل سلجوق القاهرة ١٨١٨ م

٦ ـ ابن جبير : ابو الحسن محمد بن احمد " ت ٦١٤ هـ "
رحلة ابن جبير تحقيق وليم رايت ليدن ١٩٠٧م

٧ ـ الحسيني : صدر الدين ابي الحسن علي بن السيد
اخبار الدولة السلجوقية نشر محمد اقبال لاهور ١٩٣٣ م

٨ - الحلبي : كامل حسين بن محمد البابي " الغزي "
نهر الذهب في تاريخ حلب ١٣٤٢ هـ

٩ - ابن حبوس : ابي الفتيان محمد بن سلطان " ت ٤٧٢ هـ "
ديوان ابن حبوس دمشق ١٩٥١م

١٠ - ابن خلدون : عبد الرحمن بن محمد " ت ٨٠٨ هـ "
العبر وديوان المبتدأ والخبر

١١ - الذهبي : الحافظ الذهبي " ت ٧٤٨ هـ "
العبر في خبر من غبر الكويت ١٩٦١م

١٢ - ابن الراهب : ابي شاكر بطرس بن ابي الكرم بن المهذب
تاريخ ابن الراهب بيروت ١٩٠٣م

١٣ - الراوندي : محمد بن علي بن سليمان الراوندي
راحة الصدور وآية السرور في تاريخ الدولة السلجوقية ١٩٦٠م

١٤ - السيوطي : عبد الرحمن بن ابي بكر جلال الدين " ت ٩١١ هـ "
حسن المحاضرة في اخبار مصر والقاهرة القاهرة ١٢٩٩ هـ

١٥ - أبو شامه : شهاب الدين ابي محمد عبد الرحمن " ت ٦٦٥ هـ "
الروضتين في اخبار الدولتين

١٦ - ابن شاهين الظاهري : غرس الدين خليل
زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك باريس ١٨٩٤م

١٧ - ابن الشحنه : ابي الفضل محمد بن الشحنه الحلبي " ت ٨٠٠ هـ "
الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب بيروت ١٩٠٠م

١٨ - ابن شداد : القاضي بهاء الدين ابو المحاسن يوسف بن رافع " ت ٦٣٢ هـ "
النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية " سيرة صلاح الدين "

١٩ - ابن شداد : عز الدين ابو عبد الله محمد بن علي الحلبي
الاعلاق الخطيرة في ذكر امراء الشام والجزيرة " نشر سامي
الدهان دمشق ١٩٦٢ "

٢٠ — ابن عبد الظاهر : محيي الدين بن عبد الظاهر
تشريف الايام والعصور في سيرة الملك المنصور

٢١ — ابن العبري : ابي الفرج غريغوريوس (مجهول المؤلف) " ت ٦٨٤هـ"
تاريخ مختصر الدول طبعة بيروت

٢٢ — ابن العديم : كمال الدين ابو القاسم عمر بن احمد بن هبة الله
" ت ٦٦٠ هـ "
زبدة الحلب في تاريخ حلب دمشق ١٩٥٤ م

٢٣ — الصيرفي : محمد بن علي بن محمد بن احمد " ت ٥٥٦ هـ"
تاريخ الصيرفي

٢٤ — ابن العماد : عبد الحي بن العماد الحنبلي " ت ١٠٨٩ "
شذرات الذهب في اخبار من ذهب القاهرة ١٣٥٠ هـ

٢٥ — العماد الاصفهاني : أبو عبد الله محمد بن صفي الدين " ت ٥٩٧ هـ"
الفتح القسي في الفتح القدسي القاهرة ١٩٦٥ م

٢٦ — عماد الدين الاصفهاني : عماد الدين محمد بن محمد بن حامد " ت ٥٩٧هـ"
أ — كتاب تاريخ دولة آل سلجوق
اختصار الفتح بن علي بن محمد البندراري ١٩٠٠ م
ب — نصرة الفترة وجريدة العصر دمشق ١٩٥٩ م

٢٧ — ابن العميد : الشيخ جرجس بن العميد بن الياس الشهير بالمكين
" ت ٦٧٢هـ"
تاريخ المسلمين لبدن ١٦٢٥ م

٢٨ — أبو الفدا : عماد الدين اسماعيل ابو الفدا " ت ٧٣٢هـ"
أ — المختصر في اخبار البشر
ب — تقويم البلدان

ا — ابن الفرات : محمد بن عبد الرحيم " ت ٨٠٧ هـ "
تاريخ ابن الفرات
الجزء الثامن تحقيق قسطنطين زريق ، نجلاء عز الدين

٣٠ - ابن القلانسي : ابو يعلى حمزه " ت ٥٥٥ هـ "
ذيل تاريخ دمشق بيروت ١٩٠٨ م

٣١ - القلقشندي : ابو العباس احمد بن علي " ت ٨٢١ هـ "
صبح الاعشى في صناعة الانشا

٣٢ - ابن كثير : عماد الدين ابو الفدا اسماعيل بن عمر " ت ٧٧٤ هـ "
البداية والنهاية في التاريخ القاهرة ١٣٤٨ هـ

٣٣ - مجير الدين الحنبلي " ت ٩٢٧ هـ "
الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل القاهرة ١٢٨٣ هـ

٣٤ - ابو المحاسن : جمال الدين يوسف بن تغرى بردى " ت ٨٧٤ هـ "
النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة

٣٥ - المقريزي : تقي الدين احمد بن علي " ت ٨٤٥ هـ "
أ - الذهب المسبوك في ذكر من حج من الخلفاء والملوك
القاهرة ١٩٥٥ م

ب - المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار

جـ - السلوك لمعرفة دول الملوك

د - اغاثة الامة بكشف الغمة

٣٦ - مكسيموس مونروند

تاريخ الحروب المقدسة في المشرق المدعوة حرب الصليب
ترجمة : مكسيموس مظلوم ١٨٦٥ م

٣٧ - ابن منقذ : اسامه " ت ٥٨٤ هـ "
كتاب الاعتبار نشر فيليب حتى ١٩١٠ م

٣٨ - ابن ميسر : محمد بن علي بن يوسف " ت ٦٦٧ هـ "
تاريخ مصر نشر هنري ماسيه القاهرة ١٩٥٣ م

٣٩ - ابن هاشم الطباخ الحلبي : محمد راغب بن محمود
اعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء حلب ١٩٢٥ م

٤٠ ـ ابن واصل : جمال الدين بن واصل " ت ٦٩٧ هـ"
مفرج الكروب في أخبار بني أيوب

٤١ ـ ابن الوردي : عمر بن الوردي " ت ٧٤٩ هـ"
تاريخ ابن الوردي

٤٢ ـ اليافعي : ابو محمد عبد الله اليمني " ت ٧٦٨ هـ"
مرآة الجنان وعبرة اليقظان حيدرآباد ١٣٣٨ هـ

٤٣ ـ ياقوت : شهاب الدين ابو عبد الله الحموي " ت ٦٢٦ هـ "
معجم البلدان

٤٤ ـ يحيى بن سعيد الانطاكي
التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق بيروت ١٩٠٥ م

ثالثا ـ المراجع العربية الحديثة :

١ ـ ابو المعالي محمد الحسيني العلوي
كتاب بيان الاديان ترجمة يحيى الخشاب
(مجلة كلية الآداب ـ المجلد التاسع عشر ، الجزء الاول مايو ١٩٥٧م)

٢ ـ أرشيبالد (لويس)
القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط
ترجمة احمد محمد عيسى القاهرة ١٩٦٠ م

٣ ـ آرنست باركر
الحروب الصليبية القاهرة ١٩٦٣ م

٤ ـ انيس فريحه
اسماء المدن والقرى اللبنانية وتفسير معانيها بيروت ١٩٥٦ م

٥ ـ جرونيباوم : جوستاف
حضارة الاسلام
تعريب عبد العزيز جاويد مراجعة العبادي

٦ - جورجي بنه
تاريخ سوريـــا بيروت ١٨٨١م

٧ - جوزيف نسيم
العرب والروم والترك في الحرب الصليبية الاولى الاسكندرية ١٩٦٢م

٨ - حسن حبشي
أ - الحرب الصليبية الاولى القاهرة ١٩٤٧
ب - نور الدين والصليبيون القاهرة ١٩٤٨
جـ - اعمال الفرنجه وحجاج بيت المقدس مترجم القاهرة ١٩٥٩م

٩ - حسنين محمد ربيع
النظم المالية في مصر زمن سلاطين الايوبيين
مطبعة جامعة القاهرة ١٩٦٤م

١٠ - زامباور
معجم الانساب والاسرات الحاكمة القاهرة ١٩٥٠م

١١ - زكي محمد حسن
أ - الفنون الاسلامية ١٩٤٨
ب - تراث الاسلام
جـ - الرحالة المسلمون في العصور الوسطى ١٩٤٥م

١٢ - زكي النقاش
الصدقات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية بين العرب والفرنج بيروت

١٣ - سرور : محمد جمال الدين
أ - النفوذ الفاطمي في بلاد الشام والعراق القاهرة ١٩٥٩م
ب - مصر في عصر الدولة الفاطمية القاهرة ١٩٦٥م

١٤ - سعيد عبد الفتاح عاشور
أ - الحركة الصليبية القاهرة ١٩٦٣
ب - أوربا العصور الوسطى " ١٩٦٧
جـ - الناصر صلاح الدين
د - الأيوبيون والمماليك في مصر والشام

١٥ — سمير الصارم
أبو العلاء المعري — حياته — شعره دمشق

١٦ — السيد عبد العزيز سالم
طرابلس الشام في التاريخ الاسلامي ١٩٦٧

١٧ — السيد علي الحريري
الاخبار السنية في الحروب الصليبية ١٣١٧ هـ

١٨ — عبد النعيم محمد حسنين
سلاجقة ايران والعراق القاهرة ١٩٥٩ م

١٩ — عرفان عبد الحميد
دراسات في الفرق والعقائد الاسلامية بغداد ١٩٦٧ م

٢٠ — العدوي : ابراهيم احمد العدوي
الامبراطورية البيزنطية والدولة الاسلامية القاهرة ١٩٥١ م

٢١ — عمر كمال توفيق
أ — مملكة بيت المقدس الصليبية ١٩٥٨ م
ب — تاريخ الامبراطورية البيزنطية ١٩٦٧ م

٢٢ — فردينان توتل اليسوعي
مقالة عن زيارة الى قلعة المرقب
(مجلة المشرق السنة ٣٣ لسنة ١٩٣٥ م)

٢٣ — محمد احمد حسين
اسامه بن منقذ — صفحة من تاريخ الحروب الصليبية ١٩٤٦م

٢٤ — محمد حسن الاعظمي
عبقرية الفاطميين بيروت

٢٥ — محمد سليم البندي
الجامع في اخبار ابي العلاء المعري وآثاره دمشق ١٩٦٢ م

٢٦ — محمد العروسي المطوي
الحروب الصليبية في الشرق والغرب ١٩٥٤ م

٢٧ — محمد كرد علي
خطط الشام دمشق ١٩٢٦م

٢٨ — تحسين حسان سمحاوي
الحرب والسلم زمن العدوان الصليبي ١٩٦١م

المراجع الأوربية

(1) A.Asher : Benyamen of Tudela . (London I840).

(2) Atiya (A.S.).

The Crusades in the Later Middle Ages.
(London I938).

(3) Cambridge . Med Hist.

(Cambridge 1957).

(4) Chalandon (F)

Histoire de la première croisade .
(Paris I925).

(5) Charles J. Rosebault .

Saladin .
(London : I930).

(6) Dozy . Supp. Dict. AR .

(7) Gibbon (E)

Decline and fall of the Roman Empire;
(London : I957).

(8) Grousset (R):

Hist.des Croisades et du Royaume France
de Jerusalem (3 vols).
(Paris : I943).

(9) Heyd (W) :

Hist. du Commerce du Levant . (2 vols.)
(Leipzig. I930).

(10) Hitti (Philip K).

Le Banon In History from the Earliest Time to the present .
(London I927).

(11) King (E.J.) :

The knights Hospitallers In the Holy land.
(London - I93I).

(12) Lane Poole (S) :

Saladin .
(New York I898).

(13) Michaud :

Histoire de Croisades .
(Paris I822).

(14) Recueil des Historiens des Croisades.
1)Historiens occidentaux.
2)Historiens Orientaux.
(Paris - I84I-I906).

(15) Richard A. New Hall .
The Crusades .
New York I927).

(16) Richard (J.) :

Le Comté de Tripoli Sous la dynastie Toulousaine.
(Paris 1945).

(17) Robin Fedden : Crusader Castles .
(London I950).

(18) Runciman (Steven):
A history of the Crusades
(Cambridge I952).

(19) Setton (K.M.).

A history of the Crusades .
(Pennsylvania 1958).

(20) Sobernheim :

Encyc. Isl. art. (Ibn' Ammar).

Wiet: Encyc. Isl. art.(Banu 'Ammar).

F.R.Buhl: Encyc. Isl.art (Ibn Hamdis).

(21) Stevenson (W.B.).

The Crusaders In the East .

(Cambridge 1907).

(22) William of Tyre :

A history of deeds done beyond
the sea .
(Columbia 1943).

000000000000000000000000000000
000000
000
0
.